سورة سبأ

مكية وقيل فيها آية مدنية وهي ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. وهي اربع وقيل خمس وخمسون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾

السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان في الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ① قَيِّمًا﴾[الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في هذه السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ وقال في الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾[فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلى يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى عنهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣] وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة: ٤] إشارة إلى النعمة الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام.

ثم في الآية مسائل:

المسألة الأولى: الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما في السموات وما في

الأرض لنفسه بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جوابًا عنه: الحمد يفارق الشكر في معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وإن لم ينعم على الحامد أصلاً، فإن الإنسان يحسن منه أن يقول في حق عالم لم يجتمع به أصلاً أنه عالم عامل بارع كامل فيقال له إنه يحمد فلانًا ولا يقال إنه يشكره إلا إذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود في الأزل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور ولا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفي ذكر العظمة وفي كونه مالك ما في السموات وما في الأرض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يوجب شكرًا أتم مما يوجبه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٢٩] وذلك لأن ما في السموات والأرض إذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو، يوجب ذلك شكرًا لا يوجبه كون ذلك لنا.

المسألة الثانية: قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعمة التي في الآخرة، فلم ذكر الله السموات والأرض؟ فنقول: نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ إشارة إلى أن خلق هذه الأشياء بالحكمة والخير، والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه إيجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة.

المسألة الثالثة: الحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فإن من يعلم أمرًا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم، فالفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم، والخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور وبواطنها فقوله: (حَكِيمٌ) أي في الابتداء يخلق كما ينبغي وخبير أي بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر إلى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم في الابتداء خبير في الانتهاء.

قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾

ما يلج في الأرض من الحبة والأموات ويخرج منها من السنابل والأحياء وما ينزل من السماء من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن، وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانيًا.

المسألة الثانية: قال ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَآۚ﴾ ولم يقل: يعرج إليها، إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية، فلو قال وما يعرج إليها، لفهم الوقوف عند السموات فقال: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَآۚ﴾ ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال في الكلم الطيب: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠] لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه، وأما السماء فهي دنيا وفوقها المنتهى.

المسألة الثالثة: قال: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولاً بالإنزال وغفر ثانيًا عند العروج.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾

ثم بين أن هذه النعمة التي يستحق الله بها الحمد وهي نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ ثم رد عليهم وقال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

أخبر بإتيانها وأكده باليمين، قال الزمخشري رحمه الله: لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع أنهم يقولون: لا رب، وإن كانوا يقولون به، لكن المسألة الأصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ وبيان كونه دليلاً هو أن المسيء قد يبقى في الدنيا مدة مديدة في اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدة ويموت فيها، فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان الأمر على خلاف الحكمة، والذي أقوله أنا هو أن الدليل المذكور في قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ أظهر، وذلك لأنه إذا كان عالمًا بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام، وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح والأجسام أجزاؤها في الأرض والأرواح في السماء فقوله: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى علمه بالأجسام، وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد. وقوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب، وعلى هذا فلو قال قائل: فأي حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر؟ فنقول: لما كان الله

تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر، لكونها محل النسيان، أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فقال الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضًا مكتوب فيه، ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح، وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم، فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]وقوله عليه السلام فيما أخبرنا به تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهي قال: أخبرني والدي عن جدي عن محيي السنة عن عبد الواحد المليجي عن أحمد بن عبد الله النعيمي عن محمد بن يوسف الفربري عن محمد بن إسماعيل البخاري: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ» والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملاً، فعند فراغه من العمل لا بد من أن ينعم عليه إنعامًا ويطعمه طعامًا، ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا أنه بمعنى ذي كرم أو مكرم، أو لأنه يأتي من غير طلب بخلاف رزق الدنيا، فإنه ما لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتي.

وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون لهم ذلك جزاء فيوصله إليهم لقوله: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وثانيهما: أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر لأن قوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم﴾ جملة تامة اسمية، وقوله تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جملة فعلية مستقلة، وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل: ليجزي الذين آمنوا رزقًا.

المسألة الثانية: اللام في ﴿ لِّيَجْزِيَ﴾ للتعليل، معناه الآخرة للجزاء، فإن قال قائل: فما وجه المناسبة؟ فنقول: الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكلف دارًا باقية ليكون ثوابه واصلاً إليه دائمًا أبدًا، وجعل قبلها دارًا فيها الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون فيه في الآخرة إذا نسبه إلى ما قبلها وإذا نظر إليه في نفسه.

المسألة الثالثة: ميز الرزق بالوصف بقوله: ﴿ كَرِيمٌ﴾ ولم يصف المغفرة واحدة هي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم، ومنه الفواكه والشراب الطهور، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه، ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي بالإبطال، ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذٍ يكون هذا في مقابلة ما تقدم لأن قوله تعالى: ﴿ ءَامَنُوا۟﴾ معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فإن قيل: من أين علم كون سعيهم في الإبطال مع أن

المذكور مطلق السعي؟ فنقول: فهم من قوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ وذلك لأنه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعي في التقرير والتبليغ لا يكون الساعي معاجزًا لأن القرآن وآيات الله معجزة في نفسها لا حاجة لها إلى أحد، وأما المكذب فهو آت بإخفاء آيات بينات فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به، وقيل بأن المراد من قوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي ظانين أنهم يفوتون الله، وعلى هذا يكون كون الساعي ساعيًا بالباطل في غاية الظهور، و﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ في مقابلة (لهم رزق)، وفي الآية لطائف الأولى: قال ههنا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: يجزيهم الله، وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشيء آخر، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ إخبار عن مستحقهم المعد لهم، وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظرًا إلى قوله: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ وههنا لم يقل: ليجازيهم، فلم يوجد ذلك، الثانية: قال هناك: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ثم زادهم فقال: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وههنا لم يقل إلا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، والجواب تقدم في مثله، الثالثة: قال هناك: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ولم يقلله بمن التبعيضية فلم يقل: لهم نصيب من رزق، ولا رزق من جنس كريم، وقال ههنا: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة إليها والرجز قيل أسوأ العذاب، وعلى هذا (من) لبيان الجنس كقول القائل: خاتم من فضة، وفي الأليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال: عذاب أليم من أسوأ العذاب، والجر على أنه وصف للرجز والرفع أقرب نظرًا إلى المعنى، والجر نظرًا إلى اللفظ، فإن قيل فلم تنحصر الأقسام في المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعي المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمنًا ليس له عمل صالح أو كافر متوقف، فنقول: إذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم أن المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم، وإن لم يكن في الكرامة مثل رزق الذي عمل صالحًا وللكافر غير المعاند عذاب وإن لم يكن من أسوأ الأنواع التي للمكذبين المعاندين. ثم قال تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

لما بين حال من يسعى في التكذيب في الآخرة بين حاله في الدنيا وهو أن سعيه باطل فإن من أوتي علمًا لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل إلى محمد ﷺ حق وصدق، وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾

يفيد الحصر أي ليس الحق إلا ذلك، وأما قول المكذب فباطل، بخلاف ما إذا تنازع خصمان، والنزاع لفظي فيكون قول كل واحد حقًّا في المعنى، وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يحتمل أن يكون بيانًا لكونه هو الحق فإنه هاد إلى هذا الصراط، ويحتمل أن يكون بيانًا لفائدة أخرى، وهي أنه مع كونه حقًّا هاديًا والحق واجب القبول فكيف إذا كان فيه فائدة في الاستقبال وهي الوصول إلى الله، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يفيد رغبة ورهبة، فإنه إذا كان عزيزًا يكون ذا انتقام ينتقم من الذي يسعى في التكذيب، وإذا كان حميدًا يشكر سعي من يصدق ويعمل صالحًا، فإن قيل: كيف قدم الصفة التي للهيبة على الصفة التي للرحمة مع أنك أبدًا تسعى في بيان تقديم جانب الرحمة؟ نقول: كونه عزيزًا تام الهيبة شديد الانتقام يقوي جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك، فالعزة كما تخوف ترجي أيضًا، وكما ترغب عن التكذيب ترغب في التصديق ليحصل القرب من العزيز.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

وجه الترتيب: هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] وبين ما يكون بعد إتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعي في تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات، بين حال المؤمن والكافر بعد قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣] فقال: المؤمن هو الذي يقول الذي أنزل إليك الحق وهو يهدي، وقال: الكافر هو الذي يقول هو باطل، ومن غاية اعتقادهم وعنادهم في إبطال ذلك قالوا على سبيل التعجب: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهذا كقول القائل في الاستبعاد، جاء رجل يقول: إن الشمس تطلع من المغرب إلى غير ذلك من المحالات.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

هذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون تمام قول الذين كفروا أولاً أعني هو من كلام من قال: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ كأن السامع لما سمع قول القائل: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ قال له: أهو يفتري على الله كذبًا؟ إن كان يعتقد خلافه،

أم به جنة [أيْ] جنون؟ إن كان لا يعتقد خلافه (وفي هذا لطيفة): وهي أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه، ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر، بل قال: مفتر أو مجنون، احترازًا من أن يقول قائل: كيف يقول بأنه مفتر، مع أنه جائز أن يظن أن الحق ذلك؟ فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفتريًا وكاذبًا في بعض المواضع، ألا ترى أن من يقول: جاء زيد، فإذا تبين أنه لم يجئ وقيل له: كذبت، يقول: ما كذبت، وإنما سمعت من فلان أنه جاء، فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن، فهم احترزوا عن تبين كذبهم، فكل عاقل ينبغي أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس، ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر، ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وقوله: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وكلاهما مناسب. أما العذاب فلأن نسبة الكذب إلى الصادق مؤذية، لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه إلى الكذب. وأما الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب، ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن من يسمي المهتدي ضالاً يكون هو الضال، فمن يسمي الهادي ضالاً يكون أضل، والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازيًا على السيئات والحسنات ذكر دليلاً آخر وذكر فيه تهديدًا. أما الدليل فقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارًا، وكما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[لقمان: ٢٥] ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة، وقد ذكرناه مرارًا، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس: ٨١] وأما التهديد فبقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

أي لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده، ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنَّا﴾ إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام، وتقريره هو أن قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل: آتي الملك زيدًا خلعة،

فإذا قال القائل: آتاه منه خلعة، يفيد أنه كان من خاص ما يكون له، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١] فإن رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد في الدنيا لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ [التوبة: ٢١].

المسألة الثانية: في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ قال الزمخشري: ﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدل من قوله: ﴿فَضْلًا﴾ معناه آتيناه فضلاً قولنا: يا جبال، أو من آتينا ومعناه قلنا: يا جبال.

المسألة الثالثة: قرئ (أَوِّبِي) بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبي من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع، وقيل بأن معناه: سيري معه، وفي قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ [ص: ١٨] قالوا: هو من السباحة وهي الحركة المخصوصة.

المسألة الرابعة: قرئ (وَالطَّيْرَ) بالنصب حملاً على محل المنادى والطير بالرفع حملاً على لفظه.

المسألة الخامسة: لم يكن الموافق له في التأويب منحصرًا في الجبال والطير ولكن ذكر الجبال، لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى، ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ عطف، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله ﴿يَٰجِبَالُ﴾ تقديره قلنا: يا جِبَال أوبي وألنا، ويحتمل أن يكون عطفًا على (آتينا) تقديره: آتيناه فضلاً وألنا له.

المسألة السابعة: ألان الله له الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله، قيل: إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي الدروع، وإنما اختار الله له ذلك، لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وسعى في حفظ الآدمي المكرم عند الله من القتل، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

قيل إن (أن) ههنا للتفسير فهي مفسرة، بمعنى أي اعمل سابغات وهو تفسير ﴿وَأَلَنَّا﴾

وتحقيقه لأن يعمل، يعني ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه: ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهي الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، قال المفسرون: أي لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها، ويحتمل أن يقال: السرد هو عمل الزرد، وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه، والكسب قدروا فيه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وقد ذكرنا مرارًا أن من يعمل لملك شغلاً ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبًا آخر وهو سليمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ) بالرفع وبالنصب وجه الرفع ولسليمان الريح مسخرة أو سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر وهو أن يقال معناه: ولسليمان الريحُ، كما يقال: لزيد الدارُ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد.

المسألة الثانية: الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفًا لجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن فكيف هذا؟ فنقول: لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح، وأما على النصب فعلى قولنا: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ كأنه قال: وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح.

المسألة الثالثة: المسخر لسليمان كانت ريحًا مخصوصة لا هذه الرياح، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح.

المسألة الرابعة: قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ ثلاثون فرسخًا لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك، وقوله في حق داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وقوله في حق سليمان: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناسًا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا

ضعف اعتقاده [و] عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة.

المسألة الخامسة: أقول: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] لو قال قائل: ما الحكمة في أن الله تعالى قال في الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وفي هذه السورة قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] وقال في الريح هناك وهاهنا: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾؟ نقول: الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لي وهو أن على قولنا: ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] سيري فالجبل في السير ليس أصلاً بل هو يتحرك معه تبعًا، والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها، فلم يقل: الريح مع سليمان، بل سليمان كان مع الريح ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي النحاس ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي سخرنا له من الجن، وهذا ينبئ عن أن جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر.

واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء في حق داود وثلاثة في حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان، وذلك لأن الثقيل مع ما هو أخف منه إذا تحركا يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه، لكن الجبال كانت أثقل من الآدمي والآدمي أثقل من الريح فقدر الله أن سار الثقيل مع الخفيف أي الجبال مع داود على ما قلنا: ﴿أَوِّبِي﴾ [سبأ: ١٠] أي سيري وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضًا، والطير من جنس تسخير الجن لأنهما لا يجتمعان مع الإنسان؛ الطير لنفوره من الإنس والإنس لنفوره من الجن، فإن الإنسان يتقي مواضع الجن، والجن يطلب أبدًا اصطياد الإنسان والإنسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله أن صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه، وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه، وأما القطر والحديد فتجاذبهما غير خفي (وهاهنا لطيفة): وهي أن الآدمي ينبغي أن يتقي الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضي إلى المفسدة ولهذا قال تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم؟ فنقول: قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة ولطيفة أخرى: وهي أن الله تعالى قال هٰهنا: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بلفظ الرب وقال: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل: عن أمر ربه، وذلك لأن الرب لفظ ينبئ عن الرحمة، فعندما كانت الإشارة إلى حفظ سليمان عليه السلام قال: ﴿رَبِّهِۦ﴾ وعندما كانت الإشارة إلى تعذيبهم قال: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف.

وقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه وجهان أحدهما: أن الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالإشارة إليه، وثانيهما: أن السعير هو ما يكون في الآخرة فأوعدهم بما في الآخرة من العذاب.

قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

المحاريب إشارة إلى الأبنية الرفيعة ولهذا قال تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] والتماثيل ما يكون فيها من النقوش، ثم لما ذكر البناء الذي هو المسكن بين ما يكون في المسكن من ماعون الأكل فقال: ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ جمع جابية وهي الحوض الكبير الذي يجبي الماء أي يجمعه وقيل: كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات لا تنقل لكبرها، وإنما يغرف منها في تلك الجفان.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قدم المحاريب على التماثيل لأن النقوش تكون في الأبنية وقدم (الجفان) في الذكر على (القدور) مع أن القدور آلة الطبخ والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل، فنقول: لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذي يمد في تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه، وأما القدور فلا تكون فيه، ولا تحضر هناك، ولهذا قال: ﴿ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي غير منقولات، ثم لما بين حال الجفان العظيمة، كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان.

المسألة الثانية: ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب، وفي حق سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل وذلك لأن سليمان كان ولد داود، وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة، واستوى داود على الملك، فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده، ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه فتركوا الحرب معه وإن حاربه أحد كان زمان الحرب يسيرًا لإدراكه إياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام.

المسألة الثالثة: لما قال عقيب قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١]، قال عقيب ما يعمله الجن: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن هذه الأشياء حالية لا ينبغي أن يجعل الإنسان نفسه مستغرقة فيها وإنما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكرًا، وفيه إشارة إلى عدم الالتفات إلى هذه الأشياء، وقلة الاشتغال بها كما في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] أي اجعله بقدر الحاجة.

المسألة الرابعة: انتصاب شكرًا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون مفعولاً له كقول القائل جئتك طمعًا وعبدت الله رجاء غفرانه، وثانيها: أن يكون مصدرًا كقول القائل: شكرت الله شكرًا، ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل: جلست قعودًا، وذلك لأن العمل شكر فقوله: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ﴾ يقوم مقام قوله: ﴿ وَٱشْكُرُواْ﴾ وثالثها: أن يكون مفعولاً به كقولك: اضرب زيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١١] لأن الشكر صالح.

المسألة الخامسة : قوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إشارة إلى أن الله خفف الأمر على عباده، وذلك لأنه لما قال: ﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ فهم منه أن الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن، لأن الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج إلى شكر آخر وهو بتوفيق آخر، فدائمًا تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر، فقال تعالى: إن كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم في ذلك حرج، فإن عبادي قليل منهم الشكور ويقوي قولنا أنه تعالى أدخل الكل في قوله: ﴿ عِبَادِيَ﴾ مع الإضافة إلى نفسه، وعبادي بلفظ الإضافة إلى نفس المتكلم لم ترد في القرآن إلا في حق الناجين، كقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾ [الإسراء: ٦٥]فإن قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ﴾ يدل على أن في عباده من هو شاكر لأنعمه، نقول: الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله، وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، أو نقول: الشاكر التام ليس إلا من رضي الله عنه، وقال له: يا عبدي ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك أنك شاكر لأنعمي بأسرها، وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝١٤﴾

لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه الموت، تنبيهًا للخلق على أن الموت لا بد منه، ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويومًا تامًّا وفي بعض الأوقات يزيد عليه، وكان له عصا يتكئ عليها واقفًا بين يدي ربه، ثم في بعض الأوقات كان واقفًا على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنه في العبادة وبقي كذلك أيامًا وتمادى شهورًا، ثم أراد الله إظهار الأمر لهم، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه فوقع وعلم حاله.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك، بل الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً فهو أكثر الأشياء الحاضرة لا يعلمه، والجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، وتبين لهم الأمر بأنهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا

في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي. وقوله: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه، بحكاية أهل سبأ، وفي سبأ قراءتان: بالفتح على أنه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على أنه اسم قبيلة وهو الأظهر، لأن الله جعل الآية لسبأ والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج إلى إضمار الأهل وقوله: ﴿آيَةٌ﴾ أي من فضل ربهم، ثم بينها بذكر بدله بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قال الزمخشري: أية آية في جنتين، مع أن بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان؟ وأجاب بأن المراد لكل واحد جنتان أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة، قوله: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض، وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ بيان أيضًا لكمال النعمة، فإن الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة، ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه ولا تبعة في المآل في الدنيا، فقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم، وقال: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي لا عقاب عليه ولا عذاب في الآخرة، فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية. ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعض إبانة الآية كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧] ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] وكيفيته أنه تعالى أرسل عليهم سيلاً غرق أموالهم وخرب دورهم، وفي العرم وجوه أحدها: أنه الجرذ الذي سبب خراب السكر، وذلك من حيث إن بلقيس كانت قد عمدت إلى

جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الأمطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبوابًا ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الأبواب يفتح بعضها بعد بعض. فنقب الجرذ السكر، وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم، وثانيها: أن العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهي الحجارة، ثالثها: اسم للوادي الذي خرج منه الماء، وقوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بين به دوام الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فإذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الأشجار، والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة، أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه، والسدر معروف وقال فيه ﴿قَلِيلٍ﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم فقلله الله، ثم بين الله أن ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي﴾ أي لا نجازي بذلك الجزاء ﴿إِلَّا الْكَفُورَ﴾ قال بعضهم: المجازاة تقال في النقمة والجزاء في النعمة، لكن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم﴾ يدل على أن الجزاء يستعمل في النقمة، ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الأمر تكون بين اثنين، يؤخذ من كل واحد جزاء في حق الآخر. وفي النعمة لا تكون مجازاة لأن الله تعالى مبتدئ بالنعم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

أي بينهم وبين الشام فإنها هي البقعة المباركة. و﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الأخرى، فإن قال قائل: هذا من النعم والله تعالى قد شرع في بيان تبديل نعمهم قوله: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ فكيف عاد مرة أخرى إلى بيان النعمة بعد النقمة؟ فنقول: ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والأثل، ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادئ والبراري بقوله: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقد فعل ذلك، ويدل عليه قراءة من قرأ (رَبُّنَا بَعَّدَ) على المبتدأ والخبر، وقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ الأماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز، فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار، وكانوا يغدون إلى قرية ويروحون إلى أخرى ما أمكن في العرف تجاوزها، فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادًّا حتى يقطعها، وقوله:

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ أي كان بينهم ليال وأيام معلومة، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ إشارة إلى كثرة العمارة، فإن خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون في مثل هذه الأماكن، وقيل بأن معنى قوله: ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ تسيرون فيه إن شئتم ليالي وإن شئتم أيامًا لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فإن بعضها يسلك ليلًا، لئلا يعلم العدو بسيرهم، وبعضها يسلك نهارًا لئلا يقصدهم العدو، إذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين أحدهما: أن يسألوا بطرًا كما طلبت اليهود الثوم والبصل، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره: اضربني، إشارة إلى أنه لا يقدر عليه. ويمكن أن يقال: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ﴾ بلسان الحال، أي لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم، وقوله: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يكون بيانًا لذلك، وقوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلًا، يقال: تفرقوا أيدي سبا، وقوله: ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بيان لجعلهم أحاديث، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي ظنه أنه يغويهم كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[ص: ٨٢] وقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ بيان لذلك أي أغواهم، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال تعالى في حقهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[الحجر: ٤٢] ويمكن أن يقال: صدق عليهم ظنه في أنه خير منه كما قال تعالى عنه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] ويتحقق ذلك في قوله فاتبعوه، لأن المتبوع خير من التابع وإلا لا يتبعه العاقل والذي يدل على أن إبليس خير من الكافر، هو أن إبليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان في امتناعه ترك عبادة الله عنادًا كفر، والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب إلى التوحيد، وهم كفروا بأمر هو الإشراك، ويؤيد هذا الذي اخترناه الاستثناء، وبيانه هو أنه وإن لم يظن أنه يغوي الكل، بدليل أنه تعالى قال عنه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[ص: ٨٣] فما ظن أنه يغوي المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة إلى الاستثناء، وأما في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١٢] اعتقد الخيرية بالنسبة إلى جميع الناس بدليل تعليله بقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢] وقد كذب في ظنه في حق المؤمنين، ويمكن الجواب عن هذا في الوجه الأول، وهو أنه وإن لم يظن إغواء الكل وعلم أن البعض ناج، لكن ظن في كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجي، إلى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب في ظنه في حق البعض وصدق في البعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] أن علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالمًا لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه، فإن العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الأمر فعلم الله في الأزل أن العالم سيوجد، فإذا وجد علمه موجودًا بذلك العلم، وإذا عدم يعلمه معدومًا بذلك، مثاله: أن المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها، ثم إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته، والمرآة لم تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها، إنما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والإيمان من المؤمن وكان قبله فيه أنه سيكفر زيد ويؤمن عمرو.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجئ وإنما هو آية، وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو في علمه السابق، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحقق ذلك أي الله تعالى قادر على منع إبليس عنهم عالم بما سيقع، فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه حفظه ولا العاجز.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد إلى خطابهم وقال لرسوله ﷺ: قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين أنهم لا يملكون شيئًا بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة أحدها: قول من يقول: الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله إلههم، فقال الله تعالى في إبطال قولهم: إنهم لا يملكون في السموات شيئًا كما اعترفتم، قال: ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم، وثانيها: قول من يقول: السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا

لغير الله معه شركًا في الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له، فقال في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي الأرض كالسماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب، وثالثها: قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه، مثاله إذا قال ملك لمملوكه: اضرب فلانًا، فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفًا قول القائل ما ضرب فلان فلانًا، وإنما الملك أمر بضربه فضرب، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما فوض إلى شيء شيئًا، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب، ورابعها: قول من قال: إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فلا فائدة لعبادتكم غير الله فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي أزيل الفزع عنهم، يقال: قرد البعير، إذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب، وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ وجوه أحدها: الفزع الذي عند الوحي فإن الله عندما يوحي يفزع من في السموات، ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله؟ فيقول: قال الحق، أي الوحي، وثانيها: الفزع الذي من الساعة وذلك لأن الله تعالى لما أوحى إلى محمد عليه السلام فزع من في السموات من القيامة لأن إرسال محمد عليه السلام من أشراط الساعة، فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا: ماذا قال الله؟ قال جبريل: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي الوحي، وثالثها: هو أن الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه، ثم يقبض روحه على الإيمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى، ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى إذا علمت هذا فنقول على القولين الأولين، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية متعلقة بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لأنه بينه بالوحي لأن قول القائل قل لفلان للإنذار حتى يسمع المخاطب ما يقوله، ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال: ﴿قُلْ﴾ فزع من في السموات، ثم أزيل عنه الفزع، وعلى الثالث متعلق بقوله تعالى: ﴿زَعَمْتُم﴾ أي زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق، وعلى القولين الأولين فاعل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَاذَا﴾ هو الملائكة السائلون من جبريل، وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل في قوله: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على القولين الأولين هم الملائكة، وعلى الثالث هم المشركون.

واعلم أن الحق هو الموجود ثم إن الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقًا مطلقًا لا يرتفع بالباطل الذي هو العدم والكلام الذي يكون صدقًا يسمى حقًا، لأن الكلام له متعلق في الخارج بواسطة أنه متعلق بما في الذهن، والذي في الذهن متعلق بما في الخارج فإذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما في ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما في الخارج لكن

للصدق متعلق يكون في الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون في الخارج، وحينئذ إما أن لا يكون له متعلق في الذهن فيكون كالمعدوم من الأول وهو الألفاظ التي تكون صادرة عن معاند كاذب، وإما أن يكون له متعلق في الذهن على خلاف ما في الخارج فيكون اعتقادًا باطلاً جهلاً أو ظنًّا لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل، وكلام الله لا بطلان له في أول الأمر كما يكون كلام الكاذب المعاند و﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [فصلت: ٤٢] كما يكون كلام الظان، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠] أن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ إشارة إلى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم، وفوق الكاملين لأن كل كامل فوقه كامل فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى أنه فوق الكاملين في ذاته وصفاته، وهذا يبطل القول بكونه جسمًا وفي حيز، لأن كل من كان في حيز فإن العقل يحكم بأنه مشار إليه وهو مقطع الإشارة لأن الإشارة لو لم تقع إليه لما كان المشار إليه هو، وإذا وقعت الإشارة إليه فقد تناهت الإشارة عنده، وفي كل موقع تقف الإشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الإشارة والمشار إليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار إليه أعلى فيصير عليه بالإضافة لا مطلقًا وهو علي مطلقًا ولو كان جسمًا لكان له مقدار، وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيرًا بالنسبة إلى غيره لا مطلقًا وهو كبير مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد ذكرنا مرارًا أن العامة يعبدون الله لا لكونه إلهًا، وإنما يطلبون به شيئًا، وذلك إما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ [سبا: ٢٢] على أنه لا يدفع الضر أحد إلا هو كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال بعد إتمام بيان ذلك ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به ومنه، فإذًا إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرًّا أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فإن لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع.

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ يعني إن لم يقولوا هم فقل أنت: الله يرزق، (وهاهنا لطيفة): وهي أن الله تعالى عند الضر ذكر أنهم يقولون: الله، ويعترفون بالحق حيث قال: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ وعند النفع لم يقل إنهم يقولون ذلك وذلك لأن لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون في الضر كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي هم في حالة الراحة غافلون عن الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها وذلك لأن أحد المتناظرين إذا قال للآخر: هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ، يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض، وأما إذا قال له بأن أحدنا لا يشك في أنه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق أحسن الأخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فإنه يجتهد ذلك الخصم في النظر ويترك التعصب وذلك لا يوجب نقصًا في المنزلة لأنه أوهم بأنه في قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ مع أنه لا يشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ذكر في الهدى كلمة على وفي الضلال كلمة في لأن المهتدي كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلي، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة في.

المسألة الثالثة: وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الصراط المستقيم الموصل إلى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه بين من بعض، فميز البعض عن البعض بالوصف.

المسألة الرابعة: قدم الهدى على الضلال لأنه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله: ﴿إِنَّا﴾ وهو مقدم في الذكر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. أضاف الإجرام إلى النفس وقال في حقهم: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم وقوله: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ زيادة حث على النظر وذلك لأن كل أحد إذا كان مؤاخذًا بجرمه فإذا احترز نجا، ولو كان البريء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

أكد ما يوجب النظر والتفكر، فإن مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب، فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله: ﴿يَفْتَحُ﴾ قيل معناه يحكم، ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لأن الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة. ثم إن الأمر إذا كان فيه انغلاق وعدم وصول إليه فإذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارة إلى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قد ذكرنا أن المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الأشراف الأعزة يعبدونه لأنه يستحق العبادة لذاته فلما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [سبا: ٢٢] وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: ٢٤] بين ههنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهي القدرة الكاملة والحكمة وهي العلم التام الذي عمله موافق له.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لما بين مسألة التوحيد شرع في الرسالة فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ وفيه وجهان أحدهما: كافة أي إرسالة كافة أي عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها والثاني: كافة أي أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه ﴿بَشِيرًا﴾ أي تحثهم بالوعد ﴿وَنَذِيرًا﴾ تزجرهم بالوعيد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر.

وقال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد ذكرنا في سورة الأعراف أن قوله: ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ﴾ يوجب الإنذار، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل ولكن الاستقدام ما وجهه؟ وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا إمهال، وهذا يفيد عظم الأمر وخطر الخطب، وذلك لأن الأمر الحقير إذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الأمر الخطير وفي قوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ قراءات أحدها: رفعهما مع التنوين على وهذا يوم بدل، وثانيها: نصب (يوم) مع رفع (ميعاد) والتنوين فيهما ميعاد يومًا قال الزمخشري: ووجهه أنه منصوب بفعل محذوف كأنه قال: ميعاد أعني يومًا، وذلك يفيد التعظيم والتهويل، ويحتمل أن يقال: نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يومًا كما يقول القائل: أنا جائيك يومًا، وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول: لكم ميعاد تعلمونه يومًا، وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل إنه مقتول يومًا، الثالثة: الإضافة لكم ميعاد يوم كما في قول القائل: سحق ثوب للتبيين، وإسناد الفعل إليهم بقوله: ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ﴾ بدلاً عن قوله: (لا يؤخر عنكم) زيادة تأكيد لوقوع اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل وقوله: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ المشهور أنه التوراة والإنجيل، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر، ويحتمل أن يقال: إن المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذي بين يديه أي ولا بما فيه من الإخبارات والمسائل والآيات والدلائل، وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم، لأن أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذي فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر، فإن قيل: أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر؟ فنقول: إذا لم يصدق واحد ما في الكتاب من الأمور المختصة به يقال فيه إنه لم يؤمن بشيء منه وإن آمن ببعض ما فيه لكونه في غيره فيكون إيمانه لا بما فيه. مثاله: أن من يكذب رجلاً فيما يقوله فإذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال إنه صدقه لأنه إنما صدق نفسه، فإنه كان عالمًا به من قبل وعلى هذا فقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي الذي هو مشتمل عليه من حيث إنه وارد فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لما وقع اليأس من إيمانهم في هذه الدار بقولهم لن نؤمن فإنه لتأييد النفي وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطئوا في أمر يقول بعضهم: كان ذلك بسببك، ويرد عليه الآخر مثل ذلك، وجواب لو محذوف، تقديره: ولو ترى إذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبًا، ثم بدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أن كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لأنهم لا يمكنهم أن يقولوا: ما جاءنا رسول، ولا أن يقولوا: قصر الرسول، وهذا إشارة إلى إتيان الرسول بما عليه لأن الرسول لو أهمل شيئًا لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ

وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾.

ردًّا لما قالوا: إن كفرنا، كان لمانع ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ يعني المانع ينبغي أن يكون راجحًا على المقتضى حتى يعمل عمله، والذي جاء به هو الهدى، والذي صدر من المستكبرين لم يكن شيئًا يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع، ثم بين أن كفرهم كان إجرامًا من حيث إن المعذور لا يكون معذورًا إلا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شيء منهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾.

لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعًا وصارفًا اعترف المستضعفون به وقالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منعنا، ثم قالوا: لهم إنكم وإن كنتم ما أتيتم بالصارف القطعي والمانع القوي ولكن انضم أمركم إيانا بالكفر إلى طول الأمد والامتداد في المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب، ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف إليه. وقوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ أي ننكره ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ هذا يبين أن المشرك بالله مع أنه في الصورة مثبت لكنه في الحقيقة منكر لوجود الله لأن من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون إلهًا، وقوله في الأول: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [سبأ: ٣١] يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل، وقوله في الآيتين المتأخرتين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ بصيغة الماضي مع أن السؤال والتراجع في القول لم يقع إشارة إلى أن ذلك لا بد وأن يقع، فإن الأمر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

معناه أنهم يتراجعون القول في الأول، ثم إذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة، وقيل معنى الإسرار الإظهار أي أظهروا الندامة، ويحتمل أن يقال بأنهم لما تراجعوا في القول رجعوا إلى الله بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] ثم أجيبوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ إشارة إلى كيفية العذاب وإلى أن مجرد الرؤية ليس كافيًا بل لما رأوا العذاب قطعوا

بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الأغلال في أعناقهم، وقوله: ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أن ذلك حقهم عدلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

تسلية لقلب النبي ﷺ وبيانًا لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعًا، بل ذلك عادة جرت من قبل وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضًا قالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين: لولا أنتم لكانوا مؤمنين، ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي بسبب لزومنا لديننا، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي في الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلاً خير من حالكم، وأما آجلاً فلا نعذب إما إنكارًا منهم للعذاب رأسًا أو اعتقادًا لحسن حالهم في الآخرة أيضًا قياسًا [على حسن حالهم في الدنيا]. ثم إن الله تعالى بين خطأهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يعني أن الرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقي ومعسر تقي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم بين فساد استدلالهم بقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

يعني قولكم: نحن أكثر أموالاً فنحن أحسن عند الله حالاً، ليس استدلالاً صحيحًا، فإن المال لا يقرب إلى الله ولا اعتبار بالتعزز به، وإنما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان والذي يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح إقبال

على الله واشتغال بالله ومن توجه إلى الله وصل ومن طلب من الله شيئًا حصل، وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ أي الحسنة فإن الضعف لا يكون إلا في الحسنة وفي السيئة لا يكون إلا المثل.

ثم زاد وقال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمنًا.

ثم بين حال المسيء بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وقد ذكرنا تفسيره، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ إشارة إلى الدوام أيضًا كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]وكما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦].

ثم قال تعالى مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ إشارة إلى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناءً على الوعد، قطعًا لقول من يقول: إذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى، فقال هذا النقد غير مختص بكم فإن كثيرًا من الأشقياء مدقعون، وكثير من الأتقياء ممتعون.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر هذا المعنى مرتين: مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم كأنه قال: وجود الترف لا يدل على الشرف، ثم إن سلمنا أنه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك، فإن الله يملكهم دياركم وأموالكم، والذي يدل عليه هو أن الله تعالى لم يذكر أولاً لمن يشاء من عباده، بل قال: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ [سبأ: ٣٦]، وثانيًا قال: ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، والعباد المضافة يراد بها المؤمن، ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر، فإن الكافر دابره مقطوع، وماله إلى الزوال، ومآله إلى الوبال. وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله، ومخلف الله خير، فإن ما في يد الإنسان في معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان إلى ما عند الله من الخلف، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١] وخيرية الرازق في أمور أحدها: أن لا يؤخر عن وقت الحاجة، والثاني: أن لا ينقص عن قدر الحاجة، والثالث: أن لا ينكده بالحساب، والرابع: أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك.

أما الأول: فلأنه عالم وقادر، والثاني: فلأنه غني واسع، والثالث: فلأنه كريم، وقد ذكر ذلك بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] وما ذكرنا هو المراد، أي يرزقه حلالاً لا يحاسبه عليه والرابع: فلأنه علي كبير والثواب يطلبه الأدنى من الأعلى، ألا ترى أن هبة الأعلى من الأدنى لا تقتضي ثوابًا.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا،

وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(١) وذلك لأن الله تعالى ملك علي وهو غني ملي، فإذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه، كما إذا قال قائل: ألق متاعك في البحر وعلى ضمانه، فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل، ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف، ثم إن من العجب أن التاجر إذا علم أن مالاً من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة، وإن كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الإمهال إلى الهلاك، فإن لم يبع حتى يهلك ينسب إلى الخطأ، ثم إن حصل به كفيل مليء ولا يبيع ينسب إلى قلة العقل، فإن حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب إلى الجنون، ثم إن كل أحد يفعل هذا ولا يعلم أن ذلك قريب من الجنون، فإن أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق، والإنفاق على الأهل والولد إقراض، وقد حصل الضامن المليء وهو الله العلي وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ثم رهن عند كل واحد إما أرضًا أو بستانًا أو طاحونة أو حمامًا أو منفعة، فإن الإنسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفي يد الإنسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام، ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجورًا ولا مشكورًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ينبئ عن كثرة في الرازقين ولا رازق إلا الله، فما الجواب عنه؟ فنقول: عنه جوابان أحدهما: أن يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى: وهو ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥] وثانيهما: هو أن الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز، ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة، مثال الأول العلم، فإن الله يعلم أنه واحد والعبد يعلم أنه واحد بطريق الحقيقة، وكذلك العلم بكون النار حارة، غاية ما في الباب أن علمه قديم وعلمنا حادث، مثال الثاني الرازق والخالق، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئًا فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سمي معطيًا، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وإنسان، مثال الثالث الأزلي والله وغيرهما، وقد يقال في أشياء في الإطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازًا كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

لما بين أن حال النبي ﷺ كحال من تقدمه من الأنبياء، وحال قومه كحال من تقدم من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة)، باب: (قول الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٥]) (٢/ ٥٢٢)، حديث رقم (١٣٧٤)، ومسلم في (صحيحه) (٢/ ٧٠٠/ ١٠١٠)، كلاهما من طريق أبي الحباب عن أبي هريرة... به.

الكفار، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم، بين ما يكون من عاقبة حالهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني المكذبين بك وبمن تقدمك، ثم نقول لمن يدعون أنهم يعبدونهم وهم الملائكة، فإن غاية ما ترتقي إليه منزلتهم أنهم يقولون: نحن نعبد الملائكة والكواكب، فيسأل الملائكة أهم كانوا يعبدونكم! إهانة لهم، فيقول كل منهم: سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبودًا وأنت معبودنا ومعبود كل خلق، وقولهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ إشارة إلى معنى لطيف وهو أن مذاهب الناس مختلفة؛ بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التي يكون فيها سواد عظيم، لأنه لا يترأس هناك فيرضى الضياع والبلاد الصغيرة، وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها إلى الأكياس، ثم إن الفريقين جميعًا إذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الأرذال الذين لا التفات إليهم أصلاً يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به، ولو أن رجلاً سكن جبلاً ووضع بين يديه شيئًا من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان، وهو يقول: هؤلاء أتباعي وأشياعي، ولا أدخل المدينة مخافة أن أحتاج إلى خدمة السلطان العظيم والتردد إليه ينسب إلى الجنون، فكذلك من رضي بأن يترك خدمة الله وعبادته، ورضي باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنونًا، فقالوا: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يعني كونك ولينا بالمعبودية أولى، وأحب إلينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي كانوا ينقادون لأمر الجن، فهم في الحقيقة كانوا يعبدون الجن، ونحن كنا كالقبلة لهم، لأن العبادة هي الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ لو قال قائل: جميعهم كانوا تابعين للشياطين، فما وجه قوله: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فإنه ينبئ أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن الملائكة احترزوا عن دعوى الإحاطة بهم فقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ لأن الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل في الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار، الثاني: هو أن العبادة عمل ظاهر والإيمان عمل باطن فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما في القلوب فإن القلب لا اطلاع عليه إلا لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الخطاب بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مع من؟ نقول: يحتمل أن يكون الملائكة لسبق قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[سبا: ٤٠] وعلى هذا يكون ذلك تنكيلاً للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر، ويصحح هذا قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[مريم: ٨٧] وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨] ولأنه قال بعده: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟﴾ فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا.

وعلى هذا يكون الكفار داخلين في الخطاب حتى يصح معنى قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي الملائكة للكفار، والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه في أمر مخاطبًا بسببه، كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك في كلام: أنتم قلتم، على معنى أنت قلت، وهم قالوا، ويحتمل أن يكون معهم الجن أي لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن، وإذا لم تملكوها لأنفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لأن ذكر اليوم يدل على حضورهم، وعلى هذا فقوله: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ إنما ذكره تأكيدًا لبيان حالهم في الظلم، وسبب نكالهم من الإثم، ولو قال: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ لكان كافيًا لكنه، لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة، فإنهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والإثم والفساد يتحسرون ويندمون.

المسألة الثانية: قوله: ﴿نَّفْعًا﴾ مفيد للحسرة، وأما الضر فما الفائدة فيه مع أنهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك؟ فنقول: لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين أنهم ليس فيهم ذلك الوجه الذي يحسن لأجله عبادتهم.

المسألة الثالثة: قال هاهنا: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وقال في السجدة: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾[السجدة: ٢٠] جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل، والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[السجدة: ٢٠] أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠] أي قلتم إن العذاب إن وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم، وههنا أول ما رأوا النار لأنه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم: هذه ﴿ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

إظهارًا لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[سبا: ٤١] أي لا أهلية لنا إلا لعبادتك من

دونهم أي لا أهلية لنا لأن نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٢] ثم مع هذا كله إذا قال لهم النبي عليه السلام كلامًا من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه، فإن لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يعني يعارضون البرهان بالتقليد ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهو يحتمل وجوهًا أحدها: أن يكون المراد أن القول بالوحدانية ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول في حق المشرك إنه يأفك كما قال تعالى في حقهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦] وكما قالوا هم للرسول: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] وثانيها: أن يكون المراد ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي القرآن إفك وعلى الأول يكون قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى القرآن وعلى الثاني يكون إشارة إلى ما أتى به من المعجزات، وعلى الوجهين فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بدلاً عن أن يقول: وقالوا للحق، هو أن إنكار التوحيد كان مختصًا بالمشركين، وأما إنكار القرآن والمعجزات [فقد] كان متفقًا عليه بين المشركين وأهل الكتاب [فقال] تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ على وجه العموم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ تأكيد لبيان تقليدهم يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات: هذا رجل كاذب، وقولهم: ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ من غير برهان ولا كتاب أنزل عليهم ولا رسول أرسل إليهم، فالآيات البينات لا تعارض إلا بالبراهين العقلية، ولم يأتوا بها أو بالتقلبات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك، والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول الله، ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال المفسرون: معناه: وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر، ثم إن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم، فكيف حال هؤلاء الضعفاء، وعندي [أنه] يحتمل ذلك وجهًا آخر وهو أن يقال: المراد: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان، وذلك لأن كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل أنكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم، وقد كذبوا بأفصح الرسل، وأوضح السبل،

يؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ يعني غير القرآن ما آتيناهم كتابًا وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير، فلما كان المؤتى في الآية الأولى هو الكتاب، فحمل الإيتاء في الآية الثانية على إيتاء الكتاب أولى.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ إشارة إلى الرسالة وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ يقتضي أن لا يكون إلا بالتوحيد، والإيمان لا يتم إلا بالاعتراف بالرسالة والحشر، فكيف يصح الحصر المذكور بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ فنقول: التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع في الآخرة قدره فالنبي ﷺ أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات، وجواب آخر وهو أن النبي ﷺ ما قال: إني لا آمركم في جميع عمري إلا بشيء واحد، وإنما قال: أعظكم أولاً بالتوحيد ولا آمركم في أول الأمر بغيره لأنه سابق على الكل، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ فإن التفكر أيضًا صار مأمورًا به وموعوظًا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ قال المفسرون: أنثها على أنها صفة خصلة أي أعظكم بخصلة واحدة، ويحتمل أن يقال: المراد حسنة واحدة لأن التوحيد حسنة وإحسان وقد ذكرنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] أن العدل نفي الإلهية عن غير الله والإحسان إثبات الإلهية له، وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] أن المراد هل جزاء الإيمان إلا الجنان، وكذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ إشارة إلى جميع الأحوال فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره أو يكون وحده، فإذا كان مع غيره دخل في قوله: ﴿مَثْنَىٰ﴾ وإذا كان وحده دخل في قوله: ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فكأنه يقول: تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ يعني اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد ولا حاجة فيه إلى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر، فإنه يحتاج إلى تفكر، وكلمة (ثم) تفيد ما ذكرنا، فإنه قال: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ يفيد كونه رسولاً وإن كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولاً، وذلك لأن النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورة للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب إما الجن أو الملك، وإذا لم يكن الصادر من النبي ﷺ بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة، وعلى التقديرين فهو رسول الله، وهذا من أحسن الطرق، وهو أن يثبت الصفة التي هي أشرف الصفات في البشر بنفي أخس الصفات، فإنه لو قال أولاً: هو رسول الله، كانوا يقولون فيه النزاع، فإذا قال: ما هو مجنون، لم يسعهم إنكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله في قوة لسانه وبيانه فإذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسألة. ولهذا قال بعده: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يعني إما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين أنه ليس به جنة فهو نذير.

المسألة السادسة: قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إشارة إلى قرب العذاب كأنه قال: ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدي العذاب أي سوف يأتي العذاب بعده.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبيًا ذكر وجهًا آخر يلزم منه أنه نبي إذا لم يكن مجنونًا لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروي يكون مجنونًا، فالنبي عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلاً، فإن كل أحد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجرًا في الدنيا فهو يفعله للآخرة، والكاذب في الآخرة معذب لا مثاب، فلو كان كاذبًا لكان مجنونًا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب، فهو نبي صادق، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تقرير آخر للرسالة وذلك لأن الرسالة لا تثبت إلا بالدعوى والبينة، بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول في إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم: إني مرسل من هذا الملك إليكم ألزمكم قبول قولي، والملك حاضر ناظر، ثم قال للملك: أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فقل لهم إني رسولك، فإذا قال إنه رسولي إليكم لا يبقى فيه شك، كذلك إذا قال: يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسني قباءك، فلو ألبسه قباءه في عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله، كذلك حال الرسول إذا قال الأنبياء لقومهم: نحن رسل الله، ثم قالوا: يا إلهنا إن كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو انشر هذا الميت، ففعله حصل الجزم بأنه صدقه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

وفيه وجهان أحدهما: يقذف بالحق في قلوب المحققين، وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق،

وذلك من حيث إن الله تعالى لما بين رسالة النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ وأكده بقوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بإنزال الذكر عليه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ذكر ما يصلح جوابًا لهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي في القلوب إشارة إلى أن الأمر بيده يفعل ما يريد ويعطي ما يشاء لمن يشاء.

ثم قال تعالى: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ إشارة إلى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئًا كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره لا يكون عالمًا وإنما فعل ذلك اتفاقًا، كما إذا أصاب السهم موضعًا دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب إذ هو علام الغيوب، الوجه الثاني: أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما قال في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضًا ظاهر وذلك من حيث إن براهين التوحيد لما ظهرت ودحضت شبههم قال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي على باطلكم، وقوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم إلا على التوحيد والرسالة، وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير إخبار الله تعالى عنه، وعن أحواله وأهواله، ولولا بيان الله بالقول لما بان لأحد بخلاف التوحيد والرسالة، فلما قال: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي على الباطل، إشارة إلى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فإن الله علام الغيوب، والآية تحتمل تفسيرًا آخر وهو أن يقال: ﴿رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الأولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] وفي قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] والمعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما في قلوبهم وما في قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال، ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه أحدها: أنه القرآن، الثاني: أنه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي ﷺ، الثالث: المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام، ويحتمل أن يكون المراد من ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ ظهر الحق لأن كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق، وقد بينا أن الحق هو الموجود، ولما كان ما جاء به النبي ﷺ لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر، كان حقًّا لا ينتفي، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلًا لا يثبت، وهذا المعنى يفهم من قوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي الباطل لا يفيد شيئًا في الأولى ولا في الآخرة فلا

إمكان لوجوده أصلاً، والحق المأتي به لا عدم له أصلاً، وقيل: المراد لا يبدئ الشيطان ولا يعيد، وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ لما كان فيه معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء: ١٨] كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق فأبطله ودمغه، فقال هاهنا: ليس للباطل تحقق أولاً وآخرًا، وإنما المراد من قوله: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي فيظهر بطلانه الذي لم يزل كذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] يعني ليس أمرًا متجددًا زهوق الباطل، فقوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي لا يثبت في الأول شيئًا خلاف الحق ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا يعيد في الآخرة شيئًا خلاف الحق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

هذا فيه تقرير الرسالة أيضًا وذلك لأن الله تعالى قال على سبيل العموم: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ [الزمر: ٤١] وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وقوله: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي يسمع إذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير، ليس يسمع عن بعد ولا يلحق الداعي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾.

لما قال: ﴿سَمِيعٌ﴾ قال: هو قريب فإن لم يعذب عاجلاً ولا يعين صاحب الحق في الحال فيوم الفزع آت لا فوت، وإنما يستعجل من يخاف الفوت. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف أي ترى عجبًا ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لا يهربون وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾.

أي بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان، قالوا: آمنا ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ أي كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون إلا في الدنيا وهم في الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة، فإن قيل فكيف قال في كثير من المواضع: إن الآخرة من الدنيا قريبة، ولهذا سماها الله الساعة وقال: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧] نقول: الماضي كالأمس الدابر بعدما يكون إذ لا وصول إليه، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنين فإنه آت، فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفي

الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه والتناوش هو التناول عن قرب. وقيل: عن بعد، ولما جعل الله الفعل مأخوذًا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ والمراد ما مضى من الدنيا.

قوله تعالى ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم بين الله تعالى أن إيمانهم لا نفع فيه بسبب أنهم كفروا به من قبل، والإشارة في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ إلى شيء واحد، إما محمد عليه الصلاة والسلام وإما القرآن وإما الحق الذي أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى، وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ضد يؤمنون بالغيب لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول، فيقذفه الله في القلوب ويقبله المؤمن، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب، أي يقول ما لا يعلمه، وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه أن مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من أنهم لا يقدرون على أعمال كثيرة إلا إذا كانوا أشخاصًا كثيرة، فكذلك المخلوقات الكثيرة، وأخذوا بعد الإعادة من حالهم وعجزهم عن الإحياء، فإن المريض يداوى فإذا مات لا يمكنهم إعادة الروح إليه، وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ، ويحتمل أن يقال: إنهم كانوا يقولون بأن الساعة إذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا، كقول قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] فكانوا يقولون ذلك فإن كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن إحساس فإن ما لا يجب عقلاً لا يعلم إلا بالإحساس أو بقول الصادق، فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد، فإن قيل: قد ذكرت أن الآخرة قريب فكيف قال: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد ﷺ ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيدًا عنده، الثاني: أن الحكاية يوم القيامة، فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا، ويحتمل وجهًا آخر وهو أنهم في الآخرة يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من العود إلى الدنيا أو بين لذات الدنيا، فإن قيل: كيف يصح قولك: ما يشتهون، من العود مع أنه تعالى قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ وما حيل بينهم وبين العود؟ قلنا: لم قلتم: إنه ما حيل بينهم، بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل، وقوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ يحتمل وجهين أحدهما: ذي ريب، والثاني: موقف في الريب، وسنذكره في موضع آخر إن شاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه أجمعين.

سورة سبأ

مكِّيَّةٌ في قولِ الجميع، إلَّا آيةً واحدةً اختُلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الآية [٦]، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، والمرادُ المؤمنون أصحابُ النبيِّ ﷺ؛ قاله ابن عباس. وقالت فرقة: هي مدنية، والمرادُ بالمؤمنين مَن أَسْلَمَ بالمدينة [من أهل الكتاب] كعبد الله بن سلَام وغيره[١]؛ قاله مقاتل. وقال قتادة: هم أمةُ محمدٍ ﷺ المؤمنون به؛ كائناً مَن كان[٢]. وهي أربعٌ وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «الذي» في موضعِ خَفْضٍ على النعتِ أو البدل. ويجوزُ أن يكونَ في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، وأن يكون في موضع نصبٍ بمعنى: أعني. وحكى سيبويه: «الحمد للهِ أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض[٣]. والحمدُ الكاملُ والثناءُ الشَّامِلُ كلُّه لِله؛ إذ النِّعَمُ كلُّها منه. وقد مضى الكلامُ فيه في أوّلِ «الفاتحة»[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤ دون قوله: قاله ابن عباس، وما سلف بين حاصرتين منه. وقول ابن عباس إن سورة سبأ مكية أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٩٤ .

(٢) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦ . وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٢١٤ ، والنكت والعيون ٤/ ٤٣٣ ، والوسيط ٣/ ٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٤٩ بلفظ: هم أصحاب محمد ﷺ، وكذا ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية عن ابن عباس.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣١ . وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٦٢ - ٦٣ .

(٤) ١/ ٢٠٢ .

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قيل: هو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقيل: هو قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فهو المحمودُ في الآخرةِ كما أنه المحمودُ في الدنيا، وهو المالكُ للآخرة كما أنَّه المالكُ للأُولى(١). ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأمرِ خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها من قَطْرٍ وغيره، كما قال: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، ومن الكنوزِ والدَّفائنِ والأمواتِ وما هي له كِفَاتٌ(٢). ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نباتٍ وغيرِه ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبَرَد والصواعق، والأرزاقِ والمقادير والبركات. وقرأ عليّ بن أبي طالب: «وما نُنزِّلُ» بالنون والتشديد(٣). ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة وأعمالِ العباد؛ قاله الحسن وغيره(٤). ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ قيل: المرادُ أهلُ مكة؛ قال مقاتل: قال أبو سفيان لكفار مكة: واللّاتِ والعزَّى لا تأتينا الساعة أبداً ولا نُبعث. فقال الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. وروى هارونُ عن طَلْقٍ المعلِّمِ

(١) في (ظ): للدنيا.

(٢) مصدر كفت، ومعنى كَفَتَ الشيءَ، أي: ضمَّه إليه وقبضه. القاموس (كفت).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢١، والكشاف ٣/ ٢٧٩.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٥٤٨، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٧٩ دون نسبة.

قال: سمعتُ أشياخَنا يقرؤون: «قل بلى وربِّي لَيأْتِيَنَّكُمْ» بياءٍ[١]، حَمَلوه على المعنى، كأنه قال: لَيأتينَّكم البعثُ، أو أَمْرُه، كما قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

فهؤلاء الكفارُ مُقِرُّونَ بالابتداء مُنْكِرون الإعادَةَ، وهو نقضٌ لِمَا اعترفوا به من القدرة[٢] على البعث، وقالوا: وإنْ قَدَرَ لا يفعل. فهذا تحكُّمٌ بعد أن أخبر على ألسنةِ الرسل أنه يبعث الخلق، وإذا ورد الخبر بشيءٍ هو[٣] ممكنٌ في الفعل مقدورٌ، فتكذيبُ مَن وَجَبَ صِدْقُه مُحال.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالرفع قراءةُ نافع وابن عامر[٤] على الابتداء، وخبرُه: «لا يَعْزُبُ عنه». وقرأ عاصم وأبو عمرو: ﴿عَٰلِمِ﴾ بالخفض[٥]، أي: الحمدُ لِله عالِمِ، فعلى هذه القراءة لا يَحْسُنُ الوَقْفُ على قوله: «لَتَأْتيَنَّكم». وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «علَّامِ الغيب» على المبالغة والنعت[٦].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يغيبُ عنه، «ويَعْزِب» أيضاً. قال الفرَّاء[٧]: والكسرُ أحبُّ إليَّ. النحاس: وهي قراءةُ يحيى بن وثَّاب، وهي لغةٌ معروفة. يقال: عَزَبَ يَعْزُبُ ويَعْزِبُ. إذا بَعُد وغاب[٨].

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٦، والبحر ٧/ ٢٥٧، ووقع في المحتسب: طليق، بدل: طلق.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة، والمثبت من (ظ).

(٣) في (د) و(م): وهو.

(٤) في النسخ: ابن كثير، وهو خطأ.

(٥) وهي قراءة ابن كثير أيضاً.

(٦) السبعة ص ٥٢٦، والتيسير ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٥١.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣٩٣، وقرأ: «يَعزِبُ» بكسر الزاي الكسائي، والباقون بضمها. السبعة ص٥٢٦، والتيسير ص ١٢٢.

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: قَدْرُ نَملةٍ صغيرة. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ وفي قراءة الأعمش: «ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ» بالفتح فيهما[1] عطفاً على «ذَرَّةٍ». وقراءةُ العامَّةِ بالرفع عطفاً على «مِثْقَالُ».

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فهو العالمُ بما خلَقَ، ولا يَخْفَى عليه شيء. ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ منصوبٌ بلامِ كي، والتقدير: لَتأتينَّكُم لِيجزيَ[2] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالثواب، والكافرين بالعقاب. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني المؤمنين ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالِ أدِلَّتِنا والتكذيبِ بآياتنا. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابِقين يحسبون أنهم يَفُوتوننا، وأنَّ الله لا يقدرُ على بعثهم في الآخرة، وظنُّوا أنَّا نُهمِلُهم، فهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ يقال: عاجَزَه وأعْجَزَه: إذا غالبَه وسَبَقَه.

و«أَلِيمٍ» قراءةُ نافعٍ بالكسر[3] نعتاً للرِّجْز؛ فإنَّ الرِّجْز هو العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٥٩]. وقرأ ابن كَثِيرٍ وحفصٌ عن عاصم: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع «الميم» هنا وفي «الجاثية»[4] نعتاً للعذاب. وقرأ ابن كثير وابن مُحيصِنٍ وحُميد بن قيس ومجاهد وأبو عمرو: «مُعَجِّزِينَ»[5] أي: مثبِّطين، أي: ثبَّطوا الناسَ عن الإيمان بالمعجزات وآياتِ القرآن.

---

(١) القراءات الشاذة ص ١٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ .

(٣) وقرأ بها أيضاً من السبعة أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. السبعة ص٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٤) في الآية (١١) منها . السبعة ص ٥٢٦ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٥) السبعة ص ٤٣٩ ، والتيسير ص ١٥٨ عن ابن كثير وأبي عمرو .

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

لمَّا ذكر الذين سَعَوْا في إبطال النبوَّة؛ بيَّنَ أنَّ الذين أوتوا العلم يَرَوْنَ أنَّ القرآن حقٌّ. قال مقاتل: «الذين أُوتوا العلمَ» هم مؤمنو أهلِ الكتاب. وقال ابن عباس: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ[١]. وقيل: جميع المسلمين، وهو أصحُّ لعمومه.

والرؤيةُ بمعنى العلم، وهي في موضعِ نصبٍ عطفاً على «لِيَجْزِيَ»، أي: ليجزي وليرى؛ قاله الزجَّاج والفرَّاء[٢]. وفيه نظر، لأنَّ قوله: «لِيجزيَ» متعلِّقٌ بقوله: «لَتأْتينَّكم الساعةُ»، ولا يقال: لتأتينَّكم الساعةُ ليَرى الذين أوتوا العلم أنَّ القرآن حقٌّ، فإنَّهم يَرَوْن القرآنَ حقًّا وإن لم تأتِهم الساعةُ. والصحيحُ أنه رفعٌ على الاستئناف؛ ذكره القشيريُّ.

قلت: وإذا كان «لِيَجْزِيَ» متعلِّقاً بمعنى: أَثبت ذلك في كتابٍ مبين، فيحسُنُ عطفُ «ويَرَى» أي: وأَثبت أيضاً ليرى[٣] الذين أوتوا العلمَ أنَّ القرآن حقٌّ. ويجوز أن يكون مُسْتأنَفاً.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في موضعِ نصبٍ على أنه مفعولٌ أول لـ «يَرى»، و﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ مفعولٌ ثانٍ. و«هو» فاصلةٌ، والكوفيون يقولون: عماد، ويجوز الرفعُ على أنه مبتدأ، و«الْحَقُّ» خبرُه، والجملةُ في موضع نصبٍ على المفعول الثاني. والنصبُ أكثرُ فيما كانت فيه الألفُ واللَّام عند جميع النحويين، وكذا ما كان نكرةً لا يَدْخلُه الألفُ واللام، فيشبِهُ المعرفة. فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك: كان أخوك هو زيدٌ، فزعم الفراء أنَّ الاختيار فيه الرفعُ، وكذا: كان [أبو] محمد هو عمرو. وعلَّتُه في اختياره الرفعَ: أنه

---

(١) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢١٤ عن قتادة، وينظر ما سلف ص ٢٥٨ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤١.

(٣) في النسخ الخطية: رؤية، والمثبت من (م).

لمَّا لم تكن فيه الألفُ واللَّامُ أَشْبَهَ النكرةَ في قولك: كان زيد هو جالسٌ؛ لأنَّ هذا لا يجوز فيه إلَّا الرفعُ[١].

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: يهدي القرآنُ إلى طريق الإسلام الذي هو دينُ الله. ودلَّ بقوله: «العزيز» على أنه لا يُغالَب. وبقوله: «الحميد» على أنه لا يَلِيقُ به صفةُ العجز.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وإن شئتَ أدغمتَ اللامَ في النون لقُرْبِها منها[٢]. ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ هذا إخبارٌ عمَّن قال: «لا تأتينا الساعةُ» أي: هل نُرشدُكم إلى رجلٍ ينبئكم، أي: يقول لكم: إنكم تُبعَثون بعد البِلَى في القبور. وهذا صادرٌ عن فَرْطِ إنكارهم.

الزَّمخشَريُّ[٣]: فإن قلت: كان رسولُ الله ﷺ مشهوراً عَلَماً في قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكَّروه لهم، وعَرَضوا عليهم الدلالةَ عليه كما يُدَلُّ على مجهولٍ في أمرٍ مجهول.

قلت: كانوا يقصدون بذلك الطَّنْزَ[٤] والهُزْءَ والسُّخرية، فَأَخْرجوه مخرجَ التَّحكِّي[٥] ببعض الأَحَاجيّ التي يُتَحاجَى بها للضَّحك والتَّلهِّي، مُتَجاهِلينَ به وبأمره.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣ ، وقول الفرَّاء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٢ . وما سلف بين حاصرتين منهما .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ ، وأدغمها الكسائي .

(٣) في الكشاف ٣/ ٢٨١ .

(٤) أي : السخرية. القاموس (طنز).

(٥) في (ظ): التحاكي، وفي الكشاف: التحلي.

و«إذا» في موضع نصبٍ، والعاملُ فيها: «مُزِّقْتُم»؛ قاله النحاس[(١)]، ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها «يُنَبِّئُكُم»؛ لأنه ليس يُخْبِرُهم ذلك الوقتَ. ولا يجوز أن يكون العاملُ فيها ما بعدَ «إنَّ»، لأنه لا يعملُ فيما قَبْلَه، و«إنَّ» لا يتقدَّم عليها ما بعدَها ولا معمولُها. وأجاز الزجَّاج[(٢)] أن يكون العاملُ فيها محذوفاً، التقدير: إذا مزِّقتُم كلَّ ممزَّقٍ بُعثتم، أو ينبئكم بأنكم تُبعَثون إذا مُزِّقتم.

المهدويُّ: ولا يعملُ فيه «مُزِّقتم»؛ لأنه مُضافٌ إليه، والمضافُ إليه لا يعملُ في المضاف. وأجازه بعضُهم على أن تُجعل «إذَا» للمجازاة، فيعملُ فيها حينئذٍ ما بعدَها لأنَّها غيرُ مُضافةٍ إليه. وأكثرُ ما تقع «إذا» للمجازاة في الشعر. ومعنى ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: فُرِّقتم كلَّ تَفريقٍ. والمَزْقُ: خرقُ الأشياء؛ يقال: ثوبٌ مَزِيقٌ وممزوقٌ ومتمزِّق وممزَّق.

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ لمَّا دخلت ألفُ الاستفهام استغنيتَ عن ألفِ الوصل فحذَفْتَها، وكان فتحُ ألفِ الاستفهام فرقاً بينها وبين ألفِ الوصل[(٣)]. وقد مضى هذا في سورة مريم عند قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [الآية:٧٨] مستوفًى.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ هذا مردودٌ على ما تقدَّم من قول المشركين، والمعنى: قال

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣ ، وقاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٤١ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٦ : وهو خطأ وإفساد للمعنى. وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩ بأنه ليس بخطأ ولا إفساد للمعنى، وأن الصحيح أن إذا الشرطية يعمل فيها فعل الشرط كسائر أدوات الشرط. قال السمين في الدر المصون ٩/ ١٥٤ : لكن الجمهور على خلافه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٢٤٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٣ ، وما قبله منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ .

المشركون: أَفْتَرَى على الله كذباً ـ والافتراءُ: الاخْتِلاقُ ـ أَمْ به جِنَّةٌ، أي: جنونٌ، فهو يتكلَّم بما لا يدري. ثم رَدَّ عليهم فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمرُ كما قالوا، بل هو أصدقُ الصادقين، ومَن يُنْكِر البعثَ فهو غداً في العذاب، واليومَ في الضَّلال عن الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله، ونسبةِ الافتراءِ إلى مَن أيَّده بالمعجزات.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أَعْلَمَ الله تعالى أنَّ الذي قَدَرَ على خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ قادرٌ على البعث، وعلى تعجيلِ العقوبةِ لهم، فاستَدَلَّ بقدرته عليهم، وأنَّ السماواتِ والأرضَ مِلْكه، وأنَّهما محيطتان بهم من كلِّ جانب، فكيف يَأْمنون الخَسْفَ والكَسْفَ كما فُعِلَ بقارونَ وأصحابِ الأيكة؟!.

وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿إنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بهمُ الأرضَ أو يُسْقِطْ﴾ بالياء في الثلاث، أي: إنْ يشأ اللهُ أَمر الأرضَ فتنخسف بهم، أو السماءَ فتُسقط عليهم كِسَفاً. الباقون بالنون على التعظيم(١).

وقرأ السُّلَميُّ وحفصٌ: ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين. الباقون بالإسكان. وقد تقدَّم بيانُه في «سبحان» وغيرها(٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي: في هذا الذي ذَكَرْناه من قدرتنا «لآيةً» أي: دلالةً ظاهِرةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: تائبٍ رجَّاعٍ إلى الله بقلبه. وخصَّ المنيب بالذِّكر؛ لأنه المنتفِعُ بالفكرة في حُجج الله وآياته.

---

(١) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) ١٣/ ١٧٥ وعند تفسير الآية (١٨٧) من سورة النمل. وينظر السبعة ص٣٨٥ والتيسير ص١٦٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ بيَّن لمنكري نبوَّةِ محمدٍ ﷺ أنَّ إرسال الرسل ليس أمرًا بِدْعًا، بل أَرْسَلْنا الرسلَ وأيَّدناهم بالمعجزات، وأَحْلَلْنا بِمَن خالَفَهم العقاب. «آتَيْنا»: أعطينا. ﴿فَضْلًا﴾ أي: أمراً فضَّلْناه به على غيره.

واختُلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأوّل: النبوَّة.

الثاني: الزَّبور.

الثالث: العلم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ [النمل: ١٥].

الرابع: القوّة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: ١٧].

الخامس: تسخير الجبال والناس؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾.

السادس: التوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [ص: ٢٥].

السابع: الحكم بالعدل؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [ص: ٢٦].

الثامن: إلَانَةُ الحديد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

التاسع: حُسن الصوت، وكان داودُ عليه السلام ذا صوتٍ حسن ووجهٍ حسن. وحُسْنُ الصوت هبةٌ من الله تعالى وتفضُّلٌ منه، وهو المرادُ بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [فاطر: ١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى. وقال ﷺ لأبي موسى: «لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مزامير آلِ داود»[١]. قال العلماء: المِزْمارُ والمَزْمُور: الصوتُ الحسن، وبه سمِّيت آلةُ الزَّمْرِ مِزْماراً[٢]. وقد استَحْسَنَ كثيرٌ من فقهاء

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٩٦٩)، ومسلم (٧٩٣): (٢٣٥) من حديث بريدة الأسلمي ﷺ.

(٢) المفهم ٢/ ٤٢٣.

الأمصار القراءةَ بالتزيين والترجيع[١]، وقد مضى هذا في مقدِّمة الكتاب[٢]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: وقلنا: يا جبالُ أوِّبي معه، أي: سبِّحي معه؛ لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]. قال أبو ميسرة: هو التسبيحُ بلسان الحبشة[٣]، ومعنى تسبيحِ الجبال: هو أنَّ الله تعالى خَلَقَ فيها تسبيحاً كما خلق الكلامَ في الشجرة، فَيُسمَعُ منها ما يُسمَعُ من المسبِّح، معجزةً لداودَ عليه الصلاة والسلام[٤].

وقيل: المعنى: سِيري معه حيثُ شاء، من التأويب الذي هو سيرُ النهارِ أجْمعَ وينزلُ الليلَ. قال ابن مُقْبِل:

لَحِقْنا بحيٍّ أوَّبوا السَّيرَ بعد ما ... دَفَعْنا شُعاعَ الشَّمسِ والطَّرْفُ مُجنَحُ[٥]

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما: «أُوْبي مَعَهُ» أي: ارجعي معه[٦]، من آبَ يَؤُوبُ: إذا رجع، أَوْبًا وأَوْبة وإيَاباً.

وقيل: المعنى: تصرَّفي معه على ما يَتَصرَّفُ عليه داودُ بالنهار، فكان إذا قرأ الزبورَ صَوَّتت الجبالُ معه، وأَصْغَتْ إليه الطيرُ، فكأنَّها فَعَلَتْ ما فَعَل.

وقال وهب بن منبِّه: المعنى: نُوحي معه، والطيرُ تساعده[٧] على ذلك، فكان إذا

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٤، وفيه: بالألحان والترجيع.

(٢) ١/ ٢١.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٠، وأبو ميسرة هو عمرو بن شُرَحبيل الهَمْداني.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨١.

(٥) تفسير غريب القرآن ص ٣٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، والبيت في ذيل ديوان تميم بن مقبل رقم (١٤). وذكره صاحب منتهى الطلب من أشعار العرب ٦/ ٤٦ عن الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٣٩. ووقع في (م): يجنح، وهو موافق لما في تفسير الغريب.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧، قال ابن عطية: أي: في السير، أو في التسبيح.

(٧) في النسخ الخطية: تسعده، والمثبت من (م).

نادى بالنياحة أجابته الجبال بصَدَاها، وعكفت الطيرُ عليه مِن فوقه. فصَدَى الجبالِ الذي يسمعه الناس إنَّما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة[١]، فأُيِّد بمساعدة الجبال والطير لئلَّا يجد فَتْرةً، فإذا دخلت الفترةُ اهتاج، أي: ثار وتحرَّك، وقَوِيَ بمساعدةِ الجبالِ والطير. وكان قد أُعطيَ من الصوت ما تتزاحمُ الوحوشُ من الجبال على حُسْنِ صوته، وكان الماءُ الجاري يَنْقَطِعُ عن الجَرْي وقوفاً لصوته.

«وَالطَّيْرُ» بالرفع قراءةُ ابنِ أبي إسحاق، ونصرٍ عن عاصم، وابنِ هُرْمُز، ومَسْلمةَ ابنِ عبد الملك[٢]، عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمَر في «أَوِّبي»، وحسَّنه الفصلُ بمع. الباقون بالنصب عطفاً على موضع «يا جبالُ» أي: نادينا الجبالَ والطير؛ قاله سيبويه. وعند أبي عمرو بن العلاء بإضمارِ فعلٍ، على معنى: وسخَّرنا له الطير. وقال الكسائيُّ: هو معطوفٌ، أي: وآتيناه الطيرَ، حملاً على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾. النحاس[٣]: ويجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبةَ. وسمعتُ الزجَّاج يُجيز: قمتُ وزيداً، فالمعنى: أوِّبي معه ومع الطير[٤].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ قال ابن عباس: صار عنده كالشمع[٥]. وقال الحسن: كالعجين[٦]، فكان يعمله من غير نار. وقال السُّدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجينِ والشمع، يُصَرِّفه كيف شاء، من غير إدخالِ نارٍ ولا ضربٍ بِمطْرَقةٍ[٧]. وقاله مقاتل. وكان يَفْرَغُ من الدِّرع في بعضِ اليومِ أو بعضِ الليل،

(١) هذا كلام يناقض سنة الله في كونه، والخبرُ من الإسرائيليات.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧ وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٤، وما قبله منه.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.
(٥) الوسيط ٣/ ٤٨٨.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧.
(٧) في (ظ): مطرقة.

ثمنُها ألفُ درهم.

وقيل: أُعطيَ قوةً يَثْني بها الحديد، وسَبَبُ ذلك: أنَّ داود عليه السلام لمَّا مَلَكَ بني إسرائيلَ؛ لَقِيَ مَلَكاً وداودُ يَظُنُّه إنساناً، وداودُ مُتنكِّرٌ؛ خرج يسأل عن نفسه وسيرتِه في بني إسرائيلَ في خَفَاءٍ، فقال داودُ لذلك الشخصِ الذي تَمثَّلَ له: ما قولُك في هذا الملِك داودَ؟ فقال له المَلَكُ: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه. قال داودُ: وما هي؟ قال: يَرتَزِقُ من بيت المال، ولو أَكَلَ مِن عَمَلِ يده لَتَمَّتْ فضائلُه. فرجع، فدعا الله في أنْ يعلِّمه صنعةً ويسهِّلَها عليه، فعلَّمه صنعةَ لَبوسٍ كما قال جلَّ وعزَّ في سورة الأنبياء، فألانَ له الحديدَ، فصنع الدُّروعَ، فكان يصنع الدِّرعَ فيما بين يومِه وليلتِه يساوي ألفَ درهمٍ، حتى ادَّخر منها كثيراً، وتوسَّعتْ معيشةُ منزله، وتَصَدَّق على الفقراء والمساكين، وكان يُنفقُ ثلثَ المالِ في مَصَالحِ المسلمين[(١)]. وهو أوّلُ مَن اتَّخذ الدروعَ وصَنَعها وكانت قبل ذلك صفائحَ. ويقال: إنه كان يبيع كلَّ درعٍ منها بأربعة آلاف[(٢)]. والدِّرعُ مؤنثةٌ إذا كانت للحرب، ودرعُ المرأةِ مُذَكَّر[(٣)].

مسألة: في هذه الآية دليلٌ على تعلُّم أهلِ الفضلِ الصَّنائعَ، وأنَّ التحرُّفَ بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادةٌ في فضلهم وفضائلهم؛ إذ يحصلُ لهم التواضعُ في أنفسهم والاستغناءُ عن غيرهم، وكَسْبُ الحلالِ الخليِّ عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ خيرَ ما أَكَلَ المرءُ مِن عَمَلِ يَدِه، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ مِن عَمَلِ يَدِه»[(٤)]. وقد مضى هذا في «الأنبياء»[(٥)] مُجَوَّداً، والحمد لله.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٤٠٧ - ٤٠٨ ، وبنحوه في عرائس المجالس ص ٢٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠ .

(٢) عرائس المجالس ص ٢٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٤ .

(٤) صحيح البخاري (٢٠٧٢) من حديث المقدام ﷺ، و(٢٠٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٠/١٦١ .

(٥) ١٤/٢٥٤ .

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: دروعاً سابغاتٍ، أي: كَوَامِلَ تامَّاتٍ واسعات؛ يقال: سَبَغ الدِّرْعُ والثوبُ وغيرُهما: إذا غطَّى كلَّ ما هو عليه وفَضَلَ منه. ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ قال قتادة: كانت الدُّروعُ قبلَه صَفائح، فكانت ثِقَالاً؛ فلذلك أُمِرَ هو بالتقدير فيما يجمع بين[1] الخِفَّةِ والحَصَانة. أي: قَدِّرْ ما تأخذُ من هذين المَعْنَيين بِقِسْطِه، أي: لا تَقْصدِ الحصانةَ فتثقُلَ، ولا الخفةَ فتُزيلَ المَنَعةَ.

وقال ابن زيد: التقديرُ الذي أُمر به هو في قَدْرِ الحَلْقة، أي: لا تَعْمَلْها صغيرةً فتَضْعُفَ، فلا تَقْوى الدروعُ على الدفاع، ولا تَعْمَلْها كبيرةً فيُنالَ لابِسُها [من خلالها][2].

وقال ابن عباس: التقديرُ الذي أُمر به هو في المسمار، أي: لا تجعل مسمارَ الدرع رقيقاً فيَقْلَقَ، ولا غليظاً فَيَفْصِمَ الحَلَقَ[3]. روي «يَقْصِمُ» بالقاف، والفاءُ أيضاً رواية[4].

﴿فِى ٱلسَّرْدِ﴾ السَّرْدُ: نسجُ حَلَق الدروع، ومنه قيل لصانع الدروع: السَّرَّاد والزرَّاد، تُبدَلُ من السين الزايُ، كما قيل: سِرَاط وزِرَاط. والسَّرد: الخَرْز، يقال: سَرَدَ يَسْرُدُ: إذا خَرَز. والمِسْرَد: الإشْفَى[5]، ويقال: سِرَاد. قال الشَّمَّاخ:

---

(١) في النسخ عدا (ظ): من، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨ ، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرج قول ابن زيد وقول قتادة الطبري ١٩/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٢٧ . وقوله: فيقلق، أي: لا يستقر ولا يثبت. اللسان (قلق). وعلقه البخاري كما في الفتح ٦/ ٤٥٣ عن مجاهد قال: لا ترقَّ المسامير فيسلس، ولا تعظم فينفصم. قال الحافظ: معناه: فيخرج من الثقب برفق، أو يصير متحركاً فيلين عند الخروج.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٨ .

(٥) وهو مِثْقَب الإسكاف، جمعها: الأشافي. معجم متن اللغة (أشف).

فظلَّتْ تِبَاعاً خيلُنا في بيوتكم ... كما تابعتْ سَرْدَ العِنانِ الخوارزُ[١]

والسِّرَاد: السَّيرُ الذي يُخْرَزُ به؛ قال لَبِيد:

يَشُكُّ صِفَاحَها بالرَّوْقِ شَزْرًا ... كما خرج السِّرَادُ من النِّقَال[٢]

ويقال: قد سَرَدَ الحديثَ والصومَ، فالسَّرْدُ فيهما: أنْ يَجيءَ به وِلاءً في نسقٍ واحد، ومنه سرد الكلام. وفي[٣] حديث عائشة: لم يكن النبيُّ ﷺ يَسْرُدُ الحديثَ كَسَرْدِكُم، وكان يحدِّث الحديثَ لو أراد العادُّ أن يَعُدَّه لأَحْصَاه[٤]. قال سيبويه[٥]: ومنه: رجلٌ سَرَنْدَى، أي: جريء، قال: لأنه يمضي قُدُماً. وأصلُ ذلك في سَرْدِ الدِّرْع، وهو أن يُحْكِمَها ويجعل نظامَ حَلقَها وِلاءً غيرَ مختلفٍ. قال لبيد:

صَنَعَ الحديدَ مُضاعفاً أسرادُه ... لينال طولَ العيش غيرَ مَرُومِ[٦]

وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرُودَتانِ قضاهما ... داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغ تُبَّعُ[٧]

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ أي: عملاً صالحاً. وهذا خطابٌ لداودَ وأَهْلِه. كما قال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]. ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

---

(١) ديوان الشماخ ص١٩٤ برواية: شككْنَ بأحساءَ الذِّنابَ على هُدًى ـ كما تابعت . . . يصف أُتُناً وَرَدْنَ وحَسَسْنَ بالصائد فنَفَرْنَ على تتابُعٍ واستقامة. اللسان (عرق). وذكر ابن قتيبة عجزه في غريب القرآن ص٣٥٤ ، والكلام فيه بنحوه.

(٢) في النسخ الخطية: النعال، والمثبت من (م) وشرح ديوان لبيد ص ٧٩ . وقال الشارح: يشك: يطعن (وهو الثور) صفاحها: جُنوبها. والرَّوق: القَرْن. شَزْراً: جانباً. والنقال واحدها نَقْل: وهو النعل الخَلَق تُرقع فتُخْرز.

(٣) في (ظ): ومنه.

(٤) أخرج أوله أحمد (٢٤٨٦٥)، ومسلم (٢٤٩٣)، وعلقه البخاري (٣٥٦٨). وأخرجه من قوله: وكان يحدث الحديث...، البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم في كتاب الزهد (٢٤٩٣): (٧١).

(٥) في الكتاب ٤/ ٣٢٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/ ٣٩٧ .

(٦) ديوان لبيد ص ١٠٩ برواية: صنع الحديد لحفظه أسرادَه...، قوله: غير مروم، قال شارح الديوان: أي: لينال طول العيش وهو لا يُرام.

(٧) سلف ٢/ ٣٣٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ قال الزجَّاج(١): التقدير: وسخَّرنا لسليمانَ الريح. وقرأ عاصم في روايةِ أبي بكر عنه: «الرِّيحُ» بالرفع(٢) على الابتداء، والمعنى: له تسخيرُ الريح، أو بالاستقرار، أي: ولسليمان الريحُ ثابتةٌ، وفيه ذلك المعنى الأولُ. فإن قال قائل: إذا قلت: أعطيتُ زيداً درهماً ولعمرو دينارٌ، فرفعتَه لم يكن فيه معنى الأولِ، وجاز أن يكون لم تُعطِه الدينارَ. قيل: الأمرُ كذا؛ ولكن الآية على خلافِ هذا من جهة المعنى؛ لأنَّه قد عُلم أنه لم يسخِّرها أحدٌ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ(٣).

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ﴾ أي: مسيرةُ شهر. قال الحسن: كان يغدو من دمشقَ فيَقِيلُ بإصْطَخْرَ، وبينهما مسيرةُ شهرٍ للمُسْرِع، ثم يروح من إصْطَخْر ويَبيتُ بكابُل، وبينهما شهرٌ للمُسْرِع(٤). قال السُّدِّيُّ: كانت تسير به في اليوم مسيرةَ شهرين(٥).

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: كان سليمان إذا جلس نُصبت حَوالَيْه أربعُ مئةِ ألفِ كرسيٍّ، ثم جلس رؤساءُ الإنس ممَّا يليه، وجلس سِفْلَةُ الإنس مما يليهم، وجلس رؤساءُ الجنِّ مما يلي سِفْلَةَ الإنس، وجلس سفلةُ الجنِّ ممَّا يَليهم، ومُوكَّلٌ بكلِّ كرسيٍّ طائرٌ لعملٍ قد عَرَفَه، ثم تُقِلُّهم الريحُ، والطيرُ تُظِلُّهُم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخر [فيَقيلُ بها، ثم يَروحُ من إصطخر] فيبيت ببيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ﴾(٦).

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٥.

(٢) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٧، والطبري ١٩/ ٢٢٨. وإصْطَخْر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/ ٢١١.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٧ عن قتادة، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٢٧ عن مجاهد.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٦، والطبري ١٨/ ٣٠.

وقال وهب بن منبِّهٍ: ذُكر لي أنَّ منزلاً بناحيةِ دِجْلةَ مكتوباً فيه ـ كَتبه بعضُ صَحابةِ سليمانَ؛ إمَّا من الجنِّ وإما من الإنس ـ : نحن نَزَلناهُ[١] وما بنيناه، ومَبْنيًّا وجدناه، غَدَوْنا من إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فبائتون في الشام[٢].

وقال الحسن: شَغَلتْ سليمانَ الخيلُ حتى فاتته صلاةُ العصر، فعقر الخيلَ فأَبْدَلَه الله خيراً منها وأَسْرَعَ، أَبْدَلَه الريحَ تجري بأمره حيث شاء، غدوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهر[٣].

وقال ابن زيد: كان مستقرُّ سليمانَ بمدينةِ تَدْمُرَ، وكان أَمَرَ الشياطينَ قبل شُخوصِه من الشام إلى العراق، فبَنَوْها له بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ والرُّخامِ الأبيضِ والأصفر[٤]، وفيه يقول النابغة:

إلَّا سليمانَ إذ قال الإلهُ[٥] له ... قُمْ في البريَّة فاحْدُدْها عن الفَنَدِ

وخَيِّسِ الجنَّ إنِّي قد أَذِنْتُ لهم ... يَبْنُونَ تَدْمرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ

فَمَن أطاعَكَ فانفَعْه بطاعَتِهِ ... كما أطاعَكَ وادْلُلْهُ على الرَّشَدِ

ومَن عصاكَ فعاقِبْه مُعاقَبَةً ... تَنْهَى الظَّلومَ ولا تَقْعُدْ على ضَمَدِ[٦]

ووجدتُ هذه الأبياتَ منقورةً في صخرةٍ بأرضِ كَسْكَر[٧]، أنشأهنَّ بعضُ

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: نزلنا.

(٢) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٧، وابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٥٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٢٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٣٠٤، والبغوي ٣/ ٢٥٥، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣١٤ لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) عرائس المجالس ص ٣٠٤، والصُّفَّاح: حجارة عِراض رِقَاق. القاموس (صفح).

(٥) في (ظ): المليك.

(٦) ديوان النابغة ص ٣٣، وذكر البغدادي في الخزانة ٣/ ٤٠٥ البيت الأول وقال: قوله: فاحْدُدْها، أي: امنع البرية، والحد: المنع. والفَنَد: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ. وقوله: خيِّس، أي: ذَلِّل. والضَّمَد: الحقد. القاموس (خيس) و(ضمد).

(٧) في (د) و(م): يشكر، والمثبت من باقي النسخ، وعرائس المجالس ص ٣٠٤، والكلام منه، وكسكر مكان بالعراق. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١.

أصحابِ سليمان عليه الصلاة والسلام:

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربِّنا نَروحُ إلى الأوطان من أرضِ تَدْمُرِ
إذا نحن رُحْنا كان رَيْثُ[1] رَوَاحِنا مسيرةَ شهرٍ والغُدُوُّ لآخَرِ
أُناسٌ شَرَوْا لله طَوْعًا نفوسَهم بنَصْرِ ابنِ داودَ النبيِّ المُطَهَّرِ
لهم في معالي الدِّين فضلٌ ورأفةٌ وإن نُسِبُوا يوماً فمِن خير مَعْشَرِ
متى يركبوا الريحَ المطيعةَ أسرعتْ مُبادِرةً عن شَهْرِها لم تُقَصِّرِ
تُظلُّهُمُ طيرٌ صفوفٌ عليهمُ متى رَفْرَفَتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ القِطْر: النحاس؛ عن ابن عباس وغيره[2]. أُسِيلت له مسيرةَ ثلاثةِ أيام كما يسيلُ الماء، وكانت بأرض اليمن، ولم يُذَبِ النحاسُ فيما روي لأحدٍ قَبْلَه، وكان لا يذوب، ومن وقته ذاب، وإنَّما ينتفع الناس اليومَ بما أَخرج الله تعالى لسليمان. قال قتادة: أسال الله عيناً يستعملُها فيما يريد[3]. وقيل لعكرمة: إلى أين سالت؟ فقال: لا أدري[4]!.

وقال ابن عباس ومجاهدٌ والسُّدِّي: أُجريت له عينُ الصُّفْر ثلاثةَ أيامٍ بلياليهن[5]؛ قال القشيريُّ: وتخصيصُ الإسالة بثلاثةِ أيامٍ لا يُدْرَى ما حدُّه، ولعلَّه وَهْمٌ من الناقل؛ إذ في روايةٍ عن مجاهد: أنها سالت من صنعاءَ ثلاثَ ليالٍ مما يليها، وهذا يشير إلى بيانِ الموضع، لا إلى بيان المدَّة. والظاهرُ أنه جعل النحاس لسليمان في

---

(١) في عرائس المجالس: أمر، والرَّيْث: المقدار. القاموس (ريث).

(٢) تفسير الطبري ١٩/٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/٣٩٨ بلفظ: أسال الله له عيناً من نحاس، أي: سالت وظهرت، فكان يستعملها فيما يريد.

(٤) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ .

(٥) أخرجه عن السدي ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٥/٢٢٨ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس ومجاهد. والصُّفْر هو النحاس، أو النحاس الجيد. معجم متن اللغة (صفر).

معدنه عيناً تسيل كعيون المياه، دلالةً على نبوَّته.

قال الخليل: القِطْر: النحاسُ المُذاب[١].

قلت: دليلُه قراءةُ مَن قرأ: «مِن قِطرِ آنٍ»[٢].

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بأمره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في الآخرة؛ قاله أكثر المفسرين[٣].

وقيل: ذلك في الدنيا، وذلك أنَّ الله تعالى وكَّل بهم ـ فيما روي عن السُّدِّيِّ ـ مَلكاً بيده سوطٌ من نار، فَمَن زاغ عن أمر سليمانَ ضَرَبه بذلك السوط ضربةً من حيث لا يراه، فأَحْرقته[٤].

و«مَن» في موضعِ نصبٍ بمعنى: وسخَّرْنا له مِن الجنِّ مَن يعمل. ويجوز أن يكون في موضعِ رفعٍ، كما تقدَّم في الريح[٥].

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ المحرابُ في اللغة: كلُّ موضعٍ مُرتفعٍ. وقيل للَّذِي يصلَّى فيه: محراب؛ لأنه يجب أن يُرفع ويُعَظَّم[٦]. وقال

---

(١) العين ٥/ ٩٥.

(٢) القراءات الشاذة ص ٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢ عند تفسير الآية (٥٠) من سورة إبراهيم.

(٣) الوسيط ٣/ ٤٨٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٣٨ عن الضحاك، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦.

الضحاك: «مِنْ مَحَارِيبَ» أي: من مساجد. وكذا قال قتادة. وقال مجاهد: المحاريبُ دون القصور[١]. وقال أبو عبيدة: المحرابُ: أَشْرفُ بيوتِ الدار[٢]، قال:

وماذا عليه أنْ ذكرتُ أَوَانِساً كغِزلان رَمْلٍ في محاريبِ أقيالِ[٣]

وقال عَدِيّ بن زيد:

كدُمَى العاجِ في المحاريب أو كالـ ـبِيض في الرَّوْضِ زهرُه مُسْتَنيرُ[٤]

وقيل: هو ما يُرقَى إليه بالدَّرَج كالغرفة الحسنة؛ كما قال: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١] وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم:١١] أي: أَشْرَفَ عليهم.

وفي الخبر: أنه أَمر أن يُعمل حولَ كرسيِّه ألفُ محرابٍ فيها ألفُ رجلٍ عليهم المسوحُ يَصْرخون إلى الله دائباً، وهو على الكرسيِّ في موكِبه والمحاريبُ حوله، ويقول لجنوده إذا ركب: سبِّحوا الله إلى ذلك العَلَم، فإذا بَلَغوه قال: هلِّلوه إلى ذلك العَلَم، فإذا بلغوه قال: كبِّروه إلى ذلك العَلَم الآخَر، فتَلِجُّ الجنودُ بالتسبيحِ والتهليلِ لَجَّةً واحدة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال. وهو كلُّ ما صُوِّر على مثلِ صورةِ غيره من حيوانٍ أو غيرِ حيوان. وقيل: كانت من زجاجٍ ونحاسٍ ورخامٍ تماثيل أشياءَ ليست بحيوان.

وذُكر أنها صورُ الأنبياء والعلماء، وكانت تصوَّر في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادةً واجتهاداً؛ قال ﷺ: «إنَّ أولئك كان[٥] إذا مات فيهم الرجلُ الصالح

(١) أخرج أقوالهم الطبري ١٩/ ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) بنحوه في النكت والعيون ٤/ ٤٣٨، وفي مجاز القرآن ٢/ ١٤٤ لأبي عبيدة: المحراب: مقدَّم كلِّ مسجد ومصلًّى وبيت.

(٣) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٣٤. قال شارحه: الأقيال: الملوك، وهم يتخذون الغزلان ويُربُّونها، ومعنى قوله: أن ذكرت أوانساً، أي: ما عليه في أنْ شبَّبْتُ بهنَّ وطَرِبْتُ إليهن!.

(٤) الكامل للمبرد ٢/ ٩٤٩، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٣٦٠، والبيان والتبيين ١/ ٤٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩٤.

(٥) في (ظ): كانوا.

بنَوْا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّورَ»[١]. أي: ليتذكَّروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة.

وهذا يدلُّ على أنَّ التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ونُسخ ذلك بشرع محمدٍ ﷺ. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة نوح إن شاء الله تعالى[٢].

وقيل: التماثيلُ طِلَّسْمات[٣] كان يعملُها، ويُحرِّمُ على كلِّ مصوِّرٍ[٤] أن يتجاوزها، فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالاً للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبداً[٥] ما دام ذلك التمثالُ قائماً. وواحدُ التماثيل تمثالٌ بكَسْر التاء؛ قال:

ويا رُبَّ يومٍ قد لَهوْتُ وليلةٍ   بآنِسَةٍ كأنَّها خطُّ تِمثالِ[٦]

وقيل: إنَّ هذه التماثيلَ رجالٌ اتَّخذهم من نحاس، وسأل ربَّه أن ينفخ فيها الروحَ ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَحِيك فيهم السلاح، ويقال: إنَّ إسفنديارَ كان منهم[٧]، والله أعلم.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيِّه ونَسْرَيْن فوقه، فإذا أراد أن يصعد

(١) أخرجه أحمد (٢٤٢٥٢)، والبخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وتتمته: «... فأولئك شِرارُ الخَلْقِ عند اللهِ يومَ القيامة». وسلف ٢/ ٢٩٤ .

(٢) عند تفسير الآية (٢٣) منها.

(٣) هي نقوش تنقش على أجساد خاصة في ساعات مناسبة بكيفيات ملائمة لحوائج معلومة، واحدها: طِلَّسم. معجم متن اللغة (طلسم).

(٤) في (خ): مصر.

(٥) في (ظ): ويأمرهم ألا يتجاوزوه مرة واحدة أبداً.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٢٩ . قال شارحه: قوله: بآنسة، أي: بامرأة ذات أُنْس. وقوله: خط تمثال، أي: نقش صورة، وإنما شبَّهها بالتمثال لأن الصانع له يتأنَّق في تحسينه.

(٧) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١١٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: فلا يحيك، أي: فلا يؤثِّر. القاموس (حاك). قال الآلوسي في روح المعاني ٢٢/ ١١٩ : وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي لأحد اعتقادُ صحته، وما هو إلا حديثُ خرافةٍ.

بَسَطَ الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أَطْلَقَ النَّسران أجنحتهما[١].

الثالثة: حكى مكّيّ في «الهداية» له: أنَّ فرقةً تجوِّز التصوير، وتحتجُّ بهذه الآية. قال ابن عطية[٢]: وذلك خطأ، وما أحفظُ عن أحدٍ من أئمة العلم مَن يُجوِّزُه.

قلت: ما حكاه مكّيّ ذكره النحّاس قبله؛ قال النحاس[٣]: قال قومٌ: عملُ الصورِ جائزٌ لهذه الآية، ولِمَا أخبر الله عزَّ وجلَّ عن المسيح[٤]. وقال قومٌ: قد صحَّ النهيُ عن النبيِّ ﷺ عنها، والتوعُّدُ لمن عَمِلَهَا أو اتَّخذها، فنسخ الله عزَّ وجلَّ بهذا[٥] ما كان مباحاً قبله، وكانت الحكمةُ في ذلك لأنه بُعث عليه الصلاة والسلام والصورُ تُعبد، فكان الأصلحُ إزالتَها.

الرابعة: التمثالُ على قسمين: حيوانٌ ومَوَات. والمواتُ على قسمين: جمادٌ ونامٍ؛ وقد كانت الجنُّ تصنعُ لسليمان جميعَه؛ لعموم قوله: «وتماثيلَ». وفي الإسرائيليات: أنَّ التماثيل من الطير كانت على كرسيِّ سليمان.

فإن قيل: لا عمومَ لقوله: «وَتَمَاثيلَ» فإنَّه إثباتٌ في نكرة، والإثباتُ في النكرة لا عمومَ له، إنَّما العمومُ في النفي في النكرة.

قلنا: كذلك هو، بَيْدَ أنه قد اقترن بهذا الإثباتِ في النكرة ما يقتضي حملَه على العموم، وهو قوله: «ما يشاءُ» فاقترانُ المشيئةِ به يقتضي العمومَ له.

فإن قيل: كيف استجاز الصورَ المنهيَّ عنها؟[٦]

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٩، وما قبله منه. وكتاب مكي اسمه: الهداية إلى بلوغ النهاية. كشف الظنون ٢/ ٢٠٤١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦.

(٤) يعني قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

(٥) في إعراب القرآن: فنسخ ﷺ.

(٦) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٨٨ (والكلام منه): كيف شاء عمل الصور المنهي عنها.

قلنا: كان ذلك جائزاً في شرعه، ونُسخ ذلك بشرعنا كما بيَّنَّا، والله أعلم. وعن أبي العالية: لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرَّماً[١].

الخامسة: مقتضى الأحاديث يدلُّ على أنَّ الصور ممنوعةٌ، ثم جاء: «إلَّا ما كان رَقْمًا في ثوب»[٢]، فخُصَّ من جملة الصور، ثم ثبتت الكراهيةُ فيه بقوله عليه الصلاة والسلام لعائشةَ في الثوب [المصوَّر]: «أَخِّريه عنِّي، فإنِّي كلَّما رأيتُه ذكرتُ الدنيا». ثم بِهَتْكِهِ الثوبَ المصوَّرَ على عائشةَ مَنَعَ منه، ثم بقَطْعِها له وسادتين حتى تغيَّرت الصورةُ وخرجت عن هيئتها، بان[٣] جواز ذلك إذا لم تكن الصورةُ فيه متَّصلةَ الهيئة، ولو كان متَّصلةَ الهيئةِ لم يَجز؛ لقولها في النُّمرُقة المصوَّرة: اشتريتُها لك لتقعد عليها وتَوَسَّدَها، فمنع منه، وتوعَّد عليه. وتبيَّن بحديث الصلاة إلى الصور أنَّ ذلك جائزٌ في الرَّقْم في الثوب ثم نَسَخَه المنعُ منه. فهكذا استقرَّ الأمر فيه، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ[٤].

السادسة: روى مسلم عن عائشةَ قالت: كان لنا سِتْرٌ فيه تمثالُ طائرٍ، وكان الداخِلُ إذا دخل استقبله، فقال رسول الله ﷺ: «حوِّلي هذا، فإنِّي كلَّما دخلتُ فرأيته ذكرتُ الدنيا». قالت: وكانت لنا قَطِيفةٌ كنَّا نقولُ: عَلَمُها حرير، فكنَّا نَلْبَسُها[٥].

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٢ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٣٤٥)، والبخاري (٣٢٢٦)، ومسلم (٢١٠٦) عن أبي طلحة الأنصاري ﷺ وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٦٦ ، وأحمد (١٥٩٧٩)، والترمذي (١٧٥٠)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢١٢ عن سهل بن حنيف ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. والرَّقْم: النقش والوشي. النهاية (رقم). والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠ .

(٣) في (د) و(م): فإن.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠ ، وما بين حاصرتين منه. وقول عائشة رضي الله عنها في النُّمرقة المصورة: اشتريتها لك...، قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) عن عائشة رضي الله عنها. والنُّمرقة: الوسادة، وهي بضم النون والراء وبكسرهما، جمعها: نمارق. النهاية (نمرق). وسيأتي تخريج ما ذكر من أحاديث في المسألة التالية.

(٥) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٨٨)، وهو عند أحمد (٢٤٢١٨).

وعنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مستترةٌ[١] بِقِرامٍ فيه صورةٌ، فتلوَّنَ وجهُه، ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: «إنَّ من أشدِّ الناس عذاباً يومَ القيامة الذين يُشَبِّهونَ بخلقِ الله عزَّ وجلَّ»[٢].

وعنها: أنه كان لها ثوبٌ فيه تصاويرُ ممدودٌ إلى سَهْوةٍ، فكان النبيُّ ﷺ يصلِّي إليه فقال: «أخِّريه عني» قالت: فأخَّرتُه، فجعلتُه وسادتين[٣].

قال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكُه عليه الصلاة والسلام الثوبَ وأمْرُه بتأخيره وَرَعًا؛ لأنَّ محلَّ النبوَّةِ والرسالةِ الكمالُ. فتأمَّلْه.

السابعة: قال المزنيُّ عن الشافعيِّ: إنْ دُعي رجلٌ إلى عُرسٍ، فرأى صورةً ذاتَ رُوحٍ، أو صوراً ذات أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبةً. وإن كانت تُوطَأُ فلا بأس، وإن كانت صورُ الشجر [فلا بأس]. ولم يختلفوا أنَّ التصاوير في الستور المعلَّقةِ مكروهةٌ غيرُ محرَّمةٍ. وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشاً في البناء[٤].

واستثنى بعضُهم ما كان رَقْماً في ثوبٍ؛ لحديث سهل بن حُنيف[٥].

قلت: لعن رسول الله ﷺ المصوِّرين ولم يستثن[٦]. وقولُه: «إنَّ أصحاب هذه الصور يعذَّبون يومَ القيامة، ويقال لهم: أَحيُوا ما خَلَقتُم»[٧] ولم يَسْتَثْنِ؛ وفي الترمذيِّ

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١٤/٨٨ : في معظم النسخ: متسترةٌ، وفي بعضها: مستترة، أي: متخذة ستراً.

(٢) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩١)، وهو عند أحمد (٢٥٦٣١)، والبخاري (٥٩٥٤) و(٦١٠٩).
والقِرام: الستر الرقيق. النهاية (قرم).

(٣) صحيح مسلم (٢١٠٧): (٩٣)، وهو عند أحمد (٢٥٣٩٢) وفيهما: فجعلته وسائد. والسهوة: بيت صغير يشبه المَخْدَع، وقيل: هي شِبْهُ الطَّاقِ يُجعل فيه الشيء، وقيل: شبه الخزانة الصغيرة. المفهم ٥/٤٢٦ .

(٤) التمهيد ١/٣٠٢ ، وما سلف بن حاصرتين منه.

(٥) سلف في بداية المسألة الخامسة.

(٦) سلف ص٢٢٣ من هذا الجزء.

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٠٩٠)، والبخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧): (٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الخامسة.

عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تُبصران، وأُذنان تسمعان، ولسانٌ ينطقُ يقول: إنّي وُكِّلتُ بثلاثٍ: بكلِّ جبارٍ عنيد، وبكلِّ مَن دعا مع الله إلهاً آخرَ وبالمصوِّرين» قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح[1]؛ وفي البخاريِّ ومسلمٍ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون»[2]: يدلُّ على المنع من تصوير شيءٍ، أيِّ شيءٍ كان. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النحل: ٦٠] على ما تقدَّم بيانُه فاعْلَمْه.

الثامنة: وقد استُثْنِيَ من هذا الباب لُعَبُ البنات، لِمَا ثبت عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ تزوَّجها وهي بنتُ سبعِ سنين، وزُفَّتْ إليه وهي بنتُ تسعٍ ولُعَبُها معها، ومات عنها وهي بنتُ ثمان عشرةَ سنةً. وعنها أيضاً قالت: كنتُ ألعبُ بالبنات عند النبيِّ ﷺ، وكان لي صواحبُ يلعبنَ معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمِعن منه، فيُسَرِّبُهنَّ إليَّ فيلعبن معي. خرَّجهما مسلم[3]. قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك، وحاجةِ البنات حتى يتدرَّبنَ على تربية أولادهنّ. ثم إنه لا بقاءَ لذلك، وكذلك ما يُصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاءَ له، فرُخِّص في ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾[4] قال ابنُ عرفة: الجواب[5] جمعُ الجابية، وهي

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وهو عند أحمد (٨٤٣٠). قوله: عُنُق، أي: طائفة وجانب من النار. الترغيب والترهيب ٣/٦٢٨ .

(٢) صحيح البخاري (٥٩٥٠)، وصحيح مسلم (٢١٠٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٨).

(٣) في صحيحه (١٤٢٢): (٧١)، و(٢٤٤٠). والحديث الثاني عند أحمد (٢٤٢٩٨)، والبخاري (٦١٣٠). قولها: ينقمعن، أي: ينقبضن ويستَتِرْن حياءً من النبي ﷺ وهيبة له. وقولها: يُسَرِّبُهنّ، أي: يُرسلهن ويؤنسهنَّ حتى يزول عنهنَّ ما كان أصابهنَّ.

(٤) في (ظ): كالجوابي، وهي قراءة ابن كثير من السبعة وصلاً ووقفاً، وأثبت الياء في الوصل ورش وأبو عمرو. السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٢ .

(٥) في (م): الجوابي.

حُفيرةٌ كالحوض. وقال مجاهد: كحياض الإبل[١]. وقال ابن القاسم عن مالك: كالجَوْبَة من الأرض[٢]، والمعنى متقارب، وكان يقعد على الجَفْنَة الواحدة ألفُ رجل.

النَّحّاس[٣]: «وجِفَانٍ كالجَوابي» الأَوْلَى أن تكون بالياء، ومَن حَذَفَ الياء قال: سبيلُ الألف واللامِ أن تدخل على النكرة فلا يغيِّرها عن حالها، فلمَّا كان يقال: جوابٍ، ودخلت الألف واللام؛ أُقرَّ على حاله، فحذف[٤] الياء. وواحدُ الجوابي جابية، وهي القِدرُ العظيمة، والحوضُ العظيم الكبير الذي يُجْبَى فيه الشيءُ، أي: يجمع، ومنه: جَبَيْتُ الخَراجَ، وجَبَيتُ الجراد، أي: جعلت[٥] الكساءَ فجمعته فيه. إلَّا أنَّ لَيْثًا روى عن مجاهد قال: الجَوابي جمعُ جَوبة. والجَوبةُ: الحفرةُ الكبيرة تكون في الجبل [يجتمع] فيها ماء المطر.

وقال الكسائيُّ: جَبَوْتُ الماءَ في الحوض وجَبَيْتُه، أي: جمعتُه، والجابية: الحوضُ الذي يُجبى فيه الماء للإبل، قال:

تَروحُ على آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كجابيةِ الشيخِ العراقيِّ تَفْهَقُ[٦]

ويروى أيضاً:

نَفَى الذمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ ... كجابيةِ السَّيحِ ... ...

ذكره النَّحّاس[٧].

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩٠ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في إعراب القرآن: بحذف.

(٥) في (ظ): بسطت.

(٦) البيت للأعشى ميمون بن قيس، وسلف عجزه ٨/ ٤٥١ ، وذكره بهذه الرواية الطبري ١٩/ ٢٣٢ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٢ ، وهو في الديوان ص ٢٧٥ برواية: نفى الذم عن آل المحلق... ، وستأتي. قوله تفهقُ، أي: تمتلئ.

(٧) في معاني القرآن ٥/ ٣٩٩ . والسَّيح: الماء الجاري على وجه الأرض، أما رواية: الشيخ، فيقال: =

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ قال سعيد بن جُبير: هي قدورُ النحاس تكون بفارس. وقال الضحَّاك: هي قدورٌ تُعمل من الجبال[١]. غيرُه: قد نُحِتَتْ من الجبال الصُّمِّ ممَّا عَمِلَتْ له الشياطين، أَثَافِيها[٢] منها منحوتةٌ هكذا من الجبال.

ومعنى «رَاسِيَاتٍ»: ثوابت، لا تُحملُ ولا تحرَّك لعِظَمها. قال ابن العربي[٣]: وكذلك كانت قدورُ عبد الله بنِ جُدعان، يُصعَدُ إليها في الجاهلية بسُلَّم، وعنها عبَّر طرفةُ بن العبد بقوله:

كالجَوَابي لاتَني مُتْرَعَةً لِقِرَى الأَضْيافِ أو للمحتَضِرْ[٤]

قال ابن العربيّ: ورأيتُ برباطِ أبي سعيد قدورَ الصوفيةِ على نحوِ ذلك، فإنَّهم يطبخون جميعاً، ويأكلون جميعاً من غير استئثارِ واحدٍ منهم على أحد.

قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ قد مضى معنى الشكرِ في «البقرة»[٥] وغيرها. وروي أنَّ النبيَّ ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآيةَ ثم قال: «ثلاثٌ مَن أُوتِيهنَّ فقد أوتيَ مثلَ ما أوتي آلُ داود» قال: فقلنا: ما هنّ؟ فقال: «العدلُ في الرضا والغضب، والقَصْدُ في الفقر والغنى، وخشيةُ اللهِ في السرِّ والعَلَانية». خرجه الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة[٦].

وروي أنَّ داودَ عليه السلام قال: «يا ربّ، كيف أُطيقُ شكركَ على نعمك،

= أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غير معين. المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ ، وينظر ما سلف ٨/ ٤٥١ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٦ ، وفيه: ... تعمل من حجارة الجبال.

(٢) جمع أُثْفِيَّة، وهي الحجر يوضع عليه القدر. القاموس (ثفي).

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٥٩٠ ، وما قبله منه.

(٤) ديوان طرفة ص ٥٦ ، والخزانة ٩/ ٣٧٩ ، وفيه: لاتني، أي: لا تفتر ولا تزال، والقِرى: القيام بالضيف، والمحتضر: النازل على الماء.

(٥) ٢/ ١٠٤ وما بعدها.

(٦) نوادر الأصول ص ١٣٠ .

وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمةٌ لك» فقال: «يا داودُ، الآن عَرَفْتني»[١]. وقد مضى هذا المعنى في سورة إبراهيم[٢]، وأنَّ الشُّكرَ حقيقتُه: الاعترافُ بالنعمة للمنعِم، واستعمالُها في طاعته. والكُفْرانُ: استعمالُها في المعصية. وقليلٌ مَن يفعلُ ذلك؛ لأنَّ الخير أقلُّ من الشرّ، والطاعة أقلُّ من المعصية، بحسَبِ سابقِ التقدير[٣].

وقال مجاهد: لمَّا قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ قال داودُ لسليمانَ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ذكر الشكر فاكْفِني صلاةَ النهارِ أَكْفِكَ صلاةَ الليل، قال: لا أَقْدِرُ، قال: فاكفني؛ قال الفاريابيُّ: أراه قال: إلى صلاة الظهر. قال: نعم، فكفاه[٤].

وقال الزُّهريُّ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ أي: قولوا: الحمدُ لله[٥].

و«شُكْرًا» نصب على جهة المفعول، أي: اعملوا عملاً هو الشكر. وكأنَّ الصلاة والصيامَ والعباداتِ كلَّها هي في نفسها الشكرُ إذ سدَّت مَسَدَّه[٦]، ويبيِّنُ هذا قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ وهو المرادُ بقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقد قال سفيان بن عُيَيْنَةَ في تأويل قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ [لقمان: ١٤]: أنَّ المرادَ بالشكر الصلواتُ الخمس[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وأورده بنحوه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر (١١).

(٢) ١٢/ ١٠٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٥٩١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠١، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٢٨ وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نَصْبُه على الحال، أي: اعملوا بالطاعات في حال شكر منكم لله على هذه النعم.

(٧) سلف عند تفسير الآية (١٤) من سورة لقمان.

وفي «صحيح» مسلم[١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقومُ من الليل حتى تَفَطَّرَ قدماه، فقالت له عائشةُ رضي الله عنها: أتصنعُ هذا وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم من ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ فقال: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا». انفرد بإخراجه مسلم[٢].

فظاهِرُ القرآنِ والسنَّةِ أنَّ الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصارِ على عمل اللسان، فالشكرُ بالأفعال عملُ الأركان، والشكر بالأقوال عملُ اللسان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ يَحتَمِلُ أن يكون مخاطبةً لآلِ داود، ويحتمل أن يكون مخاطبةً لمحمدٍ ﷺ[٣]؛ قال ابن عطية: وعلى كلٍّ وجهٍ ففيه تنبيهٌ وتحريض. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول: اللهمَّ اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردتُ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾. فقال عمر ﷺ: كلُّ الناسِ أَعْلَمُ منك يا عمر[٤]!.

وروي أنَّ سليمانَ عليه السلام كان يأكل الشعير، ويُطْعِم أهلَه الخُشْكارَ، ويُطعم المساكين الدَّرْمَك[٥]. وقد قيل: إنه كان يأكل الرماد ويَتَوَسَّدُه، والأولُ أصحّ، إذ الرمادُ ليس بقُوت.

ورويَ أنه ما شبع قَطُّ، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف إنْ شبعتُ أن أَنسى الجياع[٦]. وهذا من الشكر ومن القليل، فتأمَّلْه، والله أعلم.

---

(١) برقم (٢٨٢٠).

(٢) كذا قال المصنف، وقد أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، وهو عند أحمد (٢٤٨٤٤).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠ (والكلام منه): لآل محمد ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٢٢.

(٥) قطعة من رسالة مطولة للحسن البصري أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، وقد أخرجها الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٣٨ - ٣٤٤. والخُشْكار: الخبز الأسمر غير النقي. والدَّرْمَك: الدقيق الأبيض. المعجم الوسيط (خشكر) و(درمك).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٠.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فلمَّا حَكَمْنا على سليمانَ بالموت حتى صار كالأمرِ المفروغِ منه ووقع به الموتُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وذلك أنه كان متَّكِئًا على المِنْسأة ـ وهي العصا بلسان الحَبَشةِ في قول السُّدّي(١). وقيل: هي بلغة اليمن؛ ذكره القشيريُّ ـ فمات كذلك وبقي خافيَ الحال إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا؛ لأكلِ الأَرَضَةِ إياها، فعُلم موتُه بذلك، فكانت الأَرَضَةُ دالَّةً على موته، أي: سبباً لظهورِ موته. وكان سأل الله تعالى ألَّا يعلموا بموته حتى تمضيَ عليه سنة.

واختلفوا في سبب سؤاله لذلك على قولين:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، قال: كانت الجنُّ تدَّعي عِلْمَ الغيب، فلمَّا مات سليمان عليه السلام وخفي موتُه عليهم «تبينت الإنس أن الجن لو كانوا(٢) يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين». ابن مسعود: أقام حولاً والجنُّ تعملُ بين يديه، حتى أكلت الأَرَضَةُ مِنْسَأتَهُ فسقط(٣). ويُروى أنه لمَّا سقط لم يُعلم منذ [كم] مات، فوُضِعت الأَرَضةُ على العصا، فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم حَسَبوا على ذلك، فوجدوه قد مات منذُ سنة(٤).

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٨ .

(٢) في (خ) و(د) و(م): تبينت الجن أن لو كانوا. والخبر أخرجه الطبري ١٩/ ٢٤٢ - ٢٤٣ ، وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٠ وفيهما: ... فلما خر تبينت الجن، وفي بعض القراءة: فلما خرَّ تبينت الإنس أن الجن لو كانوا ...، وهي قراءة شاذة كما سيرد.

(٣) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣ .

(٤) تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٢ ، وعرائس المجالس ص ٣٢٩ - ٣٣٠ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

وقيل: كان رؤساء الجنِّ سبعةً، وكانوا مُنْقادِينَ لسليمان عليه السلام، وكان داودُ عليه السلام أسَّس بيت المقدس، فلمَّا مات أوصى إلى سليمانَ في إتمامِ مسجدِ بيتِ المقدس، فأمر سليمانُ الجنَّ به، فلمَّا دنت وفاتُه قال لأهله: لا تُخبروهم بموتي حتى يُتموا بناءَ المسجد، وكان قد بقي لإتمامه سنة[١].

وفي الخبر: أنَّ ملَك الموت كان صديقه، فسأله عن آية موته فقال: أن تخرج من موضع سجودك شجرةٌ يقال لها: الخروب[٢]، فلم يكن يومٌ يصبح فيه إلَّا تَنبتُ في بيت المقدس شجرةٌ فيسألُها: ما اسمُك؟ فتقول الشجرةُ: اسمي كذا وكذا، فيقول: ولأيِّ شيءٍ أنت؟ فتقول: لكذا وكذا، فيأمر بها فتُقْطَع، ويَغرِسُها في بستان له، ويأمر بكَتْبِ منَافِعها ومَضَارِّها واسمِها وما تَصْلُحُ له في الطبِّ، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذ رأى شجرةً نبتت بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة[٣]، قال: ولأيِّ شيء أنت؟ قالت: لخرابِ هذا المسجد، فقال سليمان: ما كانَ الله ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وَجْهِكِ هلاكي وهلاكُ بيتِ المقدس! فنزعها وغرسها في حائطه، ثم قال: اللهمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. وكانت الجنُّ تُخبِرُ الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غدٍ. ثم لبس كَفَنَه وتحنَّط، ودخل المحرابَ وقام يصلِّي، واتكأ على عصاه على كرسيِّه، فمات ولم تعلم الجنُّ إلى أن مضت سنةٌ، وتمَّ بناءُ المسجد[٤].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤١ ، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٤ .

(٢) في (م): الخرنوبة.

(٣) في (م): الخرنوبة.

(٤) أخرجه من قوله: فلم يكن يوم يصبح فيه ...، الطبري ١٩/ ٢٤١ عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلُقِّي من علماء أهل الكتاب وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

قال أبو جعفر النحَّاس: وهذا أحسنُ ما قيل في الآية[(١)]، ويدلُّ على صحته الحديثُ المرفوع؛ روى إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيُّ اللّهِ سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلَّى رأى شجرةً نابتةً بين يديه، فيسألُها: ما اسمُك؟ فإن كانت لغرسٍ غُرست، وإن كانت لدواءٍ كُتبت، فبينما هو يصلِّي ذاتَ يومٍ إذا شجرةٌ نابِتةٌ بين يديه، فقال: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب[(٢)]؛ فقال: لأيِّ شيءٍ أنتِ؟ فقالت: لخرابِ هذا البيت، فقال: اللَّهُمَّ عَمِّ عن الجنِّ موتي حتى تعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيب. فنَحَتَها عصاً، فتوكَّأ عليها حولاً وهم لا يعلمون، فسقطت، فعلم الإنسُ أنَّ الجنَّ لا يعلمون الغيبَ، فنظروا مقدارَ ذلك فوجدوه سنة[(٣)]».

وفي قراءةِ ابن مسعود وابن عباس: «تَبَيَّنَت الإنْسُ أنْ لو كان الجنُّ يَعلمون الغَيبَ»[(٤)].

وقرأ يعقوبُ في رواية رُوَيْس: ﴿تُبُيِّنَتِ الجنُّ﴾ غير مسمَّى الفاعلِ[(٥)]. ونافع

---

(١) قال النحاس هذا الكلام في معاني القرآن ٥/ ٤٠٣ عقب قول قتادة: كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون الغيب، فلما مات سليمان ولم تعلم به الجن، تَبَيَّنَت الجنُّ للإنس أنهم لا يعلمون الغيب. وقد سلف قريباً.

(٢) في (ظ): الخروب، وفي (م): الخرنوبة.

(٣) أخرجه البزار (٢٣٥٥ - كشف)، والطبري ١٩/ ٢٤٠ من طريق إبراهيم بن طهمان به. وأخرجه البزار (٢٣٥٦) من طريق سفيان بن عيينة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه موقوفاً.
قال البزار: لا نعلم أسنده إلا إبراهيم، وقد رواه جماعة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً.
قلنا: وأخرجه الحسين المروزي في زياداته على الزهد لابن المبارك (١٠٧٢) من طريق سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوفاً أيضاً. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: والأقرب أن يكون موقوفاً.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٥ ، وإعراب القرآن له ٣/ ٣٣٨ . وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٨ بلفظ: «تبيَّنتِ الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب».

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠ .

وأبو عمرو: ﴿تأكلُ مِنْساتَه﴾ بألفٍ بين السين والتاء من غير همز. والباقون بهمزةٍ مفتوحةٍ موضعَ الألف، لغتان، إلَّا أنَّ ابن ذَكْوان أَسْكَنَ الهمزةَ تخفيفاً[١].

قال الشاعر في ترك الهمزة:

إذا دَبَبْتَ على المِنْساةِ من كِبَرٍ ... فقد تَباعَدَ عنكَ اللَّهْوُ والغَزَلُ[٢]

وقال آخر فَهمَزَ وفتح:

ضربنا بِمِنْسَأةٍ وَجْهَهُ ... فصار بذاك مهيناً ذليلاً[٣]

وقال آخر:

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلٍ لا أباكَ ضربتَه ... بمنسأةٍ قد جَرَّ حبلُكَ أحْبُلَا[٤]

وقال آخر فسكَّن همزها:

وقائمٍ قد قام من تُكَأَتِهْ ... كقومةِ الشيخِ إلى مِنْسَأْتِهْ[٥]

وأصلُها: من نَسَأْتُ الغنمَ، أي: زَجَرتُها وسُقْتُها، فسمِّيت العصا بذلك لأنه يُزجر بها الشيءُ ويساق، وقال طَرفَة:

أمُونٍ كألواح الإران نَسَأْتُها ... على لاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجُدِ[٦]

---

(١) السبعة ص ٥٢٧، والتيسير ص ١٨٠. ولم يذكر ابن مجاهد ابن ذكوان. وقال الداني: وحمزة إذا وقف جعلها بين بين على أصله.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٢٣٩، والمحتسب ٢/ ١٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١١.

(٣) ذكره الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢١، وفيه: ضربت، بدل: ضربنا.

(٤) البيت لأبي طالب كما في المنمق لابن حبيب ص ١٤٢، والأوائل للعسكري ١/ ٥٤، والبيان والتبيين ٣/ ٣٠، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، والمنصف لابن جني ٢/ ٥٩، ولفظ المصنف موافق لما في مجاز القرآن، وفي باقي المصادر اختلافٌ يسير.

(٥) ذكر أبو عمرو الداني في التيسير ص ١٨٠ برواية:

صريع خمر قام من وَكَأَتِهْ ... كقومة الشيخ ...

(٦) ديوان طرفة ص ٢٢. قوله: أمونٍ، أي: يُؤْمَن عِثَارها، ويعني ناقته. والإران: تابوت يحمل فيه الميت، شبَّهها بألواح الإران لشدتها. نسأتها: ضربتها بالمنسأة، وهي العصا، ويروى: نَصَأْتُها، وهما واحد. =

فسكَّن هَمْزَها. قال النحاس[١]: واشتقاقُها يدلُّ على أنَّها مهموزةٌ؛ لأنَّها مشتقةٌ من نَسَأْتُه، أي: أخَّرته ودفعته، فقيل لها: مِنْسأة؛ لأنها يُدفع بها الشيءُ ويؤخَّر، وقال مجاهدٌ وعكرمةُ: هي العصا. فَمَن[٢] قرأ: «مِنْساتَه» أبدل من الهمزة ألفًا، فإن قيل: البدلُ من الهمزة قبيحٌ جدًّا، وإنَّما يجوز في الشعر على بُعْدٍ وشذوذ، وأبو عمرو ابن العلاء لا يغيبُ عنه مثلُ هذا لا سيما وأهلُ المدينة على هذه القراءة. فالجوابُ على هذا: أنَّ العربَ استعملتْ في هذه الكلمةِ البدلَ ونَطَقوا بها هكذا، كما يقع البدلُ في غير هذا ولا يقاسُ عليه، حتى قال أبو عمرو: ولستُ أدري ممن هو[٣]، إلَّا أنَّها غيرُ مهموزة؛ لأنَّ ما كان مهموزاً فقد يُتركُ همزُه، وما لم يكن مهموزاً لم يَجُزْ همزُه بوجه.

المهدوِيُّ: ومَن قرأ بهمزةٍ ساكنةٍ فهو شاذٌّ بعيد؛ لأنَّ هاءَ التأنيثِ لا يكونُ ما قَبْلَها إلَّا متحرِّكاً أو ألفاً، لكنَّه يجوزُ أن يكون مِمَّا سُكِّنَ من المفتوح اسْتِخْفافاً، ويجوز أن يكون لَمَّا أبدل الهمزةَ ألفاً على غير قياسٍ، قَلَبَ الألفَ همزةً كما قَلَبوها في قولهم: العَأْلَم والخأتم،

وروي عن سعيد بن جبير: «مِن» مفصولة «سَأَتِه» مهموزة مكسورة التاء[٤]؛ فقيل: إنَّه مِن سِئَةِ القوسِ في لغة مَن همزها، وقد روي همزُ سِيَةِ القوسِ عن رؤبة. قال

= واللاحب: الطريق الذي قد أُثِّر فيه، وهو بمعنى ملحوب، ويجوز أن يكون على بابه، كأنه يَلحب أخفاف الإبل، أي يؤثر فيها. والبرجد: كساء مخطط. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٦٠، وللتبريزي ص٨١.

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٧.

(٢) في النسخ: ثم، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٣) في إعراب القرآن: مم هي.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٦، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢١ دون نسبة. ويجوز فيها فتح السين وكسرها، مثل: الضَّعَة والضِّعة، ومعناها: من طرف عصاه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٧. والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

الجوهريُّ[(١)]: سِيَةُ القوس ما عُطِفَ من طرفيها، والجمع سِيَات، والهاءُ[في الواحد] عِوَضٌ من الواو، والنسبةُ إليها سِيَويّ، قال أبو عبيدة: كان رؤبةُ يهمزُ سِيَة القوس، وسائر العرب لا يهمزونها.

وفي دابة الأرض قولان: أحدهما: أنَّها الأَرَضَة؛ قاله ابن عباس ومجاهدٌ وغيرهما. وقد قرئ: «دابةُ الأَرَضِ» بفتح الراء، وهو واحدُ الأَرَضة؛ ذكره الماورديّ[(٢)]. الثاني: أنَّها دابةٌ تأكل العيدانَ.

قال الجوهريّ[(٣)]: والأَرَضَةُ ـ بالتحريك ـ: دُوَيبَّةٌ تأكلُ الخشب؛ يقال: أَرِضَت الخشبةُ تُؤرَضُ أَرْضاً ـ بالتسكين ـ فهي مأروضةٌ: إذا أكلتها.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ قال الزجَّاج[(٤)]: أي: تبيَّنت الجنُّ موتَه. وقال غيره: المعنى: تبيَّن أمرُ الجنِّ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]. وفي التفسير بالأسانيد الصِّحاح عن ابن عباس قال: أقام سليمانُ بن داودَ عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يُعلم بموته وهو متكئٌ على عصاه، والجنُّ منصرفةٌ فيما كان أمَرَها به، ثم سقط بعد حول [وقرأ ابن عباس:] «فلمَّا خَرَّ تبيَّنت الإنسُ أنْ لو كان الجنُّ يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين» وهذه القراءةُ من ابن عباس على جهة التفسير[(٥)].

وفي الخبر: أنَّ الجنَّ شكرت ذلك للأَرَضَة، فأينما كانت يأتونها بالماء، قال

---

(١) في الصحاح: (سيا)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤٤١ والقول الثاني بعده منه أيضاً. وقوله: وهو واحد الأرضة، خطأ. والصواب: وهو جمع الأرضة، كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١١ . وقول ابن عباس ومجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) في الصحاح (أرض).

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

السُّدِّيُّ: والطينِ، ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب، فإنَّه مما يأتيها به الشياطين شكراً، وقالت: لو كنتِ تأكلين الطعامَ والشرابَ لأتيناك بهما[١].

و«أنْ» في موضع رفعٍ على البدل من الجنِّ، والتقدير: تبيَّن أمرُ الجنِّ، فحذف المضاف، أي: تبيَّن وظَهَر للإنس وانكشف لهم أمرُ الجنِّ أنَّهم لا يعلمون الغيب. وهذا بدلُ الاشتمال. ويجوز أن تكون في موضع نصبٍ على تقدير حذف اللام[٢]. و«لَبِثُوا»: أقاموا. و«الْعَذَابِ الْمُهِينِ»: السُّخْرة والحمل والبنيان وغير ذلك.

وعمِّر سليمان ثلاثاً وخمسين سنةً، ومدَّةُ ملكِه أربعون سنة، فملك وهو ابنُ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً، وابتدأ في بنيان بيتِ المقدس وهو ابنُ سَبْعَ عَشْرةَ سنة[٣]. وقال السُّدِّيّ وغيره: كان عُمر سليمان سبعاً وستِّين سنة، ومَلَكَ وهو ابنُ سبع عشرةَ سنة، وابتدأ في بنيان بيت المقدس وهو ابنُ عشرين سنةً، وكان ملكه خمسين سنة.

وحكيَ أنَّ سليمان عليه السلام ابتدأ بنيانَ بيتِ المَقْدِسِ في السنة الرابعة من ملكه، وقرَّب بعد فراغه منه اثني عَشَرَ ألفَ ثورٍ، ومئةً وعشرين ألفَ شاة، واتخذ اليومَ الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهمَّ أنت وهبتَ لي هذا السلطانَ وقوَّيتني على بناء هذا المسجد، اللهمَّ فأَوْزِعْنِي شُكْرَك على ما أنعمتَ عليَّ، وتوفَّني على مِلَّتك، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتني، اللهمَّ إنِّي اسألك لمَن دخل هذا المسجد خمسَ خصال: لا يدخله مذنبٌ دخل للتوبة إلَّا غفرتَ له وتبتَ عليه، ولا خائفٌ إلا أمَّنته، ولا سقيمٌ إلَّا شَفَيْتَه، ولا فقيرٌ إلا أغنيتَه. والخامس: ألَّا تصرفَ نظرك عمَّن دخله حتى يخرج منه، إلَّا مَن أراد إلحادًا أو ظلماً، يا ربَّ العالمين؛ ذكره الماورديّ[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٢٤٢، وعرائس المجالس ص ٣٣٠، والنكت والعيون ٤/ ٤٤١. والنكارة في الخبر ظاهرة.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥.

(٣) عرائس المجالس ص ٣٣٠.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٤٢.

قلت: وهذا أصحُّ ممَّا تقدَّم أنه لم يفرغ بناؤه إلَّا بعد موته بسنة، والدليلُ على صحة هذا ما خرَّجه النسائيُّ وغيره بإسنادٍ صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ سليمانَ بن داود لمَّا بَنَى بيتَ المقدسِ سأل الله تعالى خِلَالاً ثلاثةً: حُكْمًا يصادفُ حكمه، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فأُوتيَه، وسأل الله تعالى حين فرغ من بنائه المسجدَ ألَّا يأتيه أحدٌ لا يَنْهَزُه إلَّا الصلاةُ فيه أن يخرج من خطيئته كيومَ وَلَدَتْهُ أمُّه». وقد ذَكَرنا هذا الحديثَ في «آل عمران»[١] وذَكَرْنا بناءَه في «سبحان»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مساكنهم آية﴾ قرأ نافع وغيره بالصَّرْفِ والتنوين على أنه اسمُ حَيٍّ، وهو في الأصل اسمُ رجلٍ، جاء بذلك التوقيفُ عن النبيِّ ﷺ[٣].

روى الترمذيُّ قال: حدَّثنا أبو كُريب وعبد بن حُميد قالا: حدَّثنا أبو أسامة، عن الحسن بن الحكم النَّخَعيِّ قال: حدَّثنا أبو سَبْرَةَ النّخعيُّ، عن فَروةَ بن مُسيك المُرَاديِّ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، أَلَا أقاتلُ مَن أدبَرَ من قومي بمن أَقْبَلَ منهم؟ فَأَذِنَ لي في قتالهم وأمَّرني، فلمَّا خرجتُ من عنده سأل عنِّي: «ما فَعَلَ الغُطَيفيُّ»؟ فأُخبِرَ أنِّي قد سِرتُ، قال: فأرسل في أَثري فردَّني، فأتيتُه وهو في نَفَرٍ من أصحابه، فقال: «ادعُ القومَ، فَمَن أَسْلَمَ منهم فاقْبَلْ منه، ومَن لم يُسْلِم فلا تَعْجَل حتى أُحْدِثَ إليك». قال: وأُنزل في «سبأ» ما أُنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما

---

(١) ٥/ ٢٠٧، وهو في سنن النسائي (المجتبى) ٢/ ٣٤. قوله: لا ينهزه، أي: لا يدفعه. وقوله: حكماً يصادف حكمه، أي: يوافق حكم الله تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد. قاله السندي.

(٢) ١٣/ ١٥.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨، وقرأ بالصرف والتنوين نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص ٤٨٠، والتيسير ص ١٦٧.

سبأٌ؟ أرضٌ أو امرأةٌ؟ قال: «ليس بأرضٍ ولا بامرأةٍ، ولكنه رجلٌ ولَد عشرةً من العرب، فتَيامَنَ منهم ستةٌ وتَشاءَمَ منهم أربعةٌ، فأمَّا الذين تَشَاءموا فَلخْمٌ وجُذامٌ وغَسَّانُ وعاملةُ. وأمَّا الذين تَيامَنوا فالأَزْدُ والأَشْعرِيُّون وحِمْيرٌ وكِنْدةُ ومَذْحِجٌ وأنمارٌ» فقال رجل: يا رسولَ الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خَثْعَمٌ وبَجِيلةٌ». ورويَ هذا عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[١].

وقرأ ابن كثير[٢] وأبو عمرو: «لِسَبَأَ» بغيرِ صَرْفٍ، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيارُ أبي عبيد، واستدلَّ على أنه اسمُ قبيلةٍ بأنَّ بعده: «في مساكنهم»؛ النحاس[٣]: ولو كان كما قال: لَكان: في مساكنها. وقد مضى في «النمل» زيادةُ بيانٍ لهذا المعنى[٤].

وقال الشاعر في الصَّرْف:

الــواردون وتَــيْــمٌ فــي ذُرى ســبــأٍ ... قد عضَّ أعناقَهَمْ جِلْدُ الجواميسِ[٥]

وقال آخر في غير الصرف:

مــن سَبَــأَ الــحــاضــريــن مــأرِبَ إذ ... يَــبْــنُــون مــن دون سَيْــلِــه الــعَــرِمــا[٦]

وقرأ قُنْبُل وأبو حَيْوَةَ والجَحْدَريُّ: «لِسَبَأْ»؛ بإسكان الهمزة[٧].

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٢٤٠٠٩/ ٨٩)، وأخرجه مختصراً أبو داود (٣٩٨٨).
قوله: فتيامن، أي: أخذوا ناحية اليمن وسكنوا بها. وقوله: تشاءم، أي: قصدوا جهة الشام. تحفة الأحوذي ٩/ ٨٩ . والغُطَيْفي نسبة إلى غطيف، وهو بطن من مُراد. الأنساب للسمعاني ٩/ ١٦٣ . وحديث ابن عباس أخرجه أحمد (٢٨٩٨).

(٢) في رواية البزي. السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨ ، وما قبله منه.

(٤) عند تفسير الآية (٢٢) منها.

(٥) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ١٣٠ برواية:

تــدعــوك تــيــم وتــيــم فــي قــرى ســبــأٍ ... قد عض أعناقهم جلد الجواميس

والبيت برواية المصنف في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٨ .

(٦) البيت للنابغة الجعدي أو أمية بن أبي الصلت، كما في سيرة ابن هشام ١/ ١٤ ، وطبقات الفحول ١/ ١٢٦ . وهو في ديوان النابغة الجعدي ص ١٣٤ برواية: أو سبأ ...

(٧) السبعة ص ٤٨٠ ، والتيسير ص ١٦٧ عن قنبل.

﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ قراءةُ العامَّةِ على الجمع[١]، وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم؛ لأنَّ لهم مساكنُ كثيرةٌ وليس بمسكنٍ واحد.

وقرأ إبراهيم وحمزةُ وحفصٌ: ﴿مَسْكَنِهِمْ﴾ موحَّداً، إلَّا أنَّهم فتحوا الكاف[٢]. وقرأ يحيى والأعمشُ والكسائيُّ موحَّداً كذلك، إلَّا أنَّهم كَسروا الكاف[٣].

قال النحاس[٤]: ومساكنُ في هذا أَبْيَنُ؛ لأنه يجمع اللفظَ والمعنى، فإذا قلت: «مسكنهم» كان فيه تقديران: أحدهما: أن يكون واحداً يؤدِّي عن الجمع. والآخر: أن يكون مصدراً لا يثنَّى ولا يُجمع، كما قال الله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة:٧]. فجاء بالسمع موحَّدًا. وكذا: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥]. و«مَسْكِن» مثل مسجد، خارجٌ عن القياس، ولا يوجد مثلُه إلَّا سماعاً.

﴿ءَايَةٌ﴾ اسمُ كان، أي: علامةٌ دالَّة على قدرة الله تعالى على أنَّ لهم خالقاً خَلَقَهم، وأنَّ كلَّ الخلائقِ لو اجتمعوا على أن يُخرجوا من الخشبة ثمرةً لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناسِ الثمار وألوانها وطُعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدلُّ على أنَّها لا تكون إلَّا من عالِمٍ قادِر.

﴿جَنَّتَانِ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من «آية»، ويجوز أن يكون خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ، فيوقَفُ على هذا الوجه على «آية» وليس بتمام[٥]. قال الزجَّاج[٦]: أي: الآيةُ جَنَّتان،

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠.

(٢) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن حمزة وحفص. وإبراهيم هو النخعي، وذكرها عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٣) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨٠ عن الكسائي. وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ عن يحيى (وهو ابن وثاب) والأعمش.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٩.

(٥) وهو وقف حسن كما ذكر الأشموني في منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ص ٢٢٦.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨.

فجنتان رفع لأنه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ. وقال الفرَّاء: رُفع تفسيراً للآية[١]، ويجوز أن تنصب «آية» على أنَّها خبرُ كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن[٢].

قال عبد الرحمن بن زيد: إنَّ الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنَّهم لم يَرَوا فيها بعوضةً قطُّ، ولا ذباباً ولا بُرغُوثاً ولا قملةً ولا عقرباً ولا حيةً، ولا غيرَها من الهوامّ، وإذا جاءهم الرَّكْبُ في ثيابهم القملُ والدوابُّ، فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب[٣].

وقيل: إنَّ الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مِكْتَلٌ، فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسَّها بيدها؛ قاله قتادة[٤].

وروي أنَّ الجنتين كانتا بين جبلين باليمن. قال سفيان: وُجد فيهما قصران مكتوبٌ على أحدهما: نحن بنينا سَلْحِين[٥] في سبعين خريفاً دائبين، وعلى الآخَر مكتوبٌ: نحن بَنَينا صِرْواح، مَقِيل ومَراح، فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله.

قال القشيريُّ: ولم يُرِدْ جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يَمنةً ويَسرةً، أي:

---

(١) أي على البدل منها، كما ذكره عنه الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٢٥ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٨ .

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ١٩/ ٢٤٧ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ ، والطبري ٩/ ٢٤٧ . والمِكْتل: الزَّبيل الكبير، قيل: إنه يسع خمسة عشر صاعاً، كأن فيه كتلاً من التمر. النهاية (كتل).

(٥) في (د): سايحين، وفي (خ) و(ظ): سالحين، وسقط هذا الموضع من (ز). ووقع في مطبوع النكت والعيون ٤/ ٤٤٣ (والكلام منه): سالمين. والمثبت من (م) وهو موافق لما ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٢٣٥ وقال: سلحين بفتح أوله وسكون ثانيه ثم حاء مهملة مكسورة ... ، حصن عظيم بأرض اليمن.

كانت بلادهم ذاتَ بساتين وأشجارٍ وثمار، تستتر الناس بظلالها.

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم: كلوا، ولم يكن ثَمَّ أمرٌ، ولكنَّهم تمكَّنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم: قد أباح الله تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة. ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: من ثمار الجنتين ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ يعني على ما رزقكم.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ هذا كلامٌ مستأنَفٌ، أي: هذه بلدةٌ طيبةٌ، أي: كثيرةُ الثمار. وقيل: غيرُ سَبْخةٍ. وقيل: طيبةٌ ليس فيها هوامٌّ لطيبِ هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء[(١)].

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: والمنعِمُ بها عليكم ربٌّ غفورٌ يَسْتُر ذنوبَكم، فجمع لهم بين مغفرةِ ذنوبهم وطيبِ بلدِهم، ولم يجمع ذلك لجميع خَلْقِه. وقيل: إنَّما ذكر المغفرة مشيراً إلى أنَّ الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول في هذا في أوّل «البقرة»[(٢)]. وقيل: إنَّما امتَنَّ عليهم بعَفْوِه عن عذابِ الاستئصالِ بتكذيب مَن كذَّبوه من سالِفِ الأنبياء، إلى أن استداموا الإصرارَ فاستؤصِلوا.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ يعني عن أمره واتِّباعِ رسله بعد أن كانوا مسلمين. قال السُّدِّيُّ ووهبٌ: بعث إلى أهل سبأ ثلاثةَ عَشَرَ نبيًّا فكذَّبوهم. قال القُشيرِيُّ: وكان لهم رئيس يلقَّب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كان له ولدٌ فمات، فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر، ولهذا يقال: أَكْفَرُ مِن حِمار. وقال الجوهريّ[(٣)]: وقولُهم: أَكْفَرُ من حِمار، هو رجلٌ من عادٍ؛

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤٤ .

(٢) ١/ ٢٧٢ .

(٣) في الصحاح (حمر).

مات له أولادٌ، فكفر كفراً عظيماً، فلا يمرُّ بأرضه أحدٌ إلَّا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلَّا قتله.

ثم لمَّا سال السيلُ بجنَّتيهم تفرَّقوا في البلاد، على ما يأتي بيانُه، ولهذا قيل في المثل: «تفرَّقوا أيادي سَبَا»[١]. وقيل: الأَوْسُ والخزرجُ منهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ والعرِمُ فيما روي عن ابن عباس: السَّدُّ[٢]، فالتقدير: سَيلَ السَّدِّ العَرِم. وقال عطاء: العَرِمُ اسمُ الوادي[٣].

قتادة: العرمُ وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مَسَايلُ من الأودية، قيل: من البحر وأوديةِ اليمن، فردَموا رَدْمًا بين جبلين، وجعلوا في ذلك الرَّدْمِ ثلاثةَ أبوابٍ؛ بعضُها فوقَ بعضٍ، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قَدْرِ حاجاتهم؛ فأَخْصَبوا وكَثُرت أموالُهم، فلمَّا كذَّبوا الرسل سلَّط الله عليهم الفأر فنقب الردم[٤].

قال وَهْب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرِّبُ سدَّهم فأرةٌ، فلم يتركوا فُرجةً بين صخرتين إلَّا ربطوا إلى جانبها هرَّةً، فلمَّا جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرةٌ حمراءُ إلى بعض تلك الهِرَرِ فساوَرَتْها حتى استأخرتْ عن الصخرة، ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها، ونقبت السَّدَّ حتى أَوْهَنته للسيل وهم لا يدرون، فلمَّا جاء السيل دخل تلك الخللَ حتى بلغ السدَّ، وفاض الماء على أموالهم، فغرَّقها ودفن بيوتَهم[٥].

وقال الزجَّاج[٦]: العَرِمُ اسمُ الجُرَذ الذي نَقَبَ السِّكْرَ عليهم، وهو الذي يقال له:

---

(١) أي: تفرَّقوا تفرُّقاً لا اجتماع بعده. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٧٥ . وسيأتي ص٣٠٢ من هذا الجزء.

(٢) لم نقف عليه عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٥١ عن مجاهد.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٠٦ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٥١ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩١ دون نسبة .

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٢ - ٢٥٣ . والخبر من الإسرائيليات.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٨ .

الخُلد ـ وقاله قتادةُ أيضًا[١] ـ فنُسب السيلُ إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابيّ أيضاً: العَرِم من أسماء الفأر[٢].

وقال مجاهد وابن أبي نَجيح: العَرِمُ ماءٌ أحمرُ أرسله الله تعالى في السَّدِّ، فشقَّه وهدمه[٣].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ العَرِمَ المطرُ الشديد. وقيل: العَرْم بسكون الراء. وعن الضحَّاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام[٤].

وقال عمرو بن شُرَحْبيل: العَرِمُ المُسَنَّاة[٥]. وقاله الجوهريُّ[٦]؛ قال: ولا واحدَ لها من لفظها، ويقال: واحدُها عَرِمة.

وقال محمد بن يزيد: العَرِم كلُّ شيء حاجزٍ بين شيئين، وهو الذي يسمَّى: السِّكْر، وهو جَمعُ عَرِمة. النحَّاس[٧]: وما يجتمع من مطرٍ بين جبلين وفي وجهه مُسَنَّاةٌ فهو العَرِم، والمُسَنَّاةُ هي التي يسمِّيها أهلُ مصرَ الجسر[٨]، فكانوا يفتحونها إذا

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٣ .

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٣٩١ .

(٣) علقه البخاري كما في الفتح ٨/ ٥٣٥ عن مجاهد بأطول منه، ووصله الفريابي كما في تغليق التعليق ٤/ ٢٨٨ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وتتمته: وحَفَرَ الوادي، فارتفعتا عن الجَنْبَتَيْنِ، وغاب عنهما الماء، فيبستا، ولم يكن الماء الأحمر من السدّ، ولكن كان عذاباً أرسله الله عليهم من حيث شاء. اهـ. وذكر الحافظ ابن حجر عن القاضي عياض أنه في رواية: فَبَثَقَهُ، بدل: فشقَّه؛ قال: وهو الوجه، تقول: بثقتُ النهر: إذا كسرتَه لتصرفه عن مجراه.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٥ ؛ إلا أنه ذكر قول ابن عباس دون نسبة، وذكره دون نسبة كذلك النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤ . وأخرج الطبري ١٩/ ٢٥٢ عن ابن عباس قال: سيل العرم: الشديد.

(٥) علقه البخاري أيضاً كما في الفتح ٨/ ٥٣٥ . قال الحافظ: قال ابن التين: المراد بالمسناة ما يبنى في عرض الوادي ليرتفع السيل ويفيض على الأرض.

(٦) في الصحاح (عرم).

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣٨ ، وما قبله منه، وقول محمد بن يزيد بنحوه في الكامل ٣/ ١٢١٤ .

(٨) في (د) و(ظ): الحبس. والحِبس: حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه، كي يشرب القوم ويسقوا أموالهم. اللسان (حبس).

شاؤوا، فإذا رَوِيَتْ جنّتاهم سدُّوها.

قال الهَرَويُّ: المُسَنَّاة: الضفيرة تُبنَى للسيل تردُّه، سمِّيت مسنَّاةً لأن فيها مفاتحُ الماء، ورُوي أنَّ العَرِمَ سدٌّ بَنَتْه بِلْقِيسُ صاحبةُ سليمانَ عليه الصلاة والسلام، وهو المسنَّاةُ بلغة حِمير، بَنَتْه بالصَّخْر والقارِ، وجعلت له أبواباً ثلاثةً بعضُها فوق بعض، وهو مشتقٌّ من العَرامة وهي الشدَّة، ومنه: رجلٌ عارم، أي: شديد. وعَرَمْتُ العظمَ أعْرِمُه وأعرُمه عَرْماً: إذا عَرَقْتَه[١]، وكذلك عَرَمت الإبلُ الشجرَ، أي: نالت منه. والعُرام بالضم: العُرَاق من العَظْمِ والشجر. وتعرَّمتُ العَظْمَ: تَعرَّقته. وصبيٌّ عارِمٌ بَيِّنُ العُرام ـ بالضم ـ أي: شَرِس. وقد عَرَم يَعْرُم ويَعْرِم عَرَامةً ـ بالفتح ـ، والعَرِم: العارم؛ عن الجوهريّ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿أُكُلِ خَمْطٍ﴾ بغير تنوينٍ مضافاً[٣]. قال أهلُ التفسير والخليلُ: الخَمْطُ: الأراك[٤]. الجوهري[٥]: الخَمْطُ ضَرْبٌ من الأراك له حَمْلٌ يؤكل. وقال أبو عبيدة[٦]: هو كلُّ شجرٍ ذي شوكٍ فيه مرارةٌ. الزجاج[٧]: كلُّ نبتٍ فيه مرارةٌ لا يمكنُ أكلُه.

المبرِّد: الخمطُ: كلُّ ما تغيَّر إلى ما لا يُشتَهَى، واللبنُ خَمْطٌ إذا حَمُض. والأَوْلى عنده في القراءة: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بالتنوين على أنه نعتٌ لـ «أُكُلٍ»، أو بَدَلٌ منه؛ لأنَّ الأُكُلَ هو الخمطُ بعينه عنده. فأمَّا الإضافةُ فبابُ جوازِها أن يكون تقديرُها:

---

(١) عرق العظم: أكل ما عليه من اللحم. القاموس (عرق).

(٢) في الصحاح (عرم).

(٣) السبعة ص ٥٢٨ ، والتيسير ص ١٨٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣٩ .

(٥) في الصحاح (خمط).

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠٨ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٩ .

ذواتي أُكُلِ حموضةٍ، أو أُكُلِ مرارة[1]. وقال الأخفش: والإضافةُ أحسنُ في كلام العرب، نحو قولهم: ثوبُ خَزٍّ[2].

والخمط [من] اللبن: الحامض. وذكر أبو عبيد: أنَّ اللبن إذا ذهب عنه حلاوةُ الحلَبِ ولم يتغيَّر طعمُه فهو سامِط، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامِطٌ وخَمِيط، فإن أخذ شيئاً من طعمٍ فهو مُمَحَّل، فإذا كان فيه طعمُ الحلاوة فهو قُوهة[3].

وتَخمَّط الفحل: هَدَر. وتَخمَّط فلانٌ، أي: تغضَّب وتكبَّر. وتخمَّط البحر، أي: الْتَطم. وخَمَطْتُ الشاةَ أَخْمِطُها خَمْطًا: إذا نزعتَ جلدَها وشويتَها، فهي [خَميطٌ، فإن نزعتَ شعرها وشويتَها فهي] سَميطٌ. والخَمْطة: الخمرُ التي قد أَخذتْ رِيح الإدراك كريحِ التُّفاح ولم تُدْرِك بعدُ. ويقال: هي الحامِضة؛ قاله الجوهريُّ[4]. وقال القُتَبيُّ في «أدب الكاتب»: يقال للحامضة: خَمْطة، ويقال: الخَمْطةُ التي قد أخذت شيئًا من الريح، وأنشد:

عُقَارٌ كماءِ النِّيْءِ ليستْ بخَمْطَةٍ ولا خَلَّةٍ يَكْوي الشُّروبَ شِهابُها[5]

﴿وَأَثْلٍ﴾ قال الفرَّاء: هو شبيهٌ بالطَّرْفاء، إلَّا أنه أعظمُ منه طولاً[6]، ومنه اتُّخذ

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠.

(٢) الحجة للفارسي ٦/ ١٥.

(٣) في النسخ عدا (ظ): فوهة، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في الغريب المصنف لأبي عبيد ١/ ٩٥، والصحاح (خمط)، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه. قال صاحب اللسان (قوه): ورواه الليث: فُوهة بالفاء، وهو تصحيف. اهـ. والقُوهة: اللبن إذا تغير طعمه قليلاً وفيه حلاوة الحلب. الصحاح (قوه).

(٤) في الصحاح (خمط)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أدب الكاتب ص ١٦٧، والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ص ٧٢. يقول: هي في لون ماء اللحم النَّيء، وليست كالخمطة التي لم تدرك بعد، ولا كالخَلَّة التي جاوزت القِدر حتى كادت تصبح خلًّا. اللسان (خلل). وقال شارح الديوان: قوله: يكوي الشُّروب، يقول: لها مضٌّ شديد مثل النار. والشروب: النَّدامَى.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩.

مِنبَرُ النبيِّ ﷺ[١]. وللأَثْل أصولٌ غليظةٌ يتَّخذُ منه الأبواب، وورقُه كورق الطَّرْفاء، الواحدةُ: أَثْلَة، والجمع: أثلات.

وقال الحسن: الأَثْلُ: الخشب. قتادة: هو ضَرْبٌ من الخشب يشبه الطَّرْفاءَ رأيتُه بفَيْد[٢]. وقيل: هو السَّمُر[٣].

وقال أبو عبيدة: هو شجر النُّضَار[٤]. النُّضار: الذهب. والنُّضار: خشبٌ يعمل منه قِصَاعٌ، ومنه: قَدَحٌ نُضَار[٥].

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ قال الفَرَّاء: هو السَّمُر؛ ذكره النحاس[٦]. وقال الأزهريُّ[٧]: السِّدْر من الشجر سِدران: بَرِّيٌّ لا يُنتفع به ولا يصلح وَرَقُه للغَسُول، وله ثمرٌ عَفِصٌ لا يؤكل، وهو الذي يسمَّى الضَّال. والثاني: سِدْرٌ ينبتُ على الماء وثمرُه النَّبْق، وورقُه غَسولٌ يشبه شجر العُنَّاب.

قال قتادة: بينما شجرُ القوم من خيرِ شجرٍ إذ صيَّره الله تعالى من شرِّ الشجر بأعمالهم[٨]. فأهلك أشجارهم المثمرةَ وأنبتَ بدلها الأراك والطَّرْفاء والسِّدْر.

القُشَيْريُّ: وأشجارُ البوادي لا تسمَّى جنةً وبستاناً، ولكنْ لمَّا وقعت الثانيةُ في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٠) مختصراً، والبخاري (٣٧٧)، ومسلم (٣٤٤) مطولاً من حديث سهل بن سعد ﷺ. ولفظه عنه أحمد: كان من أثل الغابة، يعني منبر النبيِّ ﷺ. ووقع عند مسلم: ... من طَرْفاءِ الغابة.

(٢) فيد: بليدةٌ في نصف طريق مكة من الكوفة. معجم البلدان ٤/ ٢٨٢ .

(٣) جمع سَمُرة بضم الميم: من شجر الطَّلْح. اللسان (سمر).

(٤) النُّضَار: أَثْلٌ وَرْسيُّ اللون بغور الحجاز. المعجم الوسيط (نضر) .

(٥) من قوله: النُّضار الذهب، إلى هذا الموضع ليس في (د) و(ظ). وقوله: قدح نُضار، قال الجوهري في الصحاح (نضر): يضاف ولا يضاف.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠ ، وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ .

(٧) في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٨ .

مُقابَلةِ الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]. ويَحتمِلُ أن يرجع قولُه: «قَلِيلٍ» إلى جملةِ ما ذُكر من الخَمْط والأَثْل والسِّدْر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ أي: هذا التبديلُ جزاءُ كُفْرِهم. وموضعُ «ذلك» نصبٌ، أي: جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿وهل يُجَازَى إلَّا الكَفُورُ﴾ قراءةُ العامة: «يُجَازَى» بياءٍ مضمومة وزايٍ مفتوحة، «الكَفورُ» رفعًا على ما لم يُسمَّ فاعلُه. وقرأ يعقوبُ وحَفْصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «نُجازِي» بالنون وكسرِ الزاي، «الكفورَ» بالنصب[(١)]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأنَّ قبله: «جَزَيناهم» ولم يقل: جُوزُوا. النحاس[(٢)]: والأمرُ في هذا واسعٌ، والمعنى فيه بيِّن، ولو قال قائل: خَلَقَ الله تعالى آدمَ ﷺ من طين، وقال آخر: خُلق آدمُ من طين، لكان المعنى واحداً.

مسألة: في هذه الآيةِ سؤالٌ ليس في هذه السورة أشدُّ منه، وهو أن يقال: لم خصَّ الله تعالى المجازاةَ بالكَفور، ولم يذكر أصحابَ المعاصي؟ فتكلَّم العلماء في هذا؛ فقال قومٌ: ليس يُجازَى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلامُ والإهلاك إلَّا مَن كفر[(٣)]. وقال مجاهد: يجازَى بمعنى: يعاقَب[(٤)]، وذلك أن المؤمن يكفِّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازَى بكلِّ سوءِ عَمِلَه؛ فالمؤمنُ يُجْزَى ولا يُجازَى لأنه يثاب. وقال طاوس: هو المناقشةُ في الحساب[(٥)]، وأمَّا المؤمنُ فلا يناقش الحساب.

وقال قُطْرُب خلافَ هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى:

---

(١) السبعة ص ٥٢٨، والتيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.
(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٠، وقوله: الاصطلام، أي: الاستئصال. الصحاح (صلم).
(٤) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٥٩.
(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٢٩.

على مَن كَفَر بالنعم وعَمِلَ بالكبائر. النحاس[١]: وأَوْلَى ما قيل في هذه الآيةِ وأَجَلُّ ما رُوِيَ فيها: أنَّ الحسن قال: مِثْلاً بِمِثْلٍ. وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن حُوسِبَ هَلَك» فقلتُ: يا نبيَّ الله، فأين قولُه جلّ وعزّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]؟ قال: «إنَّما ذلك العَرْضُ، ومَن نُوقِشَ الحسابَ هَلَكَ»[٢]. وهذا إسنادٌ صحيح، وشَرْحُه: أنَّ الكافر يُكافأ على أعماله ويحاسَبُ عليها ويحبط ما عَمِلَ من خير؛ ويبيِّن هذا قولُه تعالى في الأوّل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ وفي الثاني: ﴿وهل يُجَازَى إِلَّا الكَفُورُ﴾ ومعنى «يُجَازَى»: يكافأ بكلِّ عَمَلٍ عَمِله، ومعنى «جَزَيْنَاهم»: وفَّيناهم، فهذا حقيقةُ اللغة، وإن كان «جازى» يقع بمعنى «جَزَى» مَجازاً[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشام[٤]. والقُرَى التي بورك فيها: الشامُ والأُرْدُنُّ وفِلَسْطين. والبركة: قيل: إنَّها كانت أربعةَ آلافٍ وسبعَ مئة قريةٍ؛ بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويَحتَمِلُ أن يكون: بارَكْنَا فيها بكثرة العدد[٥].

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام[٦]. وقال قتادة: معنى «ظَاهِرَةً»: متَّصلةً على الطريق، يغدون فيَقِيلون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية[٧].

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٠، وما قبله منه.
(٢) أخرجه أحمد (٢٤٢٠٠)، والبخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١.
(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤١٠.
(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٤٤.
(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٦٢.
(٧) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠.

وقيل: كان على كلِّ مِيلٍ قريةٌ بسوق، وهو سببُ أَمْنِ الطريق.

قال الحسن: كانت المرأة تخرج ومعها مِغْزَلُها وعلى رأسها مِكْتَلُها، ثم تَلْتهي بمغزلها فلا تأتي بيتَها حتى يمتلئ مِكْتَلها من كلِّ الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك[١].

وقيل: «ظَاهِرَةً» أي: مرتفعةً؛ قاله المبرِّد[٢]. وقيل: إنما قيل لها: «ظَاهِرَةً» لظهورها، أي: إذا خرجْتَ عن هذه ظَهَرتْ لك الأخرى، فكانت قرًى ظاهِرةً، أي: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهِر، أي: معروف.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا السيرَ بين قُراهم وبين القرى التي باركنا فيها سَيْرًا مقدَّراً من منزلٍ إلى منزلٍ، ومن قريةٍ إلى قرية. الفراء[٣] أي: جعلنا بين كلِّ قريتين نصفَ يوم، حتى يكون المقيلُ في قرية والمبيتُ في قرية أخرى. وإنَّما يبالغ الإنسان في السير لعُدْمِ الزادِ والماء ولخوف الطريق، فإذا وجد الزادَ والأمنَ لم يحمل على نفسه المشقَّةَ ونزل أينما أراد.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها، أي: في هذه المسافة، فهو أمرُ تمكين، أي: كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمرٌ بمعنى الخبر، وفيه إضمارُ القول.

﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ظَرْفان ﴿ءَامِنِينَ﴾ نصب على الحال. وقال: «لياليَ وأيَّامًا» بلفظِ النكرة تنبيهاً على قِصَر أسفارهم، أي: كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادةُ: كانوا يسيرون غيرَ خائفين ولا جِيَاعٍ ولا ظِماءٍ[٤]. وكانوا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٣٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وهو في تفسير الطبري ١٩/ ٦٢ ، دون قوله: فكان بين الشام واليمن كذلك.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤١ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٩ . وقوله: الفراء، ليس في (د) و(م).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١١ ، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ .

يسيرون مسيرةَ أربعةِ أشهرٍ في أمانٍ لا يحرِّكُ بعضُهم بعضاً، ولو لقي الرجلُ قاتِلَ أبيه لم يحرِّكه[١].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ لمَّا بَطِروا وطغَوْا وسئموا الراحةَ ولم يصبروا على العافية، تَمنَّوْا طولَ الأسفارِ والكَدْحَ في المعيشة، كقول بني إسرائيل: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ الآية [البقرة: ٦١]. وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأجابه الله تبارك وتعالى، وقُتل يومَ بدرٍ بالسيف صَبْرًا. فكذلك هؤلاء تبدَّدوا في الدنيا ومُزِّقوا كلَّ مُمزَّق، وجُعل بينهم وبين الشام فَلَواتٍ ومَفَاوِزَ يركبون فيها الرَّوَاحلَ ويتزوَّدون الأَزْوادَ.

وقراءةُ العامَّةِ: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على أنه نداءٌ مضاف، وهو منصوبٌ لأنه مفعولٌ به؛ لأنَّ معناه: نادَيْتُ ودعَوْت[٢]. ﴿بَـٰعِدْ﴾ سألوا المباعَدةَ في أسفارهم. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ محيْصِنٍ وهشامٌ عن ابن عامر: ﴿رَبَّنَا﴾ كذلك على الدعاء ﴿بعِّد﴾ من التبعيد[٣]. النحاس[٤]: وباعِدْ وبعِّدْ واحدٌ في المعنى، كما تقول: قارِبْ وقَرِّبْ.

وقرأ أبو صالح ومحمد ابن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب، ويُروى عن ابن عباس: ﴿رَبُّنا﴾ رفعاً ﴿باعَدَ﴾ بفتح العين والدال على الخبر[٥]،

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٤٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٢.

(٣) السبعة ص ٥٢٩، والتيسير ص ١٨١ عن ابن كثير وأبي عمرو وهشام.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢.

(٥) النشر ٢/ ٣٥٠ عن يعقوب، وهو من العشرة. والمحتسب ٢/ ١٨٩ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وأبي صالح ويعقوب وأبي رجاء وسلام والحسن ـ بخلاف ـ وابن أبي ليلى والكلبي.

تقديره: لقد باعَدَ ربُّنا بين أسفارنا، كأنَّ الله تعالى يقول: قَرَّبْنا لهم أسفارَهم فقالوا أَشَرًا وَبَطَرًا: لقد بُوعِدَتْ علينا أسفارُنا. واختار هذه القراءةَ أبو حاتم قال: لأنَّهم ما طلبوا التبعيدَ إنَّما طلبوا أقربَ من ذلك القربِ بَطَرًا وعُجْبًا مع كفرهم.

وقرأ يحيى بن يَعْمر وعيسى بن عمر؛ وتُروى عن ابن عباس: «ربُّنا بَعَّدَ بينَ أسفارِنَا» بشدِّ العين من غير ألف، وفسَّرها ابن عباس قال: شَكَوْا أنَّ ربَّهم باعَدَ بين أسفارهم[1].

وقراءةُ سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصريِّ: «ربَّنا بَعُدَ بَيْنُ أسفارِنا»، «رَبَّنَا» نداءٌ مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعُدَ بينُ أَسْفَارِنَا»، ورُفع «بينُ» بالفعل، أي: بعُدَ ما يتَّصلُ بأسفارنا[2].

وروى الفرَّاء وأبو إسحاقَ قراءةً سادسةً مثلَ التي قبلَها في ضمِّ العين إلَّا أنَّك تنصبُ «بينَ» على أنه ظرفٌ، وتقديره في العربية: بَعُدَ سيرُنا بينَ أسفارِنا. النحاس[3]: وهذه القراءاتُ إذا اختلفت معانيها لم يَجُزْ أن يقال: إحداها أجودُ من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكنْ خبَّر عنهم أنهم دَعَوْا ربَّهم أن يبعِّد بين أسفارهم بَطَرًا وَأَشَرًا، وخبَّر عنهم أنهم لمَّا فعل ذلك بهم خبَّروا به وشَكَوْا، كما قال ابن عباس.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: يُتحدَّث بأخبارهم، وتقديرُه في العربية: ذوي أحاديث .﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: لمَّا لَحِقَهم ما لَحِقَهُم تَفرَّقوا وتَمزَّقوا. قال الشعبيُّ: فلحقت الأنصارُ بيَثْرِبَ، وغسَّان بالشام، والأَسْدُ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤٢، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٨٩.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣، وما قبله منه. والقراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٠، وللزجاج ٤/ ٢٥٠. (وهو أبو إسحاق).

بعُمَان، وخُزاعةُ بتِهامة[١]، وكانت العرب تضربُ بهم المثلَ فتقول: تفرَّقوا أيدي سبا، وأيادي سبا، أي: مذاهبَ سبأ وطرقَها[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبَّار: الذي يصبرُ عن المعاصي، وهو تكثيرُ صابرٍ، تمدح بهذا الاسم. فإنْ أردتَ أنه صَبَر عن المعصية لم يُستعمل فيه إلَّا صبَّار عن كذا. ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ فيه أربعُ قراءات: قرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافع وأبو عمرو وابن كثير وابن عامر، ويروى عن مجاهد: ﴿ولقد صَدَقَ عليهم﴾ بالتخفيف ﴿إِبْلِيسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُ﴾ بالنصب[٤]، أي: في ظنِّه. قال الزجَّاج: وهو على المصدر، أي: صَدَقَ عليهم ظنًّا ظنَّه إذ صَدَق في ظنِّه[٥]. فنُصب على المصدر أو على الظَّرف.

وقال أبو عليٍّ: «ظنَّه» نصب لأنه مفعولٌ به، أي: صَدَق الظنَّ الذي ظنَّه؛ إذ قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦] وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢][٦]. ويجوزُ تعديةُ الصدق إلى المفعول به؛ ويقال: صَدَقَ الحديثَ، أي: في الحديث.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠ والطبري ١٩/ ٢٦٧ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤١٠ ، وسلف ٢٩٢ من هذا الجزء.

(٣) ٢/ ٦٥ و١٠٤ .

(٤) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ ، والنشر ٢/ ٣٥٠ . والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥١ - ٢٥٢ ، وفيه: وصدق في ظنه، بدل: إذ صدق ... ، والمعنى على هذا التأويل: أنه ظن بهم أنه إذا أغواهم اتبعوه، فوجدهم كذلك. حجة القراءات لابن زنجلة ص٥٨٩ .

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٠ .

وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثَّاب والأعمش وعاصم وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿صَدَّقَ﴾ بالتشديد ﴿ظَنَّهُۥ﴾ بالنصب[١] بوقوع الفعل عليه. قال مجاهد: ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ، فصدَّق ظنَّه[٢].

وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج: «صَدَقَ عليهم» بالتخفيف «إبليسَ» بالنصب «ظنُّه» بالرفع. قال أبو حاتم: لا وجهَ لهذه القراءةِ عندي، والله تعالى أعلم. وقد أجاز هذه القراءةَ الفرَّاءُ، وذكرها الزجاج، وجَعَلَ الظنَّ فاعلَ «صَدَق» و«إبليسَ» مفعولاً به، والمعنى: أنَّ إبليس سوَّل له ظنُّه فيهم شيئاً، فصدَق ظنُّه، فكأنه قال: ولقد صدَق عليهم ظنُّ إبليسَ[٣].

و«على» متعلِّقةٌ بـ «صدق»، كما تقول: صدقتُ عليك فيما ظَنَنْتُهُ بك، ولا تتعلَّق بالظنِّ لاستحالة تقدُّم شيءٍ من الصلة على الموصول[٤].

والقراءةُ الرابعة: «ولقد صَدَقَ عليهم إبليسُ ظنُّه» برفعِ إبليس والظنّ، مع التخفيف في «صَدَقَ» على أن يكون «ظنُّه» بدلاً من «إبليس»، وهو بدلُ الاشتمال[٥].

ثم قيل: هذا في أهل سبأ، أي: كَفَروا وغيَّروا وبدَّلوا بعد أن كانوا مسلمين، إلَّا قوماً منهم آمنوا برسلهم. وقيل: هذا عامٌّ، أي: صدق إبليسُ ظنَّه على الناس كلِّهم إلَّا مَن أطاع الله تعالى؛ قاله مجاهد[٦].

وقال الحسن: لمَّا أُهبط آدمُ عليه السلام من الجنة ومعه حوَّاءُ وهبط إبليس، قال

---

(١) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ ، وأخرج الطبري ١٩/ ٢٧٠ قول مجاهد بلفظ: ظنَّ ظنًّا، فاتَّبعوا ظنَّه.

(٣) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٠ ، وللزجاج ٤/ ٢٥٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٣ ، والقراءة في المحتسب ٢/ ١٩١ عن أبي الهجهاج والزهري.

(٤) المحتسب ٢/ ١٩١ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٧ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٩ .

(٦) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٥ .

إبليس: أمَا إذ أَصَبْتُ من الأبوين ما أَصَبْتُ فالذرِّيةُ أضعفُ وأَضْعفُ! فكان ذلك ظنًّا من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[١].

وقال ابن عباس: إنَّ إبليس قال: خُلقتُ من نارٍ، وخُلق آدمُ من طينٍ، والنارُ تُحرِقُ كلَّ شيءٍ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] فصدَّق ظنَّه عليهم[٢].

وقال زيد بن أسلَمَ: إنَّ إبليس قال: يا ربِّ، أرأيتَ هؤلاء الذين كرَّمتهم وشرَّفتهم وفضَّلتهم عليَّ، لا تَجدُ أكثرهم شاكرين، ظنًّا منه، فصدَّق عليه إبليس ظنَّه[٣].

وقال الكلبيُّ: إنَّه ظنَّ أنَّه إنْ أَغْواهُم أجابوه، وإن أضلَّهم أطاعوه، فصدق ظنه[٤].

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ قال الحسن: ما ضَرَبَهم بسوطٍ ولا بِعصاً، وإنَّما ظنَّ ظنًّا، فكان كما ظنَّ بوسوسته[٥].

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نصب على الاستثناء، وفيه قولان: أحدُهما: أنه يراد به بعضُ المؤمنين؛ لأنَّ كثيرًا من المؤمنينَ مَن يُذْنبُ وينقادُ لإبليسَ في بعض المعاصي، أي: ما سَلِمَ من المؤمنين أيضًا إلَّا فريقٌ، وهو المعنيُّ[٦] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. فأمَّا ابنُ عباسٍ فعنه أنه قال: هم المؤمنون كلُّهم[٧]، فـ «من» على هذا للتبيين لا للتبعيض.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٢٧٠.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٤٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٤، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ١٣٠، والطبري ١٩/ ٢٧١.

(٦) في (ظ): وهم المعنيون.

(٧) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٤.

فإن قيل: كيف عَلِمَ إبليسُ صِدْقَ ظنِّه وهو لا يَعْلَمُ الغيبَ؟

قيل له: لمَّا نَفَذَ له في آدمَ ما نَفَذَ، غَلَبَ على ظنِّه أنه يَنْفُذُ له مثلُ ذلك في ذرِّيَّته، وقد وقع له تحقيقُ ما ظنّ.

وجوابٌ آخرُ: وهو ما[1] أجيبَ به من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فأُعطيَ القوةَ والاستطاعة، فظنَّ أنَّه يملكهم كلَّهم بذلك، فلمَّا رأى أنه تاب على آدمَ، وأنه سيكون له نسلٌ يتبعونه إلى الجنة، وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] علم[2] أنَّ له تَبَعًا ولآدمَ تبعًا، فظنَّ أنَّ تَبَعَه أكثرُ من تَبَع آدم؛ لمَا وُضع في يديه من سلطان الشهوات، ووضعت الشهواتُ في أجواف الآدميين، فخرج على ما ظنَّ حيث نفخ فيهم وزيَّن في أعينهم تلك الشهوات، ومدَّهم إليها بالأماني والخدائع، فصدق عليهم الظن الذي ظنَّه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: لم يَقْهَرْهم إبليسُ على الكفر، وإنَّما كان منه الدعاءُ والتزيين. والسلطان: القوة، وقيل: الحُجَّة، أي: لم تكن له حُجَّةٌ يَستَتْبِعُهُم بها، وإنَّما اتَّبعوه بشهوةٍ وتقليدٍ وهَوَى نَفْسٍ، لا عن حجةٍ ودليل.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد علمَ الشهادة الذي يقع به الثوابُ والعقاب، فأمَّا الغيبُ فقد عَلِمَه تبارك وتعالى. ومذهبُ الفرَّاء[3] أنْ يكون المعنى: إلَّا لنعلم ذلك عندكم، كما قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [فصلت: ٤٧] أي: على قولكم[4] وعندكم.

---

(١) قبلها في (د) و(ظ): أن.

(٢) في النسخ الخطية: فعلم، والمثبت من (م).

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٤.

(٤) في (ظ): زعمكم.

وليس قولُه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ جوابَ ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ في ظاهره، إنَّما هو محمولٌ على المعنى، أي: وما جعلنا له عليهم سلطاناً إلَّا لنَعْلَمَ، فالاستثناء مُنْقَطِعٌ، أي: لا سلطانَ له عليهم ولكنَّا ابتليناهم بوسوسته لنَعْلَم، فـ «إلَّا» بمعنى لكنْ.

وقيل: هو متَّصلٌ، أي: ما كان له عليهم من سلطانٍ، غيرَ أنَّا سلَّطناه عليهم ليتمَّ الابتلاء.

وقيل: «كان» زائدة، أي: ومالَه عليهم من سلطان، كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: أنتم خيرُ أمَّة.

وقيل: لمَّا اتَّصل طرفٌ منه بقصةِ سبأ قال: وما كان لإبليسَ على أولئك الكفار من سلطان.

وقيل: وما كان له في قضائنا السابقِ سلطانٌ عليهم.

وقيل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾: إلَّا لنُظْهِر[1]، وهو كما تقول: النارُ تُحرِقُ الحطبَ، فيقول آخر: لا بل الحطبُ يُحرق النار. فيقول الأول: تعالَ حتى نجرِّب النارَ والحطب لنَعْلَم أيهما يُحرِقُ صاحبه، أي: لنُظهِر ذلك، وإن كان معلوماً لهم ذلك.

وقيل: إلَّا لتعلموا أنتم. وقيل[2]: أي: ليعلم أولياؤنا والملائكةُ، كقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: يحاربون أولياءَ الله ورسوله.

وقيل: أي: لنميز، كقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[3] وغيرها.

وقرأ الزُّهريُّ: «إلَّا لِيُعْلَمَ»، على ما لم يسمَّ فاعلُه[4].

---

(١) في (ظ): ليظهر (في الموضعين).

(٢) قبلها في (د): وقيل أي ليعلم على ما لم يسم فاعله. وهي قراءة كما سيرد.

(٣) ٢/ ٤٣٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص ١٢٢ ، والمحتسب ٢/ ١٢١ ، والكشاف ٣/ ٢٨٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧ .

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: إنه عالمٌ بكلِّ شيء. وقيل: يحفظ كلَّ شيء على العبد حتى يجازيَه عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مضى ذِكْرُهُ من أمر داودَ وسليمانَ وقصةِ سبأ من آثارِ قُدْرَتي، فقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين: هل عند شُركائِكم قدرةٌ على شيءٍ من ذلك. وهذا خطابُ توبيخٍ، وفيه إضمارٌ، أي: ادعوا الذين زعمتُم أنَّهم آلهةٌ لكم من دون الله لِتَنْفعَكم، أو لتدفع عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم، فإنهم لا يملكون ذلك[1]، و﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ما لله مِن هؤلاء مِن مُعينٍ على خَلْقِ شيء، بل الله المنفردُ بالإيجاد، فهو الذي يُعبَد، وعبادةُ غيرِه مُحال.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي: شفاعةُ الملائكةِ وغيرِهم ﴿عِندَهُۥٓ﴾ أي: عندَ الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ لذكر الله تعالى أولاً. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيّ: ﴿أُذِنَ﴾ بضمِّ الهمزةِ على ما لم يسمَّ فاعلُه[2]. والآذِنُ هو الله تعالى. و«مَن» يجوز أن ترجع إلى الشافِعِينَ، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: جُلِّي[3] عن قلوبهم الفزعُ. قُطْرُب:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥ .

(٢) السبعة ص ٥٢٩ ، والتيسير ص ١٨١ .

(٣) في (د) و(م): خلي، ولفظة: الفزع (الآتية) ليست في (ظ).

أُخرِجَ ما فيها من الخوف. مجاهد: كُشِفَ عن قلوبهم الغطاءُ يومَ القيامة[١]. أي: إنَّ الشفاعة لا تكون من أحدٍ من هؤلاء المعبودِينَ من دون الله، من الملائكة والأنبياء والأصنام، إلَّا أنَّ الله تعالى يأذنُ للأنبياء والملائكة في الشفاعة وهم على غايةِ الفزع من الله، كما قال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

والمعنى: أنه إذا أُذِنَ لهم في الشفاعة ووَرَدَ عليهم كلامُ الله فَزِعوا؛ لِمَا يقترن بتلك الحالِ من الأمر الهائل والخوفِ أن يقع في تنفيذ ما أُذِنَ لهم فيه تقصيرٌ، فإذا سُرِّيَ عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يُوْرِدون عليهم الوحيَ بالإذن: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: ماذا أمر الله به؟ فيقولون لهم: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ وهو أنْ أَذِنَ لكم في الشفاعة للمؤمنين ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فله أن يحكُم في عباده بما يريد. ثم يجوز أن يكون هذا إذناً لهم في الدنيا في شفاعة أقوام، ويجوز أن يكون في الآخرة.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلَّا لمن أَذِنَ له، ففَزِعَ لِمَا ورد عليه من الإذن تهيُّبًا لكلامِ الله تعالى، حتى إذا ذهب الفزعُ عن قلوبهم أجاب بالانقياد.

وقيل: هذا الفزعُ يكون اليومَ للملائكة في كلِّ أمرٍ يأمرُ به الربُّ تعالى، أي: لا تنفع الشفاعةُ إلَّا مِن الملائكة الذين هم اليومَ فَزِعون مُطيعون لِله تعالى، دون الجماداتِ والشياطين. وفي صحيح الترمذي عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا قضى الله في السماء أمرًا ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعانًا لقوله، كأنها[٢] سلسلةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: والشياطينُ بعضُهم فوقَ بعض» قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[٣].

---

(١) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٤٨ ، وأخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ١٩/ ٢٧٥ .

(٢) في (ظ): كأنه، وهو موافق لرواية البخاري على ما يأتي.

(٣) سنن الترمذي (٣٢٢٣)، وأخرجه البخاري (٤٨٠٠) مطولاً. قوله: خضعاناً بفتحتين، وفي رواية: =

وقال النوَّاس بن سمعان: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله إذا أراد أن يُوحيَ بالأمر تكلَّم بالوحي، أخذت السماوات منه رَجْفةٌ ـ أو [قال:] رِعْدةٌ ـ شديدةٌ خوفاً من الله تعالى، فإذا سمع أهلُ السماوات ذلك صَعِقوا، وخَرُّوا لله تعالى سُجَّدًا، فيكونُ أولَ مَن يَرْفَعُ رأسَه جبريل، فيكلِّمه الله تعالى ويقول له من وحْيه ما أراد، ثم يمرُّ جبريل بالملائكة، كلَّما مرَّ بسماءٍ سأله ملائكتُها: ماذا قال ربُّنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، قال: فيقولُ كلُّهم كما قال جبريلُ فينتهي جبريلُ بالوحي حيث أَمَرَه الله تعالى»(١).

وذكر البيهقيُّ عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال: كان لكلِّ قبيلٍ من الجنِّ مقعدٌ من السماء يستمعون منه الوحي، وكان إذا نزل الوحيُ سُمع له صوتٌ كإمرارِ السلسلةِ على الصَّفْوان، فلا ينزل على أهل سماءٍ إلَّا صَعِقوا، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العليُّ الكبير، ثم يقول: يكون العامَ كذا ويكون كذا. فتسمعه الجنُّ فيخبرون به الكهنة فتقول الكهنةُ للناس: يكون العامَ كذا وكذا، فيجدونه كذلك، فلمَّا بعث الله محمداً ﷺ دُحروا بالشُّهب، فقالت العرب حين لم تُخْبِرهم الجنُّ بذلك: هَلَكَ مَن في السماء، فجعل صاحب الإبل يَنحرُ كلَّ يومٍ بعيراً، وصاحبُ البقر ينحر كلَّ يومٍ بقرةً، وصاحبُ الغنم ينحر كلَّ يومٍ شاةً، حتى أسرعوا في أموالهم، فقالت ثَقيف وكانت أَعْقَل العرب: أيها الناس، أَمْسِكوا على أموالكم، فإنَّه لم يَمُتْ مَن في السماء، وإنَّ هذا ليس بانتثار، ألستُم تَرَوْنَ

= بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى خاضعين. قوله: كأنه (وهي رواية البخاري)، أي: الصوت المسموع مثل جر السلسلة من الحديد، على الصفوان الذي هو الحجر الأملس. ينظر الفتح ٨/ ٥٣٨ ، وتحفة الأحوذي ٩/ ٩٠ .

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٥)، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤ ، والطبري ١٩/ ٢٧٨ ، والآجري في الشريعة ص ٢٩٤ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٣٥)، وما بين حاصرتين من المصادر. وفي إسناده نعيم بن حماد، قال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً. وذكر أبو زرعة الدمشقي في تاريخه ١/ ٦٢١ أنه عرض هذا الحديث على عبد الرحمن بن إبراهيم (وهو دحيم) فقال: لا أصل له.

مَعالِمَكم من النجوم كما هي، والشمسَ والقمرَ والليلَ والنهار؟! قال: فقال إبليس: لقد حدث اليومَ في الأرض حَدَث، فائتوني مِن تربةِ كلِّ أرضٍ، فأتَوْه بها فجعل يَشَمُّها، فلمَّا شمَّ تربةَ مكةَ قال: مِن ها هنا جاء الحَدَث، فنصتوا فإذا رسولُ الله ﷺ قد بُعث[(١)]. وقد مضى هذا المعنى مرفوعاً مختصراً في سورة الحجر[(٢)]، ومضى القولُ أيضاً في رَمْيِهم بالشهب وإحراقِهم بها، ويأتي في سورة الجنِّ[(٣)] بيانُ ذلك إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنَّما يفزعون من قيام الساعة.

وقال الكلبيُّ وكعب: كان بين عيسى ومحمدٍ عليهما السلام فَتْرةٌ، خمسُ مئةٍ وخمسون سنةً لا يَجيءُ فيها الرسل، فلمَّا بعث الله تعالى محمداً ﷺ كلَّم الله تعالى جبريلَ بالرسالة، فلمَّا سمعت الملائكةُ الكلامَ ظنُّوا أنَّها الساعةُ قد قامت، فصَعِقوا ممَّا سمعوا، فلمَّا انحدر جبريلُ عليه السلام جعل يمرُّ بكلِّ سماءٍ فيكشفُ عنهم، فيرفعون رؤوسَهم ويقول بعضُهم لبعضٍ: ماذا قال ربكم؟ فلم يَدْروا ما قال، ولكنهم قالوا: قال الحقَّ وهو العليُّ الكبير، وذلك أنَّ محمداً عليه الصلاة والسلام عند أهل السماوات من أشراط الساعة[(٤)].

وقال الضحاك: إنَّ الملائكةَ المعقِّباتِ الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الربُّ تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سُمع لهم صوتٌ شديدٌ، فيحسبُ الذين هم أسفلُ من الملائكة أنه من أمر الساعة، فَيَخِرُّون سُجَّداً ويصعقون،

---

(١) لم نقف عليه عند البيهقي، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٥٢٦ - ٥٢٧ ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٦ وعزاه للبيهقي وابن أبي شيبة وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل. وهو من طريق حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وعطاء بن السائب اختلط، وفي سماع حماد بن سلمة منه قبل الاختلاط أو بعده خلاف.

(٢) ١٢/ ١٩٠ .

(٣) عند تفسير الآية (٩) منها.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ عن مقاتل والكلبي والسدي.

حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة[١].

وهذا تنبيهٌ من الله تعالى وإخبارٌ أنَّ الملائكة مع اصطفائهم ورِفْعَتِهِم لا يُمكِنُهم[٢] أنْ يَشْفَعوا لأحدٍ حتى يؤذنَ لهم، فإذا أُذن لهم وسَمعوا صَعِقوا وكانت هذه حالُهم، فكيف تشفع الأصنامُ، أو كيف تؤمِّلون أنتم الشفاعةَ ولا تعترفون بالقيامة.

وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كُشفَ الفزع عن قلوب المشركين عند[٣] نزول الموت، إقامةً للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحقَّ وهو العليُّ الكبير، فأَقرُّوا حين لا ينفعهم الإقرار[٤]، أي: قالوا: قال الحق.

وقراءةُ العامة: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾. وقرأ ابن عباس: ﴿فَزَّعَ عن قلوبهم﴾ مسمَّى الفاعل[٥]، وفاعلُه ضميرٌ يَرجِعُ إلى اسم الله تعالى. ومَن بناه للمفعول فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ رفعٍ، والفعلُ في المعنى لله تبارك وتعالى. والمعنى في القراءتين: أُزيل الفزعُ عن قلوبِهِم، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه[٦]. ومثله: أَشْكَاه: إذا أَزالَ عنه ما يشكُوه.

وقرأ الحسن: «فُزِع» مثلَ قراءةِ العامة، إلَّا أنه خفَّفَ الزاي، والجارُّ والمجرورُ

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨١ بنحوه من طريق الضحاك عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) في (م): لا يمكن.

(٣) قبلها في (د) و(ظ) و(م): قال الحسن ومجاهد وابن زيد في الآخرة، وسقط هذا الموضع من (خ) و(ز)، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ ، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٧ - ٥٥٨ ، إلا أنه لم يذكر مجاهداً، وأخرجه عن ابن زيد الطبري ١٩/ ٢٨١ . ولم نقف عليه عن مجاهد.

(٥) قرأ: «فَزَّع» بفتح الفاء والزاي ابن عامر من السبعة، والباقون بضم الفاء وكسر الزاي. السبعة ص٥٣٠ ، والتيسير ص ١٨١ . وذكرها عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٥ وزاد نسبتها لابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد.

(٦) ص٣٠٧-٣٠٨ من هذا الجزء.

في موضع رفعٍ أيضاً، وهو كقولك: انْصُرِفَ عن كذا إلى كذا. وكذا معنى «فُرِغَ» بالراء والغَيْنِ المعجَمَةِ والتخفيفِ غير مسمَّى الفاعل، رُويت عن الحسن أيضاً وقتادة[١]. وعنهما أيضًا «فَرغَ» بالراء والغين المعجمة مسمَّى الفاعل، والمعنى: فَرغَ الله تعالى قلوبَهم، أي: كَشَفَ عنها، أي: فَرغَها من الفزع والخوف، وإلى ذلك يَرجعُ البناء للمفعول على هذه القراءة. وعن الحسن أيضاً «فرّغ» بالتشديد[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لمَّا ذَكر أنَّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرةٍ ممَّا يَقدِرُ عليه الربُّ، قرَّر ذلك فقال: قُلْ يا محمدُ للمشركين: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مَن يخلقُ لكم هذه الأرزاقَ الكائنةَ من السماوات، أي: عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع. «وَالْأَرْضِ» أي: الخارجة من الأرض، عن الماء والنبات. أي: لا يمكنُهم أن يقولوا: هذا فِعْلُ آلهتنا. فيقولون: لا ندري. فقل: إنَّ الله يفعل ذلك، الذي يعلم ما في نفوسكم. وإن قالوا: اللهُ يرزقنا، فقد تقرَّرت الحجة بأنه الذي ينبغي أن يُعبد.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا على وجهِ الإنصاف في الحُجَّة، كما يقول القائل: أحدُنا كاذب، وهو يعلم أنه صادقٌ، وأنَّ صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحد، بل على أمرين متضادَّين، وأحدُ الفريقين مهتدٍ وهو نحن، والآخَرُ ضالٌّ وهو أنتم. فكذَّبهم بأحْسَنَ من تصريح التكذيب، والمعنى: أنتم الضالُّون حين أشركْتُم بالذي يرزقكم من السماوات والأرض.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١ - ١٩٢.

(٢) يعني بضم الفاء وبفتحها، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٥ - ٣٤٦، والمحتسب ٢/ ١٩١-١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، والدر المصون ٩/ ١٨٢.

«أو إياكم» معطوفٌ على اسم «إنَّ»، ولو عُطِفَ على الموضع لكان: «أو أنتم» ويكون «لَعلَى هُدًى» للأول لا غير. وإذا قلت: «أو إِيَّاكُمْ» كان للثاني أوْلى، وحَذَفْتَ من الأول، ويجوز أن يكون للأول، وهو اختيارُ المبرِّد. قال: ومعناه معنى قولِ المستَبْصِرِ لصاحبه على صحة الوعيدِ والاستظهارِ بالحجة الواضحة: أحدُنا كاذب، وقد عرف المعنى، كما تقول: أنا أَفْعَلُ كذا وتَفْعَلُ أنت كذا وأحدُنا مخطئ، وقد عرف أنه هو المخطئ، وهكذا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١].

و«أو» عند البَصْريين على بابها وليست للشك، لكنَّها على ما تستعملُه العرب في مثل هذا إذا لم يُرِدِ المخبِرُ أنْ يبين وهو عالمٌ بالمعنى. وقال أبو عبيدةَ والفرَّاءُ: هي بمعنى الواو، وتقديره: وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين[٢]، وقال جرير:

أثعلبةَ الفوارسَ أو رياحاً عدلْتَ بهم طُهَيَّةَ والرَّبابا[٣]

يعني: أثعلبة ورياحاً. وقال آخر:

فلمَّا اشتدَّ أمرُ الحربِ فينا تأمَّلْنا رياحاً أو رِزاما[٤]

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أي: اكتَسَبْنَا ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ﴾ نحن أيضاً

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٤٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٢، ونقله الفراء عن المفسرين وقال: وهو في المعنى كذلك، غير أن العربية على غير ذلك؛ لا تكون أو بمنزلة الواو. وكذلك قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٣، قال: وهذا في اللغة غير جائز، ولكنه في التفسير يؤول إلى هذا المعنى. قال الفراء: والمعنى في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم لضالون أو مهتدون، وهو يعلم أن رسوله المهتدي، وأن غيره الضال. وهذا كما تقول للرجل: إن أحدنا لكاذب، فكذبته تكذيباً غير مكشوف.

(٣) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٨١٤، والكتاب ١/ ١٠٢ و٣/ ١٨٣، ومجاز القرآن ٢/ ١٤٨، والخزانة ١١/ ٦٩. ووقع فيها جميعاً: والخِشَابا، بدل: والربابا. قال البغدادي: أي: عدلتَ هاتين القبيلتين بهاتين القبيلتين!.

(٤) لم نقف عليه.

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما أقصدُ بما أدعوكم إليه الخيرَ لكم، لا أنَّه ينالُني ضررُ كُفرِكم، وهذا كما قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] واللهُ مُجازي الجميع. فهذه آيةُ مُهادَنَةٍ ومُتارَكَةٍ، وهي منسوخةٌ بالسيف. وقيل: نزل هذا قبل آيةِ السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يريد يومَ القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي، فيثيبُ المهتدي ويعاقب الضالَّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: القاضي بالحقِّ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخَلْق. وهذا كلُّه منسوخ بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون «أَروني» هنا من رؤية القلب، فيكون «شركاءَ» المفعولَ الثالث، أي: عرِّفوني هذه الأصنامَ والأوثانَ التي جعلتموها شركاءَ لِلهِ عز وجل، هل شارَكَتْ في خَلْقِ شيء، فبيِّنوا ما هو؟ وإلَّا فَلِمَ تَعبُدونها؟ ويجوز أن يكونَ من رؤية البصر، فيكونُ «شركاءَ» حالاً[1].

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم. وقيل: إنَّ «كلَّا» ردٌّ لجوابهم المحذوفِ، كأنه قال: أَروني الذين ألحقتُم به شركاء. قالوا: هي الأصنامُ. فقال: كلَّا، أي: ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: وما أرسلناك

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٧ .

إلَّا للناس كافةً، أي: عامَّةً، ففي الكلام تقديمٌ وتأخير. وقال الزجَّاج: أي: وما أرسلناك إلَّا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ(١). والكافةُ بمعنى الجامع.

وقيل: معناه: كافًّا للناس، تَكفُّهم عمَّا هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام. والهاءُ للمبالغة. وقيل: أي: إلَّا ذا كافَّةٍ، فحذف المضاف، أي: ذا منعٍ للناس من أن يَشِذُّوا عن تبليغك، أو ذا منعٍ لهم من الكفر، ومنه: كفَّ الثوبَ؛ لأنَّه ضمَّ طرفيه.

﴿بَشِيرًا﴾ أي: بالجنة لمَن أطاع. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لِمَن كَفر. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عندَ الله، وهم المشركون، وكانوا في ذلك الوقتِ أكثرَ من المؤمنين عدداً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعني موعدكم لنا بقيام الساعة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فقال الله تعالى: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا يغرَّنَّكم تأخيرُه. والميعادُ: الميقات. ويعني بهذا الميعادِ وقتَ البعث. وقيل: وقتَ حضورِ الموت، أي: لكم قبلَ يومِ القيامة وقتٌ معيَّنٌ تموتون فيه، فتعلمون حقيقةَ قولي.

وقيل: أراد بهذا اليوم يومَ بدر؛ لأنَّ ذلك اليومَ كان ميعادَ عذابِهم في الدنيا في حُكْمِ الله تعالى.

وأجاز النحويون: «ميعادٌ يومٌ» على أن يكون «ميعادٌ» ابتداءً، و«يومٌ» بدلاً منه، والخبر: «لكم». وأجازوا «ميعادٌ يوماً» يكون ظرفاً، وتكون الهاء في «عنه» ترجع إلى «يوم». ولا يصح: «ميعادٌ يومَ لا تستأخرون» بغير تنوين وإضافة «يومَ» إلى ما بعده؛ إذا قدَّرتَ الهاء عائدةً على اليوم؛ لأنَّ ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أَجْلِ الهاء التي في الجملة. ويجوز ذلك على أن تكون الهاءُ للميعاد لا لليوم(٢).

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٤، وتعقبه أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨١ بأنَّ «كفَّ» ليس بمحفوظ أنَّ معناه: جمع. والمحفوظ في معناه: منع، والمعنى: إلا مانعاً لهم من الكفر. وينظر الدر المصون ٩/ ١٨٥.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٨، وقال السمين في الدر =

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد كفارَ قريش ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾ قال سعيدٌ عن قتادة: «ولا بالذي بين يديه» من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام[١]. وقيل: من [أمر] الآخرة. وقال ابن جُريج: قائلُ ذلك أبو جهل بن هشام[٢].

وقيل: إنَّ أهلَ الكتاب قالوا للمشركين: صفةُ محمدٍ في كتابنا فَسَلُوه، فلمَّا سألوه فوافَقَ ما قال أهلُ الكتاب، قال المشركون: لن نؤمنَ بهذا القرآنِ ولا بالذي قبلَه من التوراة والإنجيل، بل نكفرُ بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهلَ الكتاب ويَحتجُّون بقولهم، فظَهَر بهذا تَناقضُهم وقلةُ عِلْمِهم.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم في مآلهم[٣]، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوسون في موقف الحساب، يتراجعون الكلامَ فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أَخِلَّاءَ متناصِرين. وجوابُ «لو» محذوفٌ، أي: لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً.

= المصون ٩/ ١٨٩ : نصُّوا على أن الظرف إذا أضيف إلى جملة لم يَعُد منها إليه ضمير إلا في ضرورة. وقد قرئ بجميع ما سلف من وجوه. ينظر الكشاف ٣/ ٢٩٠ ، والبحر ٧/ ٢٨٢ .

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): فيما لهم.

ثم ذَكَر أيَّ شيءٍ يرجع من القول بينهم فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ وهم القادةُ والرؤساء: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أَغْوَيْتُمونا وأَضْلَلْتُمونا. واللغةُ الفصيحة: «لولا أنتم»، ومن العرب مَن يقول: «لولاكم» حكاها سيبويه؛ تكون «لولا» تَخْفضُ المضمَرَ، ويرتفع المُظْهَرُ بعدها بالابتداء ويُحذف خبره. ومحمد بن يزيد يقول: لا يجوزُ «لولاكم»؛ لأنَّ المضمَر عَقيبُ المُظْهَرِ، فلمَّا كان المظهرُ مرفوعاً بالإجماع، وجب أن يكون المضمَرُ أيضاً مرفوعاً[1].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ هو استفهامٌ بمعنى الإنكار، أي: ما رَدَدْناكم نحن عن الهدى، ولا أكرهناكم .﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين مصرِّين على الكفر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المكرُ أصلُه في كلام العرب: الاحتيالُ والخديعة. وقد مَكَرَ به يَمكُرُ، فهو ماكر ومَكَّار. قال الأخفش[2]: هو على تقدير: هذا مَكْرُ الليل والنهار. قال النحاس[3]: والمعنى ـ والله أعلم ـ: بل مكرُكم في الليل والنهار، أي: مُسَارَّتكم إيانا ودعاؤكم لنا إلى الكفر حَمَلَنا على هذا.

وقال سفيان الثوري: بل عملُكم في الليل والنهار. قتادة: بل مكرُكم بالليل والنهار صدَّنا[4]. فأُضيفَ المكر إليهما لوقوعه فيهما، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح:٤]، فأضاف الأَجَلَ إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف:٣٤] إذ كان الأجل لهم. وهذا من قَبِيلِ قولك: ليلُه قائمٌ ونهارُه صائم. قال المبرِّد: أي: بل مكرُكم الليل والنهار، كما تقول العرب: نهارُه

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٨ . وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٧٣ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٢ ، دون قوله: صدنا.

صائمٌ وليلُه قائمٌ، وأنشد لجرير:

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائمِ[١]

وأنشد سيبويه:

فنام ليلي وتجلَّى همِّي[٢]

أي: نمتُ فيه. ونظيره: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [يونس: ٦٧].

وقرأ قتادة: «بل مَكْرٌ الليلَ والنهارَ» بتنوين «مكر» ونصبِ «الليلَ والنهار»، والتقدير: بل مكرٌ كائنٌ في الليل والنهار، فحذف[٣].

وقرأ سعيد بن جبير: «بل مَكَرُّ» بفتح الكاف وشدِّ الراء بمعنى الكرور، وارتفاعُه بالابتداء والخبرُ محذوفٌ. ويجوز أن يرتفع بفعلٍ مُضْمَرٍ دلَّ عليه: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ»، كأنَّهم لمَّا قالوا لهم: أنحن صددناكم عن الهدى؟! قالوا: بل صدَّنا مَكَرُّ الليلِ والنهار[٤].

وروي عن سعيد بن جبير: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ قال: مرّ الليل والنهار عليهم فغفلوا[٥]. وقيل: غرَّهم[٦] طولُ السلامة فيهما كقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ [الحديد: ١٦].

---

(١) ديوان جرير بشرح ابن حبيب ٢/ ٩٩٣، وسلف ١١/ ٢٠، وهو في الكتاب ١/ ١٦٠، والمقتضب ٤/ ٣٣١ وفيه قول المبرد بنحوه، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩ وعنه نقل المصنف.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٤٩، ولم نقف عليه في الكتاب، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٤٢، والمقتضب ٤/ ٣٣١.

(٣) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: وإن شئت علقتهما بنفس «مكر»، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ . يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤-١٥].

(٤) المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤. قال ابن جني: المَكَرُّ والكرور: اختلاف الأوقات. وذكر القراءة أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩.

(٦) قوله: غرَّهم، من (ظ).

وقرأ راشد: «بل مَكرَّ الليل والنهار» بالنصب، كما تقول: رأيته مَقْدَمَ الحاجِّ، وإنَّما يجوز هذا فيما يُعرفُ؛ ولو قلتَ: رأيتُه مَقْدَمَ زيد، لم يَجز؛ ذكره النحاس[١].

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: أشباهاً وأمثالاً ونُظَراءَ. قال محمد بن يزيد: ندُّ فلانٍ فلان[٢]؟، أي: مثلُه. ويقال: نَدِيد، وأنشد:

أَتَيْماً تجعلون إلَيَّ نِدًّا ... وما تَيْمٌ لذي حَسَبٍ نَديدُ[٣]

وقد مضى هذا في «البقرة»[٤].

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي: أَظْهَرُوها، وهو من الأضداد؛ يكون بمعنى الإخفاءِ والإبداء؛ قال امرؤ القيس:

تجاوزتُ أَحْراساً وأهوالَ مَعْشرٍ ... عَلَيَّ حِراصٍ لو يُسِرُّون مَقْتَلِي[٥]

ويروى: «يُشِرُّون»[٦].

وقيل: «وأَسَرُّوا النَّدامَةَ» أي: تَبَيَّنت الندامةُ في أسرار وجوههم. وقيل: الندامةُ لا تظهر، وإنَّما تكون في القلب، وإنَّما يظهر ما يتولَّد عنها[٧]، حَسْبَمَا تقدَّم بيانُه في سورة يونس، وآل عمران[٨].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠ ، وقراءة راشد في المحتسب ٢/ ١٩٣ - ١٩٤ ، والبحر ٧/ ٢٨٣ . قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج. اهـ. وهو ابن نجيح الحِمَّانيُّ، أبو محمد البصري. التهذيب ١/ ٥٨٤ . وقد سلف ذكره ١/ ١٠٤ (حاشية).

(٢) في (م): فلان ند فلان.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٣١ ، وسلف ١١/ ٣٣٦ .

(٤) ١/ ٣٤٧ .

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٣ ، وفيه: يُشِرُّون، بدل: يسرُّون، وهما روايتان كما سيرد. ووقع في (م): حراصاً، وهو موافق لما في شرح المعلقات للنحاس ١/ ١٧ وللتبريزي ص ٣٧ ، وهو فيهما برواية:

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً ... عليَّ حراصاً لو يُشِرُّون مقتلي

(٦) وهي رواية الديوان كما سلف، قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ١٧ : مَن روى: يُسِرُّون، فيجوز أن يكون معناه عنده: يكتمون، ويجوز معناه: يظهرون. أما يُشِرُّون فمعناه يظهرون لا غير.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٠ .

(٨) سلف في سورة الأعراف ٩/ ٣٣٥ ، وسورة يونس ١١/ ٨ ، ولم نقف عليه في سورة آل عمران.

وقيل: إظهارُهم الندامةَ قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢].

وقيل: أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها؛ كما قال: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الأغلالُ جمعُ غُلٍّ، يقال: في رقبته غُلٌّ من حديد. ومنه قيل للمرأة السيئةِ الخُلُق: غُلٌّ قَمِلٌ، وأصلُه: أنَّ الغُلَّ كان يكون من قِدٍّ[(١)] وعليه شعرٌ فيَقْمَلُ. وغَلَلْتُ يده إلى عنقه، وقد غُلَّ فهو مغلول، يقال: ماله أُلَّ وغُلَّ[(٢)]. والغُلُّ أيضاً والغُلَّة: حرارةُ العطش، وكذلك الغليل؛ يقال منه: غُلَّ الرجلُ يُغَلُّ غَلَلًا فهو مغلول، على ما لم يسمَّ فاعله؛ عن الجوهريّ[(٣)].

أي: جُعلت الجوامعُ في أعناق التابعين والمتبوعين. قيل: مِن غيرِ هؤلاء الفريقين. وقيل: يرجع«الذين كفَرُوا» إليهم.

وقيل: تم الكلامُ عند قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾ بعد ذلك في أعناق سائر الكفار. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ قال قتادة: أي:

---

(١) القِدُّ هو السَّيْرُ يُقَدُّ من جلدٍ غير مدبوغ، القاموس (قدد).

(٢) أُلَّ: دُفع في قفاه، وغُلَّ: وُضع الغُلُّ في يديه وعنقه، وهذا دعاء عليه. معجم متن اللغة (أل) و(غل).

(٣) في الصحاح: (غلل).

أغنياؤها ورؤساؤها وجبَابِرَتُها وقادةُ الشرِّ للرسل: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1].

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ أي: فُضِّلنا عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربُّكم راضياً بما نحن عليه من الدِّين والفضل لم يخوِّلنا ذلك .﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنَّ مَن أَحْسَنَ إليه فلا يُعذِّبُه. فردَّ الله عليهم قولَهم وما احتجُّوا به من الغِنَى فقال لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسِّعُه ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ أي: يقتِّر، أي: إنّ الله هو الذي يُفاضِلُ بين عبادِه في الأرزاق امتحاناً لهم، فلا يدلُّ شيءٌ من ذلك على ما في العواقب، فَسَعَةُ الرزق في الدنيا لا تدلُّ على سعادة الآخرة، فلا تظنُّوا أموالَكم وأولادكم تُغني عنكم غدًا شيئًا .﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هذا؛ لأنَّهم لا يتأمَّلون.

ثم قال تأكيداً: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ قال مجاهد: أي: قُرْبَى. والزُّلْفَةُ: القُرْبة[2].

وقال الأخفش[3]: أي: إزلافاً، وهو اسمُ المصدر، فيكون موضعُ «قُرْبَى» نصبًا، كأنه قال: بالتي تقرِّبكم عندنا تقريباً.

وزعم الفراء أنَّ «التي» تكون للأموال والأولاد جميعاً. وله قولٌ آخرُ ـ وهو مذهبُ أبي إسحاقَ الزجَّاج ـ يكون المعنى: وما أموالُكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفى، ولا أولادكم بالتي تقرِّبكم عندنا زُلْفى، ثم حذفَ خبر الأولِ لدلالة الثاني عليه، وأنشد الفراء:

نحن بما عندنا وأنتَ بما ... عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[4]

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٥٢، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٩٧. وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٦.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥١ وعنه نقل المصنف قول الفراء والزجاج، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٥. وسلف البيت ١٠/ ١٨٨.

ويجوز في غير القرآن: باللَّتين وباللَّاتي وباللَّواتي وباللَّذَيْنِ، وبالَّذينَ للأولاد خاصة(١).

أي: لا تَزيدُكم الأموالُ عندنا رِفعةً ودرجةً، ولا تقرِّبكم تقريباً.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال سعيد بن جبير: المعنى: إلَّا من آمَنَ وعَمِلَ صالحاً فلن يَضُرَّه مالُه وولدُه في الدنيا(٢). وروى ليثٌ عن طاوسٍ أنه كان يقول: اللهمَّ ارزقني الإيمانَ والعمل، وجنِّبني المالَ والولد، فإنِّي سمعتُ فيما أوْحيتَ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾(٣).

قلت: قولُ طاوسٍ فيه نظر، والمعنى والله أعلم: وجنِّبني المالَ والولدَ المُطْغِيَيْن، أو اللَّذَينِ لا خيرَ فيهما، فأمَّا المالُ الصالح والولدُ الصالح للرجل الصالحِ فنِعْمَ هذا! وقد مضى هذا في «آل عمران، ومريم، والفرقان»(٤).

و«مَن» في موضعِ نصبٍ على الاستثناء المنقطع، أي: لكنْ مَن آمَنَ وعمل صالحاً فإيمانُه وعملُه يقرِّبانِه منِّي. وزعم الزجَّاج أنه في موضع نصبٍ بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التي في «تقرِّبكم». النحاس: وهذا القولُ غلطٌ؛ لأنَّ الكافَ والميمَ للمخاطَب، فلا يجوزُ البدلُ، ولو جاز هذا لجاز: رأيتُك زيداً. وقولُ أبي إسحاقَ هذا هو قولُ الفرَّاء، إلَّا أنَّ الفراء لا يقول: بدل، لأنَّه ليس من لفظِ الكوفيين، ولكنَّ قولَه يَؤولُ إلى ذلك، وزعم أنَّ مثله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] يكون منصوباً عنده بـ «ينفع». وأجاز الفرَّاء أن يكون «مَن» في موضع رفعٍ بمعنى: ما هو إلَّا مَن آمَنَ، كذا قال: ولستُ أحصِّلُ معناه(٥).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥.

(٢) أخرج نحوه الطبري ١٩/ ٢٩٧ عن ابن زيد، ولم نقف عليه عن سعيد بن جبير.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٣٨.

(٤) ٥/ ١١٠ و١٣/ ٤١٤ و١٥/ ٤٨٨.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٢، وقول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٥، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٣٦٣.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ يعني قولَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فالضِّعْفُ: الزيادة، أي: لهم جزاءُ التضعيف. وهو من باب إضافةِ المصدرِ إلى المفعول. وقيل: لهم جزاءُ الأضعاف، فالضِّعفُ في معنى الجمع. وإضافةُ الضعفِ إلى الجزاء كإضافة الشيء إلى نَفْسِه، نحو: حقّ اليقين، وصلاة الأُولى. أي: لهم الجزاءُ المضعَّف؛ للواحد عشرةٌ إلى ما يُريد اللهُ من الزِّيادة.

وبهذه الآية استدلَّ مَن فضَّل الغِنَى على الفقر. وقال محمد بن كعب: إنَّ المؤمن إذا كان غنيًّا تقيًّا آتاه الله أَجْرَه مرَّتين بهذه الآية[1]. ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

قراءةُ العامةِ: «جَزَاءُ الضِّعْفِ» بالإضافة. وقرأ الزُّهرِيُّ ويعقوبُ ونصر بن عاصم: «جزاءً» منوَّناً منصوباً «الضعفُ» رفعاً[2]، أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، على التقديم والتأخير. «وَجَزَاءٌ الضِّعْفَ» على أن يجازَوا الضعفَ. و«جزاءٌ الضِّعفُ» مرفوعان، الضِّعفُ بدل من جزاء[3].

وقَرأ الجمهور أيضاً: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ على الجمع، وهو اختيارُ أبي عبيد؛ لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]. الزمخشريُّ: وقرئ «في الغرفات» بضمِّ الراء وفَتْحِها وسكونها[4].

وقرأ الأعمش ويحيى بن وَثَّاب وحمزةُ وخلف: ﴿في الغرفة﴾ على التوحيد[5]؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفةُ قد يُرادُ بها اسمُ

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٣.

(٢) النشر ٢/ ٣٥١. و«جزاءً» في هذه القراءة منصوب على الحال، كما ذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٢٨٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢. وقراءة: «جزاءٌ الضعفُ» ـ برفعهما ـ ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢ عن قتادة. وقراءة: «جزاءٌ» بالرفع والتنوين «الضعفَ» بالنصب ذكرها الألوسي في روح المعاني ٢٢/ ١٤٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والقراءة بفتح الراء وسكونها في القراءات الشاذة ص ١٢٢.

(٥) السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص ١٨١ عن حمزة. وأما قراءة خلف المشهورة عنه فكقراءة الجمهور.

الجمعِ واسم الجنس. قال ابن عباس: هي غرفٌ من ياقوتٍ وزبرجد ودُرٍّ. وقد مضى بيانُ ذلك(١).

﴿ءَامِنُونَ﴾ أي: من العذاب والموت والأسقام والأحزان. ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ في إبطال أدلَّتِنا وحُجَجنا وكتابنا. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: معانِدين، يحسبون أنَّهم يفوتوننا بأنفسهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: في جهنَّم؛ تُحضِرُهم الزبانيةُ فيها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ كرَّر تأكيدًا. ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المغترِّين بالأموال والأولاد: إنَّ الله يوسِّع على مَن يشاء ويضيِّق على مَن يشاء، فلا تغترُّوا بالأموال والأولاد، بل أنْفِقوها في طاعة الله، فإنَّ ما أنفقتُم في طاعة الله فهو يُخْلِفُه. وفيه إضمارٌ، أي: فهو يُخْلِفُه عليكم؛ يقال: أَخْلَفَ له وأَخْلَفَ عليه، أي: يعطيكم خَلَفَه وبَدَلَه، وذلك البَدَلُ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن يومٍ يصبحُ العبادُ فيه إلَّا ومَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، و[يقول الآخَر: اللهم] أَعْطِ مُمْسِكاً تَلفاً»(٢).

وفيه أيضاً عن أبي هريرةَ، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قال لي: أَنفِقْ أُنْفِقْ عليك...» الحديث(٣). وهذه إشارةٌ إلى الخَلَف في الدنيا بِمثْلِ المنفَق فيها إذا كانت

---

(١) ينظر ١٠/ ٢٩٩ و١٥/ ٤٩١ . وخبر ابن عباس سيأتي عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الزمر.

(٢) صحيح مسلم (١٠١٠)، وما بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢).

(٣) صحيح مسلم (٩٩٣)، وهو عند أحمد (٧٢٩٨)، والبخاري (٤٦٨٤).

النفقةُ في طاعة الله. وقد لا يكون الخَلَفُ في الدنيا، فيكون كالدعاء ـ كما تقدَّم[١] ـ سواءً في الإجابة أو التكفير أو الادِّخار، والادِّخارُ ها هنا مثله في الأجر[٢].

مسألة: روى الدَّارقُطْنيُّ وأبو أحمد بنُ عَدِيٍّ عن عبد الحميد الهلاليِّ، عن محمد ابن المُنْكَدِر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وما أَنْفَقَ الرجلُ على نفسه وأهله كُتب له صدقة، وما وَقَى به الرجلُ عِرضَه فهو صدقةٌ، وما أَنْفَقَ الرجل من نفقةٍ فعَلَى الله خَلَفُها، إلَّا ما كان من نفقةٍ في بنيانٍ أو معصية». قال عبد الحميد: قلتُ لابن المنكدر: ما «وَقَى الرجلُ عِرضَه»؟ قال: يعطي الشاعرَ وذا اللسان[٣]. عبد الحميد وثَّقه ابن معين[٤].

قلت: أمَّا ما أنفق في معصيةٍ فلا خلافَ أنه غيرُ مثابٍ عليه ولا مخلوفٍ له. وأمَّا البنيانُ فما كان منه ضروريًّا يُكِنُّ الإنسانَ ويحفظُه، فذلك مخلوفٌ عليه ومأجورٌ ببنيانه، وذلك لِحِفْظِ[٥] بنيته وسترِ عورته؛ قال ﷺ: «ليس لابن آدمَ حقٌّ في سِوى هذه الخصالِ: بيتٍ يسكنُه، وثوبٍ يوارِي عورتَه، وجِلْفِ الخبز، والماء»[٦]. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفًى[٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لمَّا كان يقال في الإنسان: إنَّه يَرْزُقُ عيالَه، والأمير جندَه، قال: «وهو خيرُ الرَّازِقِينَ» والرزاقُ من الخَلْقِ يَرزقُ، لكنَّ ذلك من

---

(١) ٣/ ١٨٠.

(٢) في (ظ): الآخرة، وكذلك وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٩٢، والكلام فيه بنحوه.

(٣) سنن الدارقطني (٢٨٩٥)، والكامل ٥/ ١٩٥٩. وسلف ٩/ ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٤) الكامل ٥/ ١٩٥٨، وعبد الحميد هو ابن الحسن الهلالي، وقال فيه أبو حاتم: شيخ، وضعفه ابن المديني وأبو زرعة والدارقطني. ميزان الاعتدال ٢/ ٥٣٩.

(٥) في (د) و(م): وكذلك كحفظ، وفي (خ): وذلك كحفظ.

(٦) أخرجه أحمد (٤٤٠)، والترمذي (٢٣٤١) من حديث عثمان ﷺ، وهو حديث لا يصح كما سلف الكلام ٥/ ٥٧. قوله: جلف الخبز، أي: وحدَه ليس معه إدام، أو: الخبز الغليظ اليابس.

(٧) ٩/ ٢٦٧ - ٢٦٩.

مالٍ يُملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يَرزقُ من خزائنَ لا تفنَى ولا تتناهَى. ومَن أَخرجَ من العدم إلى الوجود فهو الرَّازقُ على الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم نَحشرهم جميعاً﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [الآية: ٣١] أي: لو تَراهم في هذه الحالةِ لرأيتَ أمراً فظيعاً. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ هو وأمته. ثم قال: ولو تراهم أيضاً يومَ نَحْشرُهم جميعاً، العابِدِينَ والمعبودينَ، أي: نجمعهم للحساب ﴿ثُمَّ نَقُولُ[١] لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾. قال سعيد عن قتادة: هذا استفهامٌ، كقوله عزَّ وجلَّ لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] قال النحاس[٢]: فالمعنى: أنَّ الملائكةَ صلواتُ الله عليهم إذا أكْذَبَتْهم؛ كان في ذلك تبكيتٌ لهم، فهو استفهامُ توبيخٍ للعابِدِين.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: أنت ربُّنا الذي نَتولَّاه ونطيعُه ونعبدُه ونُخْلِصُ في العبادة له. ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: يُطيعون إبليسَ وأعوانَه. وفي التفاسير[٣]: أنَّ حَيًّا يقال لهم: بنو مُلَيح من خُزاعةَ؛ كانوا يعبدون الجنَّ، ويزعمون أنَّ الجنَّ تتراءى لهم، وأنَّهم ملائكةٌ، وأنَّهم بناتُ الله، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨].

---

(١) قرأ حفص: «يحشرهم» و«يقول» بالياء، والباقون بالنون، وهو ما وقع في النسخ. السبعة ص ٥٣٠، والتيسير ص١٠٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤، وما قبله منه. وقول قتادة قبله أخرجه الطبري ١٩/ ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) في (ظ): وفي التفسير.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾ أي: شفاعةً ونَجاةً ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: عذاباً وهَلاكاً. وقيل: أي: لا تملك الملائكةُ دفعَ ضرٍّ عن عابِدِيهم، فحذف المضاف. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يجوزُ أن يقول الله لهم أو الملائكة: ذوقوا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ﴾ يَعنون محمداً ﷺ ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ أي: أَسْلافُكم من الآلهة التي كانوا يعبدونها. ﴿وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون القرآن، أي: ما هو إلَّا كذبٌ مُخْتلَق. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فتارةً قالوا: سحرٌ، وتارةً قالوا: إفك. ويحتمل أن يكون منهم مَنْ قال: سحر، ومنهم مَن قال: إفك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: لم يقرؤوا في كتابٍ أُوتُوه بطلانَ ما جئتَ به، ولا سَمِعوه من رسولٍ بُعث إليهم، كما قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]. فليس لتكذيبهم وجهٌ يُتَشَبَّثُ به ولا شبهةٌ يُتَعَلَّقُ بها[1] كما يقول أهلُ الكتاب ـ وإنْ كانوا مُبْطِلينَ ـ : نحن أهلُ كتابٍ وشرائعَ

(١) في (ظ): وجه متشبث به ولا شبهة متعلقٌ بها، وفي الكشاف ٣/ ٢٩٣ (والكلام منه): وجه متشبث ولا شبهة متعلق.

ومُستَنِدون إلى رسلٍ من رسل الله.

ثم توعَّدهم على تكذيبهم بقوله الحقّ: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: كذَّب قبلَهم أقوامٌ كانوا أشدَّ من هؤلاء بطشًا، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، وأوسعَ عيشاً، فَأَهْلَكْتُهم؛ كثمودَ وعادٍ. ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: ما بلغ أهلُ مكةَ مِعْشارَ ما آتينا تلك الأمم. والمِعْشارُ والعُشْر سواء، لغتان. وقيل: المِعْشارُ عُشْرُ العُشْرِ[(١)]. الجوهريّ[(٢)]: ومِعْشارُ الشيءِ عُشْرُه، ولا يقولون هذا في شيءٍ سوى العُشْرِ.

وقيل: ما بلغ الذين مِن قَبْلِهم مِعْشارَ شُكْرِ ما أعطيناهم؛ حكاه النقَّاش. وقيل: ما أعطَى الله تعالى مَن قبلهم مِعْشارَ ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان. قال ابن عباس: فليس أمةٌ أعلَمَ من أمته، ولا كتابٌ أبينَ من كتابه[(٣)].

وقيل: المِعْشارُ هو عُشْرُ العشير، والعشيرُ هو عُشْرُ العُشْرِ، فيكون جزءًا من ألفِ جزء. الماورديُّ[(٤)]: وهو الأَظْهَرُ؛ لأنَّ المراد به المبالغةُ في التقليل.

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عقابي في الأمم، وفيه محذوفٌ وتقديرُه: فأهلكناهم فكيف كان نكيري.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ تَمَّمَ الحُجَّةَ على المشركين، أي: قُلْ لهم يا محمدُ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أي: أذكِّرُكم وأحذِّركم سوءَ عاقبةِ ما أنتم فيه. ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أي: بكلمةٍ واحدة مشتملةٍ على جميع الكلام، تقتضي نَفْيَ الشِّرْكِ وإثبات

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٢) في الصحاح (عشر).

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ ، وما قبله منه.

الإله. قال مجاهد: هي لا إله إلا الله[١]، وهذا قولُ ابن عباس والسُّدِّي[٢]. وعن مجاهد أيضاً: بطاعة الله[٣]. وقيل: بالقرآن؛ لأنه يجمع كلَّ المواعظ[٤].

وقيل: تقديرهُ: بخصلةٍ واحدةٍ، ثم بيَّنها بقوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فتكون «أَنْ» في موضعِ خفضٍ على البَدَلِ من «وَاحِدَةٍ»، أو في موضعِ رفعٍ على إضمارِ مبتدأ، أي: هي أنْ تقوموا. ومذهبُ الزجَّاج[٥] أنَّها في موضعِ نصبٍ بمعنى: لأنْ تقوموا.

وهذا القيامُ معناه: القيامُ إلى طلبِ الحقِّ، لا القيامُ الذي هو ضدُّ القعود، وهو كما يقال: قام فلانٌ بأمر كذا. أي: لوجه الله والتقرُّب إليه. وكما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧].

﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: وُحدانًا ومُجتَمِعين؛ قاله السُّدِّيّ. وقيل: منفردًا برأيه ومُشاوِرًا لغيره، وهذا قولٌ مأثور. وقال القُتَبِيُّ: مناظِرًا مع غيره ومفكِّرا في نفسه[٦]، وكلُّه متقارب.

ويحتمل رابعاً: أنَّ المَثْنَى عملُ النهار، والفُرادى عملُ الليل؛ لأنه في النهار مُعَانٌ، وفي الليل وحيد؛ قاله الماوَرْديّ[٧].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٥٤، وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥ عن السدي، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٤.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٥٥.

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٤٥٦، وقول ابن قتيبة بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٣٥٨. ووقع في (ظ): ومتفكراً مع نفسه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٦.

وقيل: إنَّما قال: «مَثْنَى وَفُرَادَى» لأنَّ الذهنَ حجةُ اللهِ على العباد، وهو العقلُ، فأَوْفرُهم عقلاً أوفرُهم حظًّا من الله، فإذا كانوا فُرادى كانت فكرةً واحدة، وإذا كانوا مَثْنَى تَقابَلَ الذهنان، فتراءى من العلم لهما ما أُضْعِفَ على الانفراد، والله أعلم.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ الوقفُ عند أبي حاتم وابنِ الأنباريِّ على: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾(١).

وقيل: ليس هو بوقفٍ؛ لأنَّ المعنى: ثم تتفكَّروا: هل جرَّبتم على صاحبكم كذباً، أو رأيتم فيه جِنَّةً، أو في أحواله من فسادٍ، أو اخْتَلَفَ إلى أحدٍ ممَّن يدَّعي العلمَ بالسحر، أو تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتب، أو عَرَفْتُموه بالطمع في أموالكم، أو تَقْدِرون على معارضته في سورةٍ واحدة؟ فإذا عرفتُم بهذا الفِكر صدقَه، فما بالُ هذه المعاندة؟!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وفي «صحيح» مسلم عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِينَ. ورَهْطَكَ مِنهم المُخْلِصين» خرج رسول الله ﷺ حتى صعِد الصَّفا فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: مَن هذا الذي يَهْتِفُ؟! قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبدِ منافٍ، يا بني عبدِ المطَّلبِ» فاجتَمَعوا إليه فقال: «أرأيتُم لو أَخْبَرْتكم أنَّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتُم مُصَدِّقيَّ؟» قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً. قال: «فإنِّي نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد». قال: فقال أبو لهب: تَبًّا لك! أمَا جمعتَنا إلَّا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقد تَبَّ﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخرِ السورة(٢).

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٤٧ ، وذكره عن أبي حاتم ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥ .

(٢) صحيح مسلم (٢٠٨)، وهو عند أحمد (٢٨٠١)، والبخاري (٤٩٧١). قوله: ورهطك منهم المخلصين، قال أبو العباس في المفهم ٧/ ٣٨٤ : ظاهر هذا أنه كان قرآناً يُتلى، وأنه نُسخ؛ إذ لم يثبت نَقْلُه في المصحف، ولا تواتَر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: جُعْلٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: ذلك الجُعْلُ لكم إنْ كنتُ سألتُكموه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: رقيبٌ وعالمٌ وحاضِرٌ لأعمالي وأعمالكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فهو يجازي الجميع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يبيِّن الحجةَ ويُظْهِرُها. قال قتادة: بالحقِّ: بالوحي. وعنه: الحقُّ القرآن(١). وقال ابن عباس: أي: يقذفُ الباطلَ بالحقِّ علامُ الغيوبِ(٢).

وقرأ عيسى بن عمر: «عَلَّامَ الغيوب»(٣) على أنه بدلٌ، أي: قُلْ: إنَّ ربِّي علَّامَ الغيوبِ يقذفُ بالحقِّ. قال الزجاج(٤): والرفعُ من وجهين: على الموضع؛ لأنَّ الموضعَ موضعُ رفعٍ، أو على البدل ممَّا في «يقذف». قال النحَّاس: وفي الرفع وجهان آخران: يكون خبراً بعد خبر، ويكون على إضمارِ مبتدأ. وزعم الفرَّاء أن الرفع في مثل هذا أكثرُ في كلام العرب إذا أتى بعد خبر «إنَّ»، ومثلُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤](٥).

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/٣٠٧ بلفظ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوحي ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ .قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن. وسيرد في الآية التي بعدها.

(٢) ذكره الرازي ٢٥/ ٢٧٠ دون نسبة، وربطه بقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٨]

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٢ .

(٤) في معاني القرآن ٤/٢٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٤ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٤ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٤ .

وقرئ: «الغيوبُ» بالحركات الثلاث، فالغُيوب كالبيوت، والغَيوب كالصَّيود[١]، وهو الأمرُ الذي غاب وخَفِيَ جدًّا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ قال سعيد عن قتادة: يريد القرآن. النحاس[٢]: والتقديرُ: جاء صاحبُ الحقِّ، أي: الكتاب الذي فيه البراهينُ والحُجج. ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قال قتادة: الشيطان، أي: ما يخلقُ الشيطانُ أحداً[٣] ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾، فـ «ما» نَفْيٌ. ويجوز أن يكون استفهاماً بمعنى: أيّ شيء، أي: جاء الحقُّ؛ فأيُّ شيءٍ بقي للباطل حتى يُعيدَه ويُبْدِئَه، أي: فلم يَبْقَ منه شيءٌ، كقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٨] أي: لا ترى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وذلك أنَّ الكفار قالوا: تركتَ دينَ آبائِكَ فضَلَلْتَ. فقال له: قل يا محمد: إنْ ضللتُ ـ كما تزعمون ـ فإنَّما أَضِلُّ على نفسي. وقراءةُ العامَّة «ضَلَلْتُ» بفتح اللام. وقرأ يحيى بن وَثَّاب وغيره: «قُلْ إِنْ ضَلِلتُ» بكسر اللام وفتح الضادِ من «أَضَلُّ»[٤]. والضلالُ والضلالةُ ضدُّ الرشاد، وقد

---

(١) في (ظ): فالغيوب بالرفع والخفض كالبُيوت والبِيوت والعُيون والعِيون وبالنصب كالصيود. اهـ. والصَّيود كقَبول: الصياد. القاموس (صاد). ووقع في (م): كالصبور، وهو موافق لما في مطبوع الكشاف ٣/ ٢٩٥ ، والكلام منه.

وقرأ بكسر الغين حيث وقع حمزةُ وأبو بكر، والباقون بضمها. السبعة ص١٧٨-١٧٩ ، والتيسير ص١٠١ ، والنشر ٢/ ٢٢٦ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٥ ، وما قبله منه، وأخرج الخبر عن قتادة الطبري ١٩/ ١٠٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ١٠٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦ .

ضَلَلْتُ ـ بفتح اللام ـ أضِلُّ بكسر الضاد؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ﴾ فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهلُ العالية يقولون: «ضَلِلتُ» بالكسر «أَضِلُّ»[(١)]. أي: إثمُ ضلالتي على نفسي. ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓۚ﴾ من الحكمة والبيان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميعٌ ممَّن دعاه قريبُ الإجابة. وقيل: وجهُ النَّظْمِ: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ويبيِّنُ الحُجَّةَ، وضلالُ مَن ضلَّ لا يُبْطِلُ الحُجَّة، ولو ضَلَلْتُ لأَضْرَرْتُ بنفسي، لا أنَّه يُبْطِلُ حجةَ الله، وإذا اهتديتُ فذلك فَضْلُ الله؛ إذ ثبَّتني على الحُجَّة، إنَّه سمِيع قرِيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ ذكر أحوالَ الكفار في وقت[(٢)] يُضْطَرُّون فيه إلى معرفة الحقِّ. والمعنى: لو ترى إذ فزعوا في الدنيا عند نزولِ الموت أو غيرِهِ من بأس الله تعالى بهم؛ روي معناه عن ابن عباس[(٣)].

الحسن: هو فَزَعُهم في القبور من الصيحة[(٤)]. وعنه: أنَّ ذلك الفزعَ إنَّما هو إذا خرجوا من قبورهم[(٥)]. وقاله قتادة[(٦)].

وقال ابن معقل: إذا عاينوا عقابَ اللهِ يومَ القيامة[(٧)].

---

(١) بالكسر أيضاً كما في مختار الصحاح (ضلل)، والكلام من الصحاح (ضلل).

(٢) بعدها في النسخ عدا (ظ): ما، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٠٩.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٥٨.

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٣، والطبري ١٩/ ٣١٢. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٦: وهذا أرجح الأقوال عندي.

(٦) كذا ذكر المصنف، والذي أخرجه عبد الرزاق ٢/ ١٣٣ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: في الدنيا حين رأوا بأس الله. وأخرجه عنه الطبري ١٩/ ٣١٢ - ٣١٣، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

(٧) أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣١٣.

السُّدِّيُّ: هو فَزَعُهم يومَ بدرٍ حين ضُربت أعناقُهم بسيوفِ الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً ولا رجوعاً إلى التوبة[١].

سعيد بن جُبير: هو الجيشُ الذي يُخسَفُ بهم في البيداء، فيبقى منهم رجلٌ، فيخبرُ الناس بما لقي أصحابه فيفزعون، فهذا هو فَزَعُهم[٢].

﴿فَلَا فَوْتَ﴾: فلا نجاةَ؛ قاله ابن عباس[٣]. مجاهد: فلا مَهْرَب[٤].

﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من القبور. وقيل: من حيث كانوا، فهم من الله قريبٌ لا يَعْزُبون عنه ولا يفوتونه.

وقال ابن عباس: نزلت في ثمانين ألفاً يغزون في آخِرِ الزمان الكعبةَ لِيَخْرِبوها، فَلمّا يدخلون[٥] البيداءَ يُخْسفُ بهم، فهو الأخذُ من مكانٍ قريب.

قلت: وفي هذا المعنى خبرٌ مرفوعٌ عن حذيفةَ ـ وقد ذكرناه في كتاب «التذكِرة»[٦] ـ قال: قال رسول الله ﷺ؛ وذَكَر فتنةً تكون بين أهلِ المشرقِ والمغرب: «فبينما هم كذلك، إذ خرج عليهم السُّفيانيُّ من الوادي اليابس في فَوْرِه ذلك، حتى يَنْزِلَ دمشق، فيبعث جيشين؛ جيشاً إلى المشرق، وجيشاً إلى المدينة، فيسير الجيش نحو المَشْرِقِ حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعةِ الخبيثة ـ يعني مدينةَ بغداد ـ قال: فيقتلون أكثرَ من ثلاثةِ آلافٍ، ويفتضُّون أكثرَ من مئة امرأةٍ، ويقتلون بها ثلاثَ مئةِ كَبْشٍ من وَلَدِ العباس[٧]، ثم يخرجون متوجِّهين إلى الشام، فتخرج رايةُ هدًى من

---

(١) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/ ٢٤٠ .

(٢) النكت والعيون ٤/٤٥٨ ، وأخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٣ .

(٤) النكت والعيون ٤/٤٥٨ .

(٥) في (خ) و(م) وكما يدخلون. وفي (د): فلا يدخلون، والمثبت من (ظ). ووقع في الكشاف ٣/٢٩٦ (والخبر فيه بنحوه): فإذا دخلوا البيداء خسف بهم.

(٦) ص٦٠٩ .

(٧) في (ظ): بني إسماعيل، بدل: ولد العباس.

الكوفة، فتلحَقُ ذلك الجيشَ منها على ليلتين، فيقتلونهم لا يُفْلِتُ منهم مُخْبِرٌ ويَسْتَنقِذون ما في أيديهم من السَّبْي والغنائم، ويَحُلُّ جيشه الثاني بالمدينة، فينتبهونها ثلاثةَ أيامٍ ولياليها، ثم يخرجون متوجِّهين إلى مكةَ، حتى إذا كانوا بالبيداءِ بعث الله جبريل عليه السلام، فيقول: يا جبريلُ، اذهب فأَبِدْهم، فيضربها برجله ضربةً يَخسفُ الله بهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. فلا يبقى منهم إلَّا رجلان؛ أحدُهما بشيرٌ والآخَرُ نذيرٌ، وهما من جُهَيْنة». ولذلك جاء القول: وعند جُهينةَ الخبرُ اليقين[١].

وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ» أي: قُبِضَتْ أرواحُهم في أماكنها، فلم يُمْكِنْهم الفرارُ من الموت، وهذا على قولِ مَن يقولُ: هذا الفزعُ عند النَّزْع.

ويحتمل[٢] أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة؛ يقال: فَزِع الرجلُ، أي: أجاب الصَّارخَ الذي يستغيثُ به إذا نزل به خوفٌ. ومنه الخبرُ إذ قال للأنصار: «إنكم لتَقِلُّون عند الطَّمَعِ، وتَكْثُرون عند الفزع»[٣].

ومَن قال: أراد الخسفَ أو القتلَ في الدنيا كيومِ بدرٍ قال: أُخذوا في الدنيا قبل أن يؤخَذوا في الآخرة. ومَن قال: هو فزعُ يومِ القيامة قال: أُخذوا من بطن الأرض إلى ظَهْرِها. وقيل: «أُخِذُوا مِن مكانٍ قريبٍ»: من جهنَّم فأُلقوا فيها.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. وقال مجاهدٌ: بالله عزَّ وجلَّ. الحسن: بالبعث. قتادةُ: بالرسول ﷺ[٤]. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قال ابن

---

(١) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٠ - ٣١١ . وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أن هذا الحديث موضوع.

(٢) في (ظ): ويجوز.

(٣) سلف ٦/ ٤٠٩ .

(٤) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٤ .

عباس والضحاك: التناوشُ: الرَّجعة، أي: يطلبون الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا، وهيهات من ذلك(١)! ومنه قول الشاعر:

تـمـنّـى أن تـؤوبَ إلـيَّ مَـيٌّ ... وليس إلى تَناوُشِها سبيلُ(٢)

وقال السُّدِّي: هي التوبة(٣)، أي: طلبوها وقد بَعُدت؛ لأنه إنَّما تُقْبَلُ التوبةُ في الدنيا. وقيل: التناوشُ: التناول؛ قال ابن السِّكِّيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشَه يَنُوشُه نَوْشاً، وأنشد:

فهي تنوشُ الحوضَ نَوْشًا مِن عَلَا ... نَوْشًا به تَقْطَعُ أَجْوازَ الفَلا(٤)

أي: تتناول ماءَ الحوض من فوق، وتشرب شربًا كثيرًا، وتقطعُ بذلك الشُّرْبِ فَلَواتٍ، فلا تحتاج إلى ماءٍ آخَرَ. قال(٥): ومنه المناوشةُ في القتال، وذلك إذا تَدَانَى الفريقان. ورجلٌ نَوُوشٌ، أي: ذو بطش. والتناوشُ: التَّناولُ، والانتياشُ مثلُه. قال الراجز:

كانت تَنوشُ العَنَقَ انتياشا(٦)

---

(١) أخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٩/ ٣١٧ و٣١٩ . وذكره بهذا اللفظ عن ابن عباس الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧ . ووقع في (ظ): تؤوب إليه، وفي المحرر الوجيز: تؤوب إليك.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٤٥٩ .

(٤) إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، والصحاح (نوش)، والكلام منه. وهما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥ ، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥ - ٣١٦ ، والمنصف لابن جني ١/ ١٢٤ ، والاقتضاب ص ٤٢٧ ، والخزانة ٩/ ٤٣٧ ، وذكر سيبويه في الكتاب ٣/ ٤٥٣ البيت الأول. قال البطليوسي: لا أعلم لمن هذا الرجز. وقال البغدادي: وهذا من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعلم قائلها، وقال ابن بري: هذا الرجز لغيلان ابن حريث الرَّبَعي، ولم أقف على خبر لغيلان. اهـ. والضمير في قوله: فهي، للإبل. اللسان (نوش).

(٥) يعني ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص ٤٧٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوش)، وما قبله منه.

(٦) الصحاح واللسان (نوش)، وهو فيهما برواية: باتت تنوش ...، والعَنَق: ضَرْبٌ من سير الدابة والإبل. الصحاح (عنق).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يقول: أنّى لهم تَناولُ الإيمانِ في الآخرة وقد كفروا به في الدنيا[١].

وقرأ أبو عمرو والكِسائيُّ والأعمشُ وحمزة: ﴿وأنَّى لهم التناؤش﴾ بالهمز[٢]. النحاس[٣]: وأبو عبيدةَ يستبعدُ هذه القراءة؛ لأنَّ «التناؤش» بالهمز: البُعْدُ، فكيف يكون: وأنَّى لهم البعدُ من مكان بعيد. قال أبو جعفر: والقراءةُ جائزةٌ حسنة، ولها وجهان في كلام العرب، ولا يُتَناوَلُ بها هذا المتناوَلُ[٤] البعيد. فأحدُ الوجهين أن يكون الأصلُ غيرَ مهموز، ثم هُمزت الواو لأنَّ الحركة فيها خَفِيَّة[٥]، وذلك كثيرٌ في كلام العرب. وفي المصحَفِ الذي نقلته الجماعةُ عن الجماعة: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، والأصلُ: «وُقِّتت»؛ لأنه مشتقٌّ من الوقت. ويقال في جمع دار: أَدْؤُر[٦].

والوجهُ الآخَر ذكره أبو إسحاق؛ قال: يكون مشتقًّا من النئيش، وهو الحركةُ في إبطاء، أي: من أين لهم الحركةُ فيما قد بَعُد[٧]. يقال: نَأَشْتُ الشيء: أخذته من بُعْدٍ، والنئيشُ: الشيءُ البطيء. قال الجوهريُّ[٨]: التناؤشُ ـ بالهمز ـ: التأخُّر والتباعُد. وقد نَأَشْتُ الأمر أَنَأَشُه نأشاً: أَخَّرته، فانْتَأَشَ. ويقال: فَعَلَه نئيشًا، أي: أخيراً. قال الشاعر:

---

(١) الصحاح (نوش).

(٢) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية أبي بكر السبعة ص٥٣٠، والتسير ص١٨١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥٦.

(٤) في (م): ولا يتأول بها هذا المتأول، وفي (ظ): ولا يتناول بهذا هذا التأويل.

(٥) في (ظ): خفيفة.

(٦) قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٢٥٩: وكلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمتُها لازمة؛ إن شئت أبدلْتَ منها همزة، وإن شئت لم تُبْدِل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٩.

(٨) في الصحاح (نأش).

تمنَّى نئيشًا أن يكون أطاعني وقد حَدَثَتْ بعدَ الأمور أمورُ[(١)]

وقال آخر:

قعدتَ زماناً عن طِلابِكَ للعُلا وجئتَ نئيشًا بعدَ ما فاتَكَ الخبرُ[(٢)]

وقال الفرَّاء: الهمزُ وتَرْكُ الهمزِ في التناؤش مُتقارِبٌ، مثل: ذِمْتُ الرجلَ وذَأَمْته، أي: عبته.

﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: من الآخرة. وروى أبو إسحاق عن التميميِّ عن ابن عباس: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾ قال: الردّ، سألوه وليس بحينِ ردٍّ[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالله عزَّ وجلَّ. وقيل: بمحمد ﷺ ﴿مِن قَبْلُ ۖ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ العرب تقولُ لكلِّ مَن تكلَّم بما لا يَحُقُّه[(٤)]: هو يقذفُ ويرجُمُ بالغيب. ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ على جهة التمثيل لمن يَرْجُم ولا يُصيب[(٥)]، أي: يرمون بالظنِّ فيقولون: لا بعثَ ولا نشورَ ولا جنةَ ولا نار، رَجْمًا منهم بالظنِّ؛ قاله قتادة[(٦)].

وقيل: «يقذفون» أي: يرمون في القرآن فيقولون: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأولين. وقيل: في محمد، فيقولون: ساحرٌ شاعرٌ كاهنٌ مجنون. ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: إنَّ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥، والصحاح (نأش)، ونسبه البصري في الحماسة ٢/ ٣٧، والزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢، وصاحب اللسان (نأش) لنَهْشَل بن حَرِّيّ.

(٢) في (خ) و(د): الخير، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتهذيب اللغة ١١/ ٤١٧، واللسان (نوش).

(٣) أخرجه الطبري ١٩/ ٣١٧، وسلف بنحوه عن ابن عباس والضحاك.

(٤) في (ظ): يحققه، وحقَّ الأمرَ يَحُقُّه وأَحقَّه: كان منه على يقين. اللسان (حقق).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٩/ ٣٢٠.

الله بَعَّد لهم أنْ يعلموا صِدْقَ محمد ﷺ. وقيل: أراد البُعْدَ عن القلب، أي: من مكان بعيدٍ عن قلوبهم.

وقرأ مجاهد: «ويُقْذَفون بالغيب» غير مسمًّى الفاعل، أي: يُرمَون به[1]. وقيل: يَقْذِفُ به إليهم مَن يُغويهم ويُضِلُّهم.

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: حِيل بينهم وبين النجاةِ من العذاب. وقيل: حِيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. ومذهبُ قتادةَ أنَّ المعنى: أنهم كانوا يشتهون لمَّا رأوا العذاب أنْ يُقبَل منهم أن يُطيعوا الله جلَّ وعزَّ، وينتهوا إلى ما يأمرهم به الله، فحِيلَ بينهم وبين ذلك؛ لأنَّ ذلك إنَّما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك الوقت. والأصلُ: «حُوِل»، فقُلبت حركةُ الواو على الحاء فانقلبت ياءً، ثم حُذفت حركتُها لثقلها[2].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ الأشياعُ جمع شِيَع، وشِيَع جمعُ شِيعَة. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: بمَن مضى من القرون السالفة الكافرة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِي شَكٍّ﴾ من أمر الرسل والبعث والجنة والنار. وقيل: في الدين والتوحيد، والمعنى الواحد.

﴿مُّرِيبٍۭ﴾ أي: يُستَرابُ به، يقال: أرابَ الرجلُ، أي: صار ذا ريبة، فهو مُريب. ومَن قال: هو من الرَّيْب ـ الذي هو الشَّكُّ والتهمة ـ قال: يقال: شكٌّ مريب، كما يقال: عَجَبٌ عجيب، وشِعْرٌ شاعر، في التأكيد.

خُتمت السورة، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٧. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧: معناه: ويرجمهم الوحي بما يكرهون من السماء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٥٧، وقول قتادة أخرجه بنحوه الطبري ١٩/ ٣٢٢.

تفسير سُورة سَبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود [١] أبدا ، المحمود على طول المدى . وقال : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره ، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال مالك عن الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور [٢] عن ذنوب [عباده] [٣] التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ .

---

(١) فى أ : « المحمود » . (٢) فى ت : « العفو » . (٣) زيادة من أ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسولَه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس : ﴿ **وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ ، والثالثة فى التغابن: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن : ٧] ، فقوله : ﴿ **قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم**(١) ﴾ ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ** ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين (٢) تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم .

ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله : ﴿ **وَيَرَى** (٣) **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ويقال أيضا : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** ﴾ [الروم : ٥٦]، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ . العزيز هو : المنيع الجناب (٤) ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شىء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)** ﴾ .

---

(١) فى ت : « ليأتينكم » .
(٢) فى أ : « وإن » .
(٣) فى س : « وترى » .
(٤) فى أ : « الجبار » .

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى : تفرقت[(١)] أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أى : بعد هذا الحال ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ؟ قال الله تعالى رادًا عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أى : [فى] [(٢)] الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ، ﴿ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ من [(٣)] الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : حيثما [(٤)] توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلّة مُظَلَّلة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

قال [(٥)] عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ ؟قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ : قال مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ مُّنِيبٍ ﴾ : تائب .

وقال سفيان [(٦)] عن قتادة : المنيب : المقبل إلى [(٧)] الله عز وجل .

أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها [(٨)] واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم [(٩)] بَلَىٰ ﴾ [يس : ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

---

(١) فى ت : « فرقت » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى أ : « عن » .
(٤) فى ت ، س : « حيث » . (٥) فى ت : « روى » . (٦) فى أ : « شيبان » .
(٧) فى ت ، أ : « على » . (٨) فى ت ، س : « وارتفاعها » .
(٩) فى ت ، س ، أ : « على أن يحيى الموتى » ، والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ،وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته (١) ، ثم قال « لقد أوتى هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود » .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه (٢) .

ومعنى قوله : ﴿ أَوِّبِي ﴾ أى : سبحى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو (٣) ميسرة أنه بمعنى سَبِّحى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجُمل » فى باب النداء منه : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : سيرى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسآد (٤) : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده (٥) لغيره ، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ أى : رَجِّعى مُسَبِّحة معه ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ وهى : الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سَمَاعة ، حدثنا ابن ضَمْرَة (٦) ، عن ابن شَوْذَب قال : كان داود ، عليه السلام ، يرفع فى كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحُوَّارى .

---

(١) فى ت : « فاستمع رسول الله لقراءته » .
(٢) سبق تخريج الحديث والأثر فى فضائل القرآن .
(٣) فى أ : « ابن » . (٤) فى أ : « والآباد » . (٥) فى أ : « لم أر » ، وفى ت : « لم أره » .
(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من اللّه لنبيه داود ، عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق فى الحلقة ، ولا تُغَلّظه فيفصمها ، واجعله بقدر .

وقال الحكم بن عُتيبة [١] : لا تُغَلِّظه فيفصم ، ولا تُدِقّه فيقلَق [٢] . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَق [٣] الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر [٤] :

وَعَلَيهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُما « دَاوُد » ، أو صنعَ السَّوابغ « تُبَّعُ »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ، عليه السلام ، [٥] من طريق إسحاق بن بشر ـ وفيه كلام ـ عن أبى إلياس ، عن وهب بن مُنَبّه ما مضمونه : أن داود ، عليه السلام ، كان يخرج متنكرًا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحدًا إلا أثنى عليه خيرًا فى عبادته وسيرته ومعدلته ، صلوات اللّه وسلامه عليه . قال وهب : حتى بعث اللّه ملكا فى صورة رجل ، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأمته ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملا قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين ، يعنى : بيت المال ، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام ، إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع [٦] ، وهو أول من عملها ، فقال اللّه : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ يعنى : مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع [٧] ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلثها ، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن اللّه أعطى داود شيئًا لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش [٨] حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكأن [٩] قد أعطى سبعين مزمارًا فى حلقه .

وقوله : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى : فى الذى أعطاكم اللّه من النعم ، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

---

(١) فى س ، أ : « عيينة » . (٢) فى ت ، أ : « فيفلق » . (٣) فى ت ، س : « هو » .

(٤) هو أبو ذؤيب الهذلى ، والبيت فى اللسان مادة (قضى) .

(٥) تاريخ دمشق (٥ / ٧٠٨ المخطوط) .

(٦ ، ٧) فى ت ، أ : « الدروع » . (٨) فى ت ، س ، أ : « تجتمع الوحوش إليه » . (٩) فى ت ، س : « وكان » .

مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان [١] ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى [٢] بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : ﴿ **وَأَسَلْنَا** [٣] **لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى ، ومالك عن زيد بن أسلم ، و [٤] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر : النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام .

قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره [٥] ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك . ﴿ **وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا** ﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ **نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جبير بن نُفَير [٦] ، عن أبى ثعلبة الخُشَنىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جدًا [٧] .

وقال [٨] أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا حَرْمَلة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى بكر [٩] بن مُضَر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثنى أن الإنس ثلاثة [١٠] : صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف فى صُوَر الناس على قلوب الشياطين.

---

(١) فى ت ، أ : « ما أعطى ابنه سليمان بن داود » وفى س : « ما أعطى ابنه سليمان » . (٢) فى ت : « فيتغذى » .
(٣) فى ت : « واسالنا » . (٤) فى ت : « بن » .
(٥) فى ت ، أ : « أى الإذن القدرى » وفى س : « أى القدرى » . (٦) فى ت : « وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثًا غريبًا بإسناده » .
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٢١٤) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح به ، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب عن معاوية بن صالح ، به .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « بكير » . (١٠) فى أ : « ثلاثة أصناف » .

وقال أيضا [١] : حدثنا أبى : حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة ـ يعنى : ابن الفضل ـ عن إسماعيل ، عن الحسن [٢] قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ : أما المحاريب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره .

وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ : الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تَـرُوحُ عَلَى آل المَحَـلَّق جَفْـنَـةٌ   كَجَابِيَة الشَّيخ العرَاقى تَفْهَق [٣] [٤]

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجَوبة من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم .

والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها [٥] لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أفَادَتْكُمُ النَّعْمَاء منِّى [٦] ثَلاثةً :   يدِى ، ولِسَانى ، وَالضَّمير المُحَجَّبَا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلى [٧] : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القُرَظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح .

---

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم أيضا » .   (٢) فى ت : « الحسين » .   (٣) فى ت : « بقهق »
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢ / ٤٩) .
(٥) فى ت ، س ، أ : « أماكنهم » .   (٦) فى ت : « عندى » .
(٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « السلمى » والتصويب من الطبرى ٢٢ / ٥٠ ، مستفادا من طبعة الشعب .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولا وعملا .

قال [١] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى بكر ، حدثنا جعفر ـ يعنى : ابن سليمان ـ عن ثابت البُنَانى قال : كان داود ، عليه السلام ، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتى عليهم [٢] ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى ، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى » [٣] .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المُنْكَدِر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان : يا بنى ، لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة » [٤] .

وروى ابن أبى حاتم عن داود ، عليه السلام ، هاهنا أثرا غريبا مطولا جدا ، وقال أيضًا :

حدثنا أبى ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد [٥] فيض بن إسحاق الرقى [٦] قال : قال فضيل فى قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : يا رب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتنى حين علمت [٧] أن النعمة [٨] منى » .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئًا على عصاه ـ وهى منْسَأته ـ كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحوا من سنَة ، فلما أكلتها [٩] دابةُ الأرض ، وهى الأرضة، ضعفت [١٠] وسقط [١١] إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

---

(١) فى ت : « روى » . (٢) فى ت : « لا يأتى عليهن » ، وفى أ : « لا يأتى عليهم » .
(٣) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .
(٥) فى هـ : « زيد » والمثبت من ت ، س ، أ ، والجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٨٨ مستفادًا من طبعة الشعب .
(٦) فى أ : « المرى » . (٧) فى ت ، س : « قلت » .
(٨) فى أ : « النعم » . (٩) فى ت : « فلما أكلت العصا » .
(١٠) فى ت ، س ، أ : « فضعفت » . (١١) فى أ : « وسقطت » .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب ، وفى صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان ، عن عطاء ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير (١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان نبى اللّه ، عليه السلام ، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأى شىء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، عَمِّ على الجن موتتى (٢) حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصًا ، فتوكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولا] (٣) فى العذاب المهين » .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : « فشكرت الجن الأرضة (٤) ، فكانت تأتيها بالماء»(٥).

وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث إبراهيم بن طَهْمان ، به . وفى رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفًا ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات ، وفى بعض حديثه نكارة .

وقال السُّدِّى ، فى حديث ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ــ وعن مُرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول اللّه ﷺ ، قال : كان سليمان يتحرر فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمى كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبْتَ دواء قالت : نَبَتَّ دواء لكذا وكذا . فيجعلها (٦) كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولأى شىء نَبَتِّ ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد . قال سليمان : ما كان اللّه ليُخَرِّبه وأنا حى ؟ أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس . فنزعها وغرسها فى حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئا على عصاه ، فمات ولا تعلم (٧) به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : ألست جلدا (٨) إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان، عليه السلام ، قد سقط ميتا . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا (٩) عنه

---

(١) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده » .
(٢) فى ت : « موتى » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، والطبرى .
(٤) فى ت ، س ، أ : « للأرضة » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٦) فى ت ، س : « فيجعل الشجرة » .
(٧) فى أ : « ولم يعلم » .
(٨) فى ت : « جليدا » .
(٩) فى هـ ، س : « فتنحوا » .

فأخرجوه . ووَجدوا منسأته ـ وهى : العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا [(١)] ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول الله [(٢)] عز وجل : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ . يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين ـ قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ـ قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين ، شكراً [(٣)] لها [(٤)] .

وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب ، وهى وَقْفٌ ، لا يصدق منها[(٥)] إلا ما وافق الحق ، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقى لا يصدق ولا يكذب [(٦)] .

وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ قال : قال سليمان ، عليه السلام ، لملك الموت : إذا أُمرتَ بى فأعلمنى . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن يعملون[(٧)] بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث الله ، عز وجل ، دابة الأرض . قال : والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها : القادح ـ فدخلت فيها فأكلتْها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتًا ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ . قال أصبغ : بلغنى عن غيره أنها قامت [(٨)] سنة تأكل منها قبل أن يخر [(٩)] . وقد ذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا ، والله أعلم .

﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)** ﴾ .

---

(١) فى ت ، س ، أ : « حولا كاملا » . (٢) فى ت : « قوله » . (٣) فى ت ، س ، أ : « تشكرا » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٥) فى س ، أ : « لا نصدق منه » . (٦) فى ت ، أ : « لا تصدق ولا تكذب » .
(٧) فى ت ، س ، أ : « تعمل » . (٨) فى ت : « أقامت » . (٩) فى أ : « تخر » .

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم [١] ، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث اللّه إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه [٢] بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء اللّه ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مَذرَ ، كما يأتى تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عبد اللّه بن هُبَيْرة ، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال : سمعت ابن عباس يقول [٣] : إن رجلا سأل رسول اللّه ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل [٤] أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عَشَرة [٥] ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فَمَذْحِجُ ، وكِندَةُ ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغَسان .

ورواه عَبدُ ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لَهيعة ، به [٦] . وهذا إسناد [٧] حسن ، ولم يخرجوه ، [وقد روى من طرق متعددة] [٨] . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصد والأمَمْ ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] [٩] أيضًا وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبى حيَّة الكلبى ، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَة ، عن فروة بن مُسيك قال : أتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يا رسول اللّه ، أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعانى فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول اللّه ، أرأيت سبأ ؛ أواد هو ، أو رجل [١٠] ، أو ما هو ؟ قال : « [لا] [١١] ، بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسَّان » .

وهذا أيضًا إسناد جيد [١٢] وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبى ، وقد تكلموا فيه [١٣] . لكن رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن العَنْقَزى [١٤] ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادى ، عن عمه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال : قدم فروة بن مُسَيك على رسول اللّه ﷺ ، فذكره [١٥] .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب، حدثنى ابن لهيعة ، عن توبة بن نَمر [١٦] ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة[١٧]

---

(١) فى ت ، س ، أ : « من جملتهم » .
(٢) فى أ : « ويشكروا له » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال » .
(٤) فى ت ، س : « أرجل » .
(٥) فى أ : « ولد له عشرة » .
(٦) المسند (١ / ٣١٦) .
(٧) فى ت : « وإسناده » .
(٨) زيادة من ت .
(٩) زيادة من ت ، س ، أ .
(١٠) فى أ : « أم جبل » .
(١١) زيادة من أ .
(١٢) فى أ : « حسن » .
(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥ / ١٧٨) وليس فى المطبوع من المسند .
(١٤) فى أ : « العبقرى » .
(١٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) .
(١٦) فى س ، أ : « نمير » .
(١٧) فى أ : « عبدة » .

ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يومًا : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثنى فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفى [١] قدم على رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول [٢] اللّه ، إن سبأ قوم كان لهم عز فى الجاهلية ، وإنى أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال: « ما أمرت فيهم بشىء بعد » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول اللّه ، ما سبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذى قبله : أن رسول اللّه ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، ولَد عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام : فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر [نزول] [٣] الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، واللّه [٤] أعلم .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو [٥] سَبْرَة النَّخَعِى ، عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفى [٦] قال : قال رجل : يا رسول اللّه ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » .

ورواه الترمذى فى جامعه ، عن أبى كُرَيْب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ، فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب [٧] .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث ابن سعد ، عن موسى بن على ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الدارى ؛ أن رجلا أتى رسول اللّه ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحَسّن [٨] .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول اللّه ﷺ فى زمانه [٩] المتقدم ، وقال فى ذلك شعرًا :

---

(١) فى أ: « القطيعى » . (٢) فى س ، أ : « يا نبى » (٣) زيادة من أ .
(٤) فى س : « فالله » . (٥) فى أ : « ابن » . (٦) فى أ : « القطيعى » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٢) .
(٨) القصد والأمم ص (٢٠) .
(٩) فى ت ، أ : « الزمان » .

سَيَمْلكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظيمًا ... نَبىّ لا يُرَخّصُ فى الحَرَام
وَيَمْلك بَعْدَه منْهُم مُلُوك ... يدينون العبادَ بغَير ذام
ويَملك بَعدهم منا مُلُوك ... يَصير المُلك فينَا باقْتسَام
وَيَمْلك بَعْدَ قَحطَان نَبى ... تَقى خَبْتَة خير الأنام
وسُمىَ أحْمَدًا يَا لَيْتَ أنى ... أعَمَرُ بَعْد مَبْعَثه بعَام
فأعضُده وأحبوه بنَصْرى ... بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظْهَرْ فكُونُوا نَاصريه ... وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغه سَلامى

ذكر ذلك الهمدانى فى كتاب « الإكليل » .

واختلفوا فى قحطان على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث(١) طرائق .

والثانى : أنه من سلالة عَابَر ، وهو هود ، عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمرى ، رحمه اللّه ، فى كتابه [المسمى] (٢) : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة (٣) » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل ، عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، واللّه أعلم . وفى صحيح البخارى : أن رسول اللّه ﷺ مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (٤) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث اللّه عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما (٥) قيل لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل (٦) ، كما قال حسان بن ثابت :

إمَّا سَألت فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ ... الأزدُ نسبَتُنا ، والماء غَسَّانُ (٧)

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان (٨) من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

(١) فى أ : « ثلاثة » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « بالرواة » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٥٠٧) من حديث سلمة ، رضى الله عنه .
(٥) فى ت : « وإن » . (٦) فى ت : « المسلك » وفى أ : « المسكن » .
(٧) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٨) فى ت : « كانوا » .

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من (١) كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل اللّه عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحُكمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف (٢) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شىء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية اللّه بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين (٣) ذلك ، ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد اللّه وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ ـ ٢٤]

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن مُنَبّه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا .

وقال السُّدِّى : أرسل اللّه إليهم اثنى عشر ألف نبى ، واللّه (٤) أعلم .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرَذ . وقيل : الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كُرْز » حكى ذلك السهيلى (٥) .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن اللّه ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرَذ » نقبته ـ قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

(١) فى ت : « فى » . (٢) فى ت : « يحترق » . (٣) فى أ : « من » .
(٤) فى ت ، س : « فالله » . (٥) الروض الأنف (١ / ١٥) .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخَلْد ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعُف ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء فى أسفل (١) الوادى ، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ **وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ** ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وعطاء الخُرَاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البَرير .

﴿ **وَأَثْلٍ** ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر . فاللّه أعلم .

وقوله : ﴿ **وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال : ﴿**وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنِك (٢) الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم باللّه ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا** (٣) **وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ** ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق اللّه العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج ابن محمد ، حدثنا أبو البيداء ، عن هشام بن صالح التغلبى (٤) ، عن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب على ، رضى اللّه عنه ـ قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال (٥) إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)** ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث

---

(١) فى ت : « أصل » . (٢) فى ت ، أ : « تلك » . (٣) فى ت : « بكفرهم » وهو خطأ .
(٤) فى ت : « وقال ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « حلالاً » .

إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد : والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُّدِّي ، وابن زيد وغيرهم [١] : يعني : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها [٢] : بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ،وقرأ آخرون:« بعد بين أسفارنا»،وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج اللّه لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال في حق هؤلاء : ﴿وَظَلَمُوا [٣] أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أي : بكفرهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناهم حديثا للناس ، وسَمَرًا يتحدثون به من [٤] خبرهم ، وكيف مكر اللّه بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » « وأيادي سبأ » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ [٥] » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت [٦] عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ [عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ] [٧] ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : وكانت فيهم

---

(١) في ت : « وخلق غيرهما » . (٢) في ت : « هي » . (٣) في ت ، س ، أ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا » .
(٤) في ت : « في » . (٥) في ت : « ومدر »
(٦) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة » . (٧) زيادة من ت ، س ، أ .

كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة (١) بشيء من أخبار (٢) السماء ، فكان (٣) فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلهم (٤) . فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيه ـ وهو أعزهم أخوالا ـ : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتك فانتهرني ، فإذا تناولتك فالطمني . فقال : يا أبت، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بني ، قد حدث أمر لابد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بني ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابني يلطمني؟ عَلَيّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا : تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبحه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي (٥) فيه ، اشتروا مني دوري ، اشتروا مني أرضي ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن في يده وأحرزه ، قال : أي قوم، إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير ـ وكلمة ، قال (٦) إبراهيم : لم أحفظها ـ فليلحق (٧) ببصْرَى ، ومن أراد الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل ، المقيمات في الضحل ، فليلحق (٨) بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه (٩) ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغي به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى .

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم(١٠) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ـــ فيما حدثني أبو زيد الأنصاري ـــ : أنه رأى جرذًا يَحفر (١١) في سد مأرب ، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد (١٢) قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيها أصغر ولدي (١٣) . وعرض أمواله ، فقال

---

(١) في س : « فأخبروا به الكهنة » . (٢) في أ : « خبر » . (٣) في س : « وكان » .
(٤) في أ : « أضلهم » . (٥) في ت ، س : « ابني » . (٦) في ت : « قالها » .
(٧) في ت : « فيحق » . (٨) في ت : « فليحق » . (٩) في س : « قومنا » .
(١٠) في ت : « كهناتهم » . (١١) في س : « تحفر » .
(١٢) في ت ، س : « وكاد » . (١٣) في ت : « أولادي » .

أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غَضْبَةَ عمرو . فاشتروا منه أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا (١) حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجَالا . ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكَ بنُ عَدنَانَ الذينَ تَغَلَّبُوا بَغَسَّانَ ، حتى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَد

وهذا البيت من (٢) قصيدة له .

قال : ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جَفْنَة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرّاً . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمَان عُمان ، ثم أرسل اللّه على السد السيل فهدمَه ، وفى ذلك أنزل اللّه عز وجل هذه الآيات (٣) .

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، فتفرقوا » . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] (٤) ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر ـ وهو عم القوم ـ كان كاهنًا ، فرأى فى كهانته أن قومه سَيمَزّقون ويباعَدُ بين أسفارهم . فقال لهم : إنى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهَمّ بعيد وجمل شديد ، ومَزَاد جَديد ـ فليلحق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هَمّ مُدْن، وأمر دَعْن ، فليلحق بأرض شَنْ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا آنيا ، وحرما آمنا ، فليلحق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخَميرا ، وذهبا وحريرا ،وملكا وتأميرا ، فليلحق بكُوثى وبُصرى ، فكانت غسانَ بنو جَفنة (٥) ملوكُ الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو ابن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت فى كهانتها ذلك ، فاللّه أعلم أىّ ذلك كان (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبى : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم اللّه كل ممزق . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى ـ أعشى بنى قيس بن ثعلبة ـ واسمه : ميمون بن قيس :

---

(١) فى ت : « فسار » . (٢) فى ت ، س : « فى » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٤) زيادة من ت ، والطبرى . (٥) فى ت : « بنو حنيفة » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٩) .

وَفى ذَاكَ للمُؤتَسى (١) أسْوَةٌ ومَأربُ عفّى عَلَيها العَرِمْ
رُخَام بَنَتْه لَهُمْ حمْيرُ إذا جاءَ مَوَارهُ لم يَرمْ
فَأرْوَى الزرُوعَ وأعنَابَها عَلَى سَعَة مَاؤهُمْ إذْ (٢) قُسّم
فَصَارُوا أيادى مَا يَقْدرُو نَ منْه عَلَى شُرب طِفْل فُطِم (٣)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً ودَلالةً لكل عبد صبار (٤) على المصائب ، شكور على النعم .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد ، عن أبيه ـ هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حَمدَ ربَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء ، حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته» .

وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السَّبيعى ، به (٦) ـ وهو حديث عزيز ـ من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : «عجبًا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا (٧) ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» (٨) .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن (٩) قتادة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: كان مطرِّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر [الله] (١٠) تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ .

---

(١) فى ت : « وفى ذلك للمتوسى » . (٢) فى ت : « إذا » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٤) .
(٤) فى ت : « صبار شكور على » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (١ / ١٧٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠٦) .
(٧) فى ت ، س : « خيراً له » .
(٨) لم أجده من حديث أبى هريرة ، وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ، رضى الله عنه .
(٩) فى ت : « وعن » . (١٠) زيادة من ت .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢]، ثم قال (١) : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الحسن البصرى : لما أهبط اللّه آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط (٢) إبليس فَرحا بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظنًا من إبليس ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدُه (٣) وأُمَنّيه وأخدعه » . فقال اللّه : «وعزتى لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغر بالموت ، ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له » . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ : قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصرى : واللّه ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيُحسِنَ عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ .

بيَّن (٤) تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس للّه من (٥) هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل

---

(١) فى ت ، س : « وقال » . (٢) فى أ : « أهبط » . (٣) فى ت ، س : « أغره » .
(٤) فى ت ، س ، أ : « يبين » . (٥) فى ت : « فى » .

الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

وقال (١) : ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته [وجلاله] (٢) وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ [وَيَرْضَىٰ] (٣) ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ولهذا ثبت فى الصحيحين (٤) ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله ـ : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع (٥) ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » الحديث بتمامه .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ . وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أُرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أى :زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وإبراهيم النَّخَعىّ ، والضحاك والحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلِّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعا ـ : « [حَتَّى] (٦) إِذَا فرغ» بالغين (٧) المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أى: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة.

وقال الحسن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك ،

---

(١) فى ت : « ثم قال » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، أ .

(٤) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .

(٥) فى س ، أ : « تسمع » . (٦) زيادة من أ . (٧) فى ت : « بالعين » .

قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة (١) . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره :

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكْرِمة ، سمعت أبا هُرَيرة (٢) يقول : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمرَ فى السماء ، ضربَت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانَ ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُسْتَرق السمع ، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه (٣) فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده ـ فَحَرّفها وبَدّد (٤) بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر(٥) أو الكاهن : فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذْبَة ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا (٦) وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة ، به (٧) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ [جالسًا] (٨) فى نفر من أصحابه ــ قال عبد الرزاق : « من الأنصار » ــ فَرُمىَ بنجم فاستنار ، [قال] (٩) : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم ، أو يموت (١٠) عظيم ـ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلّظت حين بعث النبى ﷺ ـ قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه (١١) الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] (١٢) : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .

هكذا رواه الإمام أحمد (١٣) . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كَيْسَان ،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٤) .
(٢) فى ت : « قال البخارى عند تفسيره هذه الآية الكريمة فى صحيحه بإسناده عن أبى هريرة » .
(٣) فى أ : « بعضهم » . (٤) فى أ : « وسدد » .
(٥) فى أ : « الآخر » . (٦) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٤) .
(٨ ، ٩) زيادة من ت ، س ، والمسند . (١٠) فى ت ، س : « ويموت » .
(١١) فى ت ، س : « السماء » . (١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند .
(١٣) المسند (١ / ٢١٨) .

والأوزاعى ، ويونس ومَعْقِل بن عبيد الله [١] ، أربعتهم عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به [٢] . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار [٣] . وكذا رواه النسائى [٤] فى « التفسير » من حديث الزبيدى ، عن الزهرى ، به [٥] . ورواه الترمذى فيه عن الحُسَين بن حريث ؛ عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضى الله عنه [٦] ، والله [٧] أعلم .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى ـ والسياق لمحمد بن عوف ـ قالا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمن بن يزيد [٨] بن جابر ، عن عبد الله بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سَمْعان [٩] قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه [١٠] رجفة ـ أو قال : رعدة ـ شديدة ؛ من خوف الله ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيمضى به جبريل على الملائكة ، كلما مَرّ بسماء سماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول: قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير وابن خُزَيمة ، عن زكريا بن أبان المصرى ، عن نعيم بن حماد ، به [١١] .

قال ابن أبى حاتم : سمعت أبى يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه الله .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث العَوفى ، عن ابن عباس ــ وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

(١) فى س : « بن عبد الله » .
(٢ ، ٣) صحيح مسلم برقم (٢٢٢٩) .
(٤) فى ت : « وكذا رواه النسائى والترمذى » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٤) .
(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٢) .
(٧) فى س : « فالله » .
(٨) فى أ : « زيد » .
(٩) فى ت : « حديث آخر رواه ابن جرير بإسناده عن النواس بن سمعان » .
(١٠) فى أ : « منها » .
(١١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٣) والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٥١٥) من طريق محمد بن عوف ، عن نعيم بن حماد ، به .

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق [1] ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء [2] والأرض ـ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ : هذا من باب اللف والنشر ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد .

وقال عكْرِمة وزياد بن أبى مريم : معناه : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين .

وقوله : ﴿ **قُل لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ : معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن** [3] **كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ **قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا** ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع [بين] [4] الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ [الروم : ١٤ ـ ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ **وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ** ﴾ أى : الحاكم [5] العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ **قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ** ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدْلا . ﴿ **كَلاَّ** ﴾ أى : ليس له نظير ولا نَديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ **بَلْ هُوَ اللَّهُ** ﴾ : أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر

---

(١) فى ت : « بفرضه بالرزق والخلق » . (٢) فى ت ، أ : « السموات » .
(٣) فى هـ ، ت ، س ، أ : « فإن » والصواب ما أثبتناه . (٤) زيادة من ت . (٥) فى ت ، أ : « الحكام » .

بها كل شيء ، وَغَلَبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه [١] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ[٢] ﴾ : أي : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله [٣] تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]. ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي تبشر [٤] من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله [٥] تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

قال محمد بن كعب في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعني : إلى الناس عامة .

وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله عز وجل .

وقال ابن أبي حاتم :حدثنا أبو عبد الله الظهراني ،حدثنا حفص بن عمر العَدَني ،حدثنا الحكم ـ يعني : ابن أبان [٦] ـ عن عكْرِمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله [٧] على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذي قاله ابن عباس قد ثبت في الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي . وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » [٨] .

وفي الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » [٩] . قال مجاهد : يعني : الجن والإنس . وقال غيره : يعني : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

(١) في ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٢) في ت : « للناس بشيراً » . (٣) في ت ، س : « لقوله » . (٤) في س : « يبشر » .
(٥) في ت : « لقوله » . (٦) في ت : « روى ابن أبي حاتم بإسناده » . (٧) في ت ، س : « فما فضله » .
(٨) صحيح البخاري برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .
(٩) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم في صحيحه برقم (٥٢١) .

صادقين ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] .

ثم قال : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم [(١)] أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير [(٢)] دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتَغُرّونا وتُمَنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن .

قال قتادة ، وابن زيد [(٣)] : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من

(١) فى س ، أ : « بكم ذلك » . (٢) فى ت ، س ، أ : « بغير » . (٣) فى ت ، أ : « ابن زيد بن أسلم » .

المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلٌّ نَدم على ما سَلَف منه .

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١] ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم [٢] ، كُلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان [٣] بن الأصبهانى ، عن أبى سِنان ضرار بن صُرَد ، عن عبد الله بن أبى الهُذَيل [٤] ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها ، ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يبق لحم [٥] إلا سقط على العرقوب » [٦] .

وحدثنا [٧] أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال : فحدثتُه أبا سليمان ـ يعنى : الدارانى ، رحمة الله عليه [٨] ـ فبكى ثم قال : ويحك . فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُلّ فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار ؟ !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى مسليا لنبيه ، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً فى قرية إلا كذبه [٩] مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

---

(١) فى ت ، س : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . (٢) فى أ : « نجازيهم بأعمالهم » . (٣) فى أ : « سليم » .
(٤) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « فلم يبق لهم لحم » .
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٨) « مجمع البحرين » وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٦٣) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٩) : « وفيه محمد بن سليمان الأصبهانى وهو ضعيف » .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت : « رحمه الله » . (٩) فى ت : « إلا كفر به » .

أُرسلَ به مُؤْمنُونَ . قَالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم به كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣] ؟ وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ] (١) ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقال هاهنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ أى : نبى أو رسول ﴿ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبَابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى : لا نؤمن به ولا نتبعه .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبى رَزين قال : كان رجلان شريكان (٣) خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما (٤) اتبعه أراذل (٥) الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ـ قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب ـ قال : فأتى النبى ص فقال : إلام تدعو ؟ قال: « إلى كذا وكذا » . قال : أشهد أنك رسول الله . قال : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية (٦) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾[الآيات] (٧) ، قال : فأرسل إليه النبى ﷺ « إن الله قد أنزل تصديق ما قلت » (٨) .

وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أى: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾[المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم (٩) بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١١ ــ ١٧].

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت ، س : « شريكين » .
(٤) فى س : « إلا » . (٥) فى ت ، س : « رذالة » .
(٦) فى ت ، س : « الآيات » . (٧) زيادة من ت ، س .
(٨) ورواه ابن أبي شيبة وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٦ / ٧٠٤) ووقع فى الدر : « ابن زيد » بدل : « أبو رزين » .
(٩) فى ت ، س : « أن يعذبهم » .

وقد أخبر اللّه عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغنِ عنه شيئا ، بل سُلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى** ﴾ أى : ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال [١] الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا كَثير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال سول اللّه ﷺ [٢] : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . [و] [٣] رواه مسلم وابن ماجة ، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بُرْقَان ، به [٤] .

ولهذا قال : ﴿ **إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ **فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** ﴾ أى : تضاعف [٥] لهم الحسنة بعشرة [٦] أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال [٧] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن فى الجنة لَغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، [وصلى بالليل والناس نيام] [٨] » [٩] .

﴿ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل اللّه ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ، ﴿ **أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ أى : جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ** ﴾ أى : بحسب مَا لَه فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى

---

(١) فى ت : « كما روى » . (٢) فى ت ، س : « أن رسول الله ﷺ قال » . (٣) زيادة من س .

(٤) المسند (٢ / ٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣) .

(٥) فى س : « يضاعف » . (٦) فى ت ، س ، أ : « بعشر » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٨٤) من طريق على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقد تكلم أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى » . قلت : وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى وأبى معانق الأشعرى ، رضى الله عنهم .

مُوَسَّع عليه ، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمرَات فى أسفل الدركات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورُزق كَفَافا، وقَنَّعه الله بما آتاه » . رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو [١] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى الحديث [٢] : « يقول الله تعالى : أنْفق [٣] أنْفق عليك » [٤] . وفى الحديث : أن ملكين يَصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمْسكا تَلَفًا»، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا خَلَفًا » [٥] وقال رسول الله ﷺ « أنفق بلالا ، ولا تخشَ من ذى العرش إقلالا » [٦] .

وقال [٧] ابن أبى حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس ، حدثنا هُشَيْم عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعدكم [٨] زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يده [٩] حذار الإنفاق » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [١٠] .

وقال [١١] الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيم ، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال : بلغنى عن حذيفة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعض الموسر على ما فى يديه حذار الإنفاق » ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، ويَنْهَل شرار الخلق يبايعون كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، [ألا أن بيع المضطرين حرام] [١٢] المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف ، فَعُد به على أخيك ، وإلا فلا تَزده هلاكا إلى هلاكه » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده ضعف [١٣] .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٢) فى ت : « فى الصحيح » . (٣) فى أ : « ابن آدم أنفق » .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٦٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٩٣) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم فى صحيحه برقم (١٠١٠) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٦) جاء عن جماعة من الصحابة ، فرواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٠) من طريق قيس بن الربيع عن أبى حصين ، عن يحيى ابن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، وقيس بن الربيع ضعفوه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٤٢)، وأبو يعلى فى مسنده (١٠ / ٤٢٩) وأبو نعيم فى الحلية (٢ / ٢٨٠) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١ / ٣٥٩) من طريق أبى إسحاق عن مسروق عن بلال ، رضى الله عنه ، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى س : « بعدكم هذا زمان » . (٩) فى ت ، س : « يديه » .

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر (٦ / ٧٠٧) وقال : « أخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره » .

(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) زيادة من ت ، س .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (١ / ٢٦١) وعزاه لأبى يعلى فى مسنده .

الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُه ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى اللّه زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُون ﴾ ؟ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيل ﴾ [الفرقان : ١٧] ،وكما يقول لعيسى : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِن ﴾ يعنون: الشياطين ؛ لأنهم هم الذين [(١)] يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم [(٢)] ، ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ [(٣)] مِن دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ [(٤)] إِلا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ـ وهم المشركون ـ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى

(١) فى هـ : « الشياطين ثم الذين » والمثبت من ت ، س .
(٢) فى س : « ويضلوهم » .
(٣ ، ٤) فى س : « تدعون » .

عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله (١) ﷺ ، ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ـ ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إلا إفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم ، ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة في الدنيا . وكذلك (٢) قال قتادة ، والسدّى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى (٣) ؟

﴿ قُلْ إنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياما خالصًا لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسُّدِّىّ ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعطيت ثلاثا لم يعطهن مَن قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبى يبعث

---

(١) فى ت : « رسول الله » .
(٢) فى ت ، س : « وكذا » .
(٣) فى ت : « أى فكيف كان عقابى وانتصارى لرسلى » .

إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، أتيمم بالصعيد ، وأصلى حيث أدركتنى الصلاة ، قال اللّه : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ ، وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدى » ـ فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفرادى بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال (٢) البخارى عندها :

حدثنا على بن عبد اللّه ، حدثنا محمد بن خَازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرَّة ، عن سعيد بن جُبَيْر (٣) ، عن ابن عباس قال : صَعِدَ النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب: تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل اللّه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (٤) .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد اللّه بن بريدة (٥) ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول اللّه ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم ـ ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد (٦) قال رسول اللّه ﷺ : « بعثت أنا والساعة جميعًا ، إن كادت لتسبقنى » .

تفرد به الإمام أحمد فى مسنده (٧) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة اللّه إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة اللّه ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

(١) سبق تخريج حديث جابر ، رضى اللّه عنه ، فى الصحيحين عند تفسير الآية : ٢٨ من هذه السورة .

(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) .

(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن زيد » . (٦) فى ت « وبإسناده » .

(٧) المسند (٥ / ٣٤٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ] (١) ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعُن الصنم (٢) بسيَة قَوْسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخبَرَة ، عن ابن مسعود ، به (٣) .

أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك . وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا (٤) ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة فى المفوَضة : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه (٥) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبي موسى الذى فى الصحيحين [أن رسول الله ﷺ قال] (٦) : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا (٧) قريبا مجيبا » (٨) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت ، س ، أ : « الصنم منها » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٨) .

(٤) فى ت : « الآية » .

(٥) انظر الأثر فى المسند (١ / ٤٧٧) .

(٦) زيادة من ت ، أ . (٧) فى أ : « سميعا بصيرا » .

(٨) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٧) وصحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤) .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى : ولو ترى ـ يا محمد ـ إذا فَزِع هؤلاء المكذبون [١] يوم القيامة ، ﴿ فَلا فَوْتَ ﴾ أى: فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يكونوا يُمنعون فى الهرب[٢] ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم .

وقال مجاهد ، وعطية العوفى ، وقتادة : من تحت أقدامهم .

وعن ابن عباس والضحاك : يعنى : عذابهم فى الدنيا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر .

والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس ، ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله [٣] ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى[٤] الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ ﴾ قال : التناول لذلك .

وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين [٥] رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسل ؟

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ : قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال: بالظن .

---

(١) فى ت : « المكذبين » . (٢) فى ت : « لم يمكنوا أى يمنعوا عن الهرب » ، وفى س ، أ : « لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب » .
(٣) فى ت ، أ : « وبرسله » . (٤) فى ت ، س ، أ : « تعاطى عن » . (٥) فى ت ، أ : « وليس هو حين » .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب (١) والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى: الإيمان .

وقال السُّدِّى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى [ذلك] (٢) عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثرًا غريبا [عجيباً] (٣) جدًا ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامى (٤) ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَّرَقِىّ بن قُطَامى ، عن سعد بن طريف ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحًا ـ أى : فتح الله له مالا ـ فمات فورثه ابن له تافه ـ أى : فاسد ـ فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله . فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجَة فسرَح فيها ماله، وابتنى قصرًا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمَلت عليه [ريح] (٥) بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجا ـ أى : ريحًا ـ فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل. قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت: فكيف يَهْنيك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك . فهل لك من بَعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إنى امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزوّد زاد يوم وائتنى ، وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يَهُولَنَّكَ . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ، فقرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا ــ أى:ريحًا ــ فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلى . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] (٦) قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس علىّ ، لهالنى الذى رأيت ؛ أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة

---

(١) فى ت ، س ، أ : « بالبعث » .
(٢) زيادة من ت .
(٣) زيادة من س ، أ .
(٤) فى ت : « الشامى » .
(٥ ، ٦) زيادة من ت ، س ، والدر المنثور .

فاها ، ففزعت ، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جراؤها ينبحن فى بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة فى مجلسهم ويُبَزّهم حديثهم .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل ، وإذا فيها جَدْى يمصّها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئًا ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئًا فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبنى غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتنى شجرة أخرى : « يا عبد اللّه ، منى فخذ » . حتى نادانى الشجر أجمع : « يا عبد اللّه ، منا فخذ » . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر (١) النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تَصَدعوا عنه صَبّ فى جَرّته فلم تَعلَق جَرته من الماء بشىء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصى اللّه .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذَنَبها ، وإذا رجل (٢) قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال: أما العنز فهى الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقًا ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها (٣) فقد تركها. وأما الذى يحلبها فبَخٍ [بخ] (٤) ، ذهب ذلك (٥) بها .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، وإذا أنا برجل يمْتح على قَليب ، كلما أخرج (٦) دلوه صبّه فى الحوض ، فانساب الماء راجعًا إلى القليب . قال : هذا رجل رَدّ اللّه [عليه] (٧) صالح عمله، فلم يقبله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أن برجل يبذُر بذرًا فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة. قال : هذا رجل قبل اللّه صالح عمله ، وأزكاه (٨) له .

قال : ثم أقبلت حتى [إذا] (٩) انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد اللّه ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فواللّه ما قعدت منذ خلقنى اللّه فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمرْ الأبعد نَفَد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك (١٠) . . . أمرنى اللّه بقبض روح الأبعد فى هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ الآية .

---

(١) فى ت : « وتكثر » . (٢) فى ت ، س ، أ : « راكب » . (٣) فى ت ، س ، أ : « الذى قد ركبها » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ ، والدر المنثور . (٥) فى ت ، س ، أ : « ذاك » . (٦) فى أ : « فلما أن خرج » .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ . (٨) فى أ : « وزكاه » .
(٩) زيادة من ت ، س . (١٠) فى أ : « أتيتك » .

هذا أثر غريب [١] ، وفى صحته نظر ، وتنزيل [هذه] [٢] الآية عليه وفى حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهى .

وقوله : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر تفسير سورة « سبأ » ، ولله الحمد والمنة

---

(١) الأثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٧١٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) زيادة من ت .

/ سورة سبأ[1] [٣٥٨ظ]

مكّيّة، وقيل: إلّا قوله تعالى:

﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيَةَ [سبأ، ٦/٣٤]،[2] وهي أربع وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ①﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له تعالى خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، بالإيجاد والإعدام، والإحياءِ والإماتة؛ جميعُ ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكّنًا فيهما، فكأنّه قيل: له جميع المخلوقات، كما مرّ في آية الكرسي.[3] ووصفُه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليقُ "الحمد" المعرَّف بـ"لام" الحقيقة بالاسم الجليل مِن اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بُيِّن في فاتحة الفاتحة ببيان تفرّدِه تعالى واستقلالِه بما يوجب ذلك، وكونِ كلِّ ما سواه مِن الموجودات التي مِن جملتها الإنسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حدّ ذاتها استحقاق الوجود فضلًا عمّا عداه مِن صفاتها؛ بل كلّ ذلك نِعم فائضة عليها مِن جهته عزّ وجلّ،[4] فما هذا شأنه فهو بمَعزِل مِن استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاص جميع أفراده به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثرَ بيان اختصاص الدنيوي به، على أنّ الجارّ متعلِّق إمّا بنفس الحمد،

---

[1] س: السبأ.

[2] ط س – وقيل: إلّا قوله تعالى: ﴿وقال ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الآيَةَ [سبأ، ٦/٣٤].

[3] البقرة، ٢٥٥/٢.

[4] س: تعالى.

أو بما تعلّق به الخبر مِن الاستقرار. وإطلاقُه عن ذِكر ما يُشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذِكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفي فيما سبق بذِكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذِكر كون الحمد أيضًا فيها؛ بل ليعمّ النعم الأخرويّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ[1] ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر، ٧٤/٣٩]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الآيةَ [فاطر، ٣٥/٣٥]، وما يكون ذريعةً إلى نَيلها مِن النعم الدنيويّة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف، ٤٣/٧]، أي: لِما جزاؤه هذا مِن الإيمان والعمل الصالح. والفرق بين الحمدَين مع كون نعمتَي الدنيا والآخرة بطريق التفضّل أنّ الأوّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر: «أنّهم يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النفَس».[2]

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكَم أمور الدين والدنيا ودبّرها حسبما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء / ومكنوناتها. [٣٥٩و]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ تفصيل لبعض ما يُحيط به علمه مِن الأمور التي نِيطت بها[3] مصالحهم الدنيويّة والدينيّة، أي: يعلم ما يدخل فيها مِن الغَيث والكنوز والدفائن والأموات ونحوها، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها، ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها. وقُرئ: "وَمَا نُنَزِّلُ"[4] بالتشديد و"نون" العظَمة.[5] ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخِرة والأدخِنة. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ للحامدين على ما ذُكر مِن نِعمه، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرّطين في ذلك بلطفه وكرمه.

---

[1] م ط س - ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٧١/١. وهو في صحيح مسلم، ٢١٨٠/٤ (٢٧٣٥)، بلفظ: "كما تُلهمون".

[3] س: به.

[4] ط: وما يُنَزِّل؛ س: وما تُنَزّل.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسَهم أو معاصريهم فقط، كما أرادوا بنفي إتيانها نفيَ وجودِها بالكلّيّة، لا عدمَ حضورها مع تحقّقها في نفس الأمر. وإنّما عبّروا عنه بذلك لأنّهم كانوا يوعَدُون بإتيانها، ولأنّ وجود الأمور الزمانيّة المستقبَلة -لا سيّما أجزاء الزمان- لا يكون إلّا بالإتيان والحضور.

وقيل: هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهُزء والسخريّة كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠].

﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لِما نفَوه، على معنى: ليس الأمر إلّا إتيانَها. وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ تأكيد له على أتمّ الوجوه وأكملِها. وقُرئ: "لَيَأْتِيَنَّكُمْ"،[1] على تأويل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ باليوم أو الوقت.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾... إلخ إمداد للتأكيد، وتسديدٌ له إثرَ تسديد، وكسرٌ لسَورة نكيرهم واستبعادِهم، فإنّ تعقيب القسَم بجلائل نعوت المُقسَم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسَم عليه، وقوّةِ ثباته، وصحّته لِما أنّ ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر. ولا ريبَ في أنّ المستشهَد به كلّما كان أجلَّ وأعلى كانت الشهادة آكدَ وأقوى، والمستشهَدُ عليه أحقَّ بالثبوت وأولى، لا سيّما إذا خُصّ بالذِّكر مِن النُّعوت / ما له تعلّق خاصّ بالمقسَم عليه كما نحن [٣٥٩ظ]
فيه، فإنّ وصفه بـ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي أشهر أفراده وأدخلُها في الخفاء هو المقسَم عليه تنبيهٌ لهم على علّة الحكم، وكونِه ممّا لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما.

وفائدة الأمر بهذه المرتبة مِن اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلًا، فإنّهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وَصمة الكذب فضلًا عن اليمين الفاجرة، وإنّما لم يصدّقوه مكابرةً.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

وقُرئ: "عَلَّامِ الْغَيبِ"،[١] و"عَالِمُ الْغَيبِ"،[٢] و"عَالِمُ الْغُيُوبِ" بالرفع[٣] على المدح.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يبعُد. وقُرئ بكسر "الزاء".[٤] ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مِقدارُ أصغر نملة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٌ فيهما، ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن مِثقال ذرّة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾ أي: منه، ورفعُهما على الابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ. والجملة مؤكِّدة لنفي العُزُوب.

وقُرئ: "وَلَا أَصْغَرَ" "وَلَا أَكْبَرَ" بفتح "الراء"[٥] على نفي الجنس. ولا يجوز أن يعطف المرفوع على ﴿مِثْقَالُ﴾، ولا المفتوحُ على ﴿ذَرَّةٍ﴾ بأنّه فتحٌ في حيّز الجرّ لامتناع الصرف، لِما أنّ الاستثناء يمنعه، إلّا أن يُجعل الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ للغيب، ويُجعل المثبَت في اللوح خارجًا عنه لبروزه للمطالعين له، فيكون المعنى: لا ينفصل عن الغيب شيء إلّا مسطورًا في اللوح.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علّة لقوله تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾،[٦] وبيان لِما يقتضي إتيانها. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول مِن حيث اتّصافُه بما في حيّز الصِّلة، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لِما فرَط منهم مِن بعض فَرَطات / قلّما يخلو عنها البشر، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعبَ فيه ولا مَنَّ عليه. [٣٦٠و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقَدْح فيها وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين كي يفوتونا. وقُرئ: "مُعَجِّزِينَ"،[٧] أي: مثبِّطين عن الإيمان مَن أرادَه.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.

٤ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وقتادة والحسين عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

٦ في الآية السابقة.

٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ آنفًا. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رِّجۡزٍ﴾ للبيان. قال قتادة رضي الله عنه: «"الرِّجز" سوء العذاب».[1]

وقوله تعالى: ﴿أَلِيمٞ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٞ﴾، أي: أولئك الساعون لهم عذابٌ مِن جِنس سوء العذابِ شديدُ الإيلام. وقُرِئ: "أَلِيمٍ" بالجرّ[2] صفةً لـ﴿رِجۡزٍ﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: يعلم أولو[3] العلم مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَن شايعهم مِن علماء الأمّة، أو مَن آمَن مِن علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابِهما رضي الله تعالى[4] عنهم ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآنَ ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ بالنصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿يَرَى﴾، والمفعول الأوّل هو الموصول الثاني، وهو ضمير الفصل. وقُرئ بالرفع[5] على الابتداء والخبر، والجملة هو المفعول الثاني لـ﴿يَرَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾... إلخ مستأنَف مَسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل: منصوب عطفًا على ﴿يَجۡزِيَ﴾،[6] أي: ولِيعلمَ أولو[7] العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنّه الحقّ حسبما علموه الآن برهانًا، ويحتجّوا به على المكذّبين. وقد جُوّز أن يراد بـ"أولي العلم" مَن لم يؤمن مِن الأحبار، أي: ليعلموا يومئذ / أنّه هو الحقّ، فيزدادوا حسرةً وغمًّا. [٣٦٠ظ]

﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ عطفَ الفعل على الاسم؛ لأنّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾ [الملك، ١٩/٦٧]، أي: وقابضاتٍ، كأنّه قيل:

---

١ جامع البيان للطبري، ٢١٣/١٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/٣.
٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.
٣ م: أولوا.
٤ س - تعالى.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.
٦ سبأ، ٤/٣٤.
٧ م: أولوا.

ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الحقَّ وهاديًا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيد والتدرُّع بلباس التقوى.

وقيل: مستأنَف.[١] وقيل: حال مِن ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ﴾ على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قول مَن قال:

نجوتُ وَأَرْهَنُهم[٢] مالِكًا[٣]

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم كفّار قريش، قالوا مخاطِبًا بعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما قصدوا بالتنكير الطَّنْزَ[٤] والسخرية، قاتلَهم الله تعالى.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يحدّثكم بعَجَبٍ عُجابٍ. وقُرئ: "يُنْبِئُكُمْ"[٥] مِن "الإنباء". ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: إذا مُتُّم ومُزِّقَت أجسادكم كلَّ تمزيق، وفُرِّقَت كلَّ تفريق بحيث صِرتم ترابًا ورُفاتًا؛ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: مستقِرّون فيه. عُدِل إليه عن الجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث -مثل: تُبعَثون، أو تُخلقون خلقًا جديدًا- للإشباع في الاستبعاد والتعجيب، وكذلك تقديم الظرف، والعاملُ فيه ما دلَّ عليه المذكور لا نفسُه، لِما أنّ ما بعد "إنَّ" لا يعمل فيما قبلها. و﴿جَدِيدٍ﴾ "فَعيل" بمعنى "فاعل"، مِن "جَدَّ" فهو "جَديد"، و"قَلّ" فهو "قَليل". وقيل: بمعنى "مفعول"، مِن "جَدَّ النَّسّاجُ الثوبَ" إذا قطَعَه، ثمّ شاع.

---

١ السياق: ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ عطفٌ... وقيل: مستأنَف...

٢ هو في م "وَأَرْهَنُهم" بضمّ "النون". وفي لسان العرب لابن منظور، «رهن»: «قال ثعلَب: الرواة كلّهم على "أَرهنْتُهم" إلّا الأصمعي، فإنّه رواه "وَأرهَنُهم مالِكًا" على أنّه عطف بفعل مستقبَل على فعل ماض».

٣ صدره:

فلمّا خشيتُ أظافيرهم

لعبد الله بن همّام السَّلولي في الصحاح للجوهري، «رهن». ولهمّام بن مرّة في لسان العرب لابن منظور، «رهن».

٤ الطَّنْزُ: السُّخرية. الصحاح للجوهري، «طنز».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٨.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما قاله ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. والاستدلال بهذا الترديد على أنّ بين الصدق والكذب واسطةً هو ما لا يكون مِن الإخبار عن بصيرةٍ بيّنُ الفساد، لظهور كون الافتراء أخصَّ مِن الكذب.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ جواب مِن جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالإضراب عن شِقَّيه، وإبطالِهما، وإثباتِ قسم ثالث كاشفٍ عن حقيقة الحال، ناعٍ عليهم سوءَ حالهم، وابتلاءِهم بما قالوا في حقّه عليه السلام، كأنّه قيل: ليس الأمر كما زعموا؛ بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدّي إليه ذلك / مِن العذاب، ولذلك يقولون ما يقولون. [٣٦١و]

وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبِعه للمسارعة إلى بيان ما يَسوءهم ويَفُتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتّبه عليه، كأنّه يُسابقه فيَسبقه. ووصفُ الضلال بالبُعد الذي هو وصف الضالّ للمبالغة. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتنبيه بما في حيّز الصِّلة على أنّ علّةَ ما ارتكبوه واجترءوا عليه مِن الشناعة الفظيعة كفرُهم بالآخرة وما فيها مِن فنون العقاب، ولولاه لَما فعلوا ذلك خوفًا مِن غائلته.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مَسوق لتهويل ما اجترءوا عليه مِن تكذيب آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقّه عليه السلام، وأنّه مِن العظائم الموجِبة لنزول أشدّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب مِن غير رَيثٍ وتأخير. و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ﴾... إلخ بيان لِما ينبئ عنه ذِكر إحاطتهما بهم مِن المحذور المتوقَّع مِن جهتهما. وفيه تنبيه على أنّه لم يبقَ مِن أسباب وقوعه إلّا تعلّقُ المشيئة به، أي: أَفَعلوا ما فعلوا مِن المنكَر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم مِن جميع جوانبهم بحيث لا مفرَّ لَهم عنه ولا محيصَ؟ إن نَشَأْ جَزيًا على موجَب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون، ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة، لاستيجابهم[1] ذلك بما ارتكبوه مِن الجرائم.

وقيل: هو تذكير بما يعاينون ممّا يدلّ على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحةً لاستحالتهم البعثَ حتّى جعلوه افتراء وهزؤًا وتهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم مِن السماء والأرض، ولم يتفكّروا أهُم أشدّ خلقًا أم هي؟ وإن نشأ نَخسف بهم الأرض، أو نسقط عليهم كسفًا، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البيّنات، فتأمّل، وكُن على الحقّ المُبين.

وقُرئ: "يَخْسِفْ"، و"يُسْقِطْ" بـ"الياء"،[2] لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾،[3] و"كِسْفًا" بسكون "السين".[4]

[٣٦١ظ] / ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن السماء والأرض مِن حيث إحاطتهما بالناظر مِن جميع الجوانب، أو فيما تُلي مِن الوحي الناطق بما ذكر ﴿لَءَايَةً﴾ واضحةً ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ شأنه الإنابةُ إلى ربّه، فإنّه إذا تأمّل فيهما أو في الوحي المذكور ينزَجر عن تعاطي القبائح، وينيب إليه تعالى.

وفيه حثّ بليغ على التوبة والإنابة، وقد أُكِّد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه لِحُسن إنابته وصحّةِ توبته فضلًا على سائر الأنبياء عليهم السلام، أي: نوعًا مِن الفضل، وهو ما ذُكِر بَعدُ، فإنّه معجزة خاصّة به عليه السلام، أو على سائر الناس، فيندرج فيه النبوّة والكتاب والملك والصوت الحسن،

---

[1] س: لاستيحابهم.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٩.

[3] في الآية السابقة.

[4] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير رواية حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٩.

فتنكيره للتفخيم. و﴿مِنَّا﴾ لتأكيد فخامته الذاتيّة بفخامته الإضافيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ[1] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف، ٦٥/١٨]. وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا وردها يتمكّن عندها فضلَ تمكّن.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ مِن "التأويب"، أي: رجّعي معه التسبيحَ، أو النَّوحةَ على الذنب، وذلك إمّا بأن يخلقَ الله تعالى فيها صوتًا مثلَ صوته، كما خلق الكلام في الشجرة، أو بأن يتمثّل له ذلك. وقُرئ: "أُوبِي"[2] مِن "الأَوْب"، أي: ارجِعي معه في التسبيح كلّما رجَع فيه.

وكان كلّما سبّح عليه السلام يُسمَع مِن الجبال ما يُسمَع مِن المسبِّح معجزةً له عليه السلام. وقيل: كان ينوح على ذنْبه بتَرجيعٍ وتَحزين، وكانت الجبالُ تُسعِده على نَوحه بأصدائها، والطيرُ بأصواتها.

وهو بدل مِن ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بإضمار "قلنا"، أو مِن ﴿فَضْلًا﴾ بإضمار "قولَنا".

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿فَضْلًا﴾، / بمعنى: وسخّرنا له الطير؛ لأنّ [٣٦٢و] إيتاءها إيّاه عليه السلام تسخيرُها له، فلا حاجةَ إلى إضماره، كما نُقل عن الكسائي، ولا إلى تقدير مضافٍ، أي: تسبيحَ الطير، كما نقل عنه في روايةٍ.[3] وقيل: عطفًا على محلّ "الجبال"،[4] وفيه مِن التكلّف لفظًا ومعنى ما لا يخفى. وقُرئ بالرفع[5] عطفًا على لفظها تشبيهًا للحركة البنائيّة العارضة بالحركة الإعرابيّة. وقد جُوّز انتصابه على أنّه مفعول معه، والأوّل هو الوجه.

وفي تنزيل الجبال والطير منزلةَ العقلاء المطيعين لأمره تعالى المذعنين لحكمه المشعرِ بأنّه ما مِن حيَوان وجماد وصامت وناطق إلّا وهو منقاد لمشيئته

---

١ م ط س: وآتيناه.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٣ انظر: التبيان لأبي البقاء، ١٠٦٤/٢.

٤ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٨١/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٤٣/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن أبي عبلة ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

غيرُ ممتنع على إرادته مِن الفخامة المُعرِبة عن غاية[١] عظَمة شأنه تعالى وكمالِ كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولي الألباب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: جعلناه ليّنًا في نفسه -كالشمع- يصرّفه في يده كيف يشاء مِن غير إحماءٍ بنار، ولا ضربٍ بمِطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوّته التي آتيناها إيّاه ليّنًا -كالشمع- بالنسبة إلى سائر القوى البشريّة.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعمل، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف عنها "الباء"، وفي حملِها على المفسِّرة تكلّف لا يخفى. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ واسعاتٍ. وقُرئ: "صَابِغَاتٍ"،[٢] وهي الدُّروع الواسعة الضافية، وهو عليه السلام أوّل مَن اتّخذها، وكانت قبلُ صفائحَ.

قالوا: كان عليه السلام حين مَلَك على بني إسرائيل يخرج متنكّرًا فيسألُ الناس: ما تقولون في داود؟ فيُثنُون عليه، فقيّض الله تعالى له مَلَكًا في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال: نِعمَ الرجل لولا خَصلةٌ فيه، فَرِيعَ داودُ، فسأله عنها، فقال: لولا أنّه يُطعِم عيالَه مِن بيت المال، فعند ذلك سأل ربّه أن يُسبِّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلّمه تعالى صنعةَ الدُّروع. وقيل: كان يبيع الدِّرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدّق على الفقراء.

[٣٦٢ظ] / ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ "السَّرْد" نسجُ الدُّروع، أي: اقتصِد في نسجها بحيث تتناسَبُ حَلَقُها. وقيل: قدِّر مساميرَها، فلا تعملها دِقاقًا ولا غِلاظًا.[٣] ورُدّ بأنّ دُروعه عليه السلام لم تكن مسمَّرة كما ينبئ عنه إلانةُ الحديد.

وقيل: معنى ﴿قَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: لا تصرِف جميع أوقاتك إليه؛ بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمّا الباقي فاصرِفه إلى العبادة. وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ عُمِّم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه السلام ولأهله. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به.

---

[١] س: عاية.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٣] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٤٣/٤.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح. وقُرئ برفع ﴿ٱلرِّيحَ﴾،[1] أي: ولسليمان الريحُ مسخّرة. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[2]

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جَرْيُها بالغداةِ مسيرةُ شهر، وجَرْيها بالعشيّ كذلك. والجملة إمّا مستأنَفة أو حال مِن ﴿ٱلرِّيحَ﴾. وقُرئ: "غُدْوَتُهَا" و"رَوْحَتُهَا".[3] وعن الحسن رحمه الله تعالى:[4] «كان يغدو -أي: مِن دمشق- فيَقيلُ بإصْطَخْرَ، ثمّ يروح، فيكون رَواحه بِكابُلَ».[5] وقيل: كان يتغدّى بالرَّيّ، ويتعشّى بسَمرقند.

ويُحكَى أنّ بعضهم رأى مكتوبًا في منزل بناحية دجلة، كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام: «نحن نزَلناه وما بنَيناه، ومبنيًّا وجدناه، غدَونا مِن إصْطَخْرَ فَقِلْناه، ونحن رائحون منه فبائتون بالشام إن شاء الله تعالى».[6]

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النُّحاس المذاب، أساله مِن معدِنه، كما ألانَ الحديد لداود عليهما السلام، فنبع منه نبوعَ الماء مِن الينبوع، ولذلك سمّي عينًا، وكان ذلك باليمن. وقيل: كان يسيل في الشهر ثلاثة أيّام.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إمّا جملة مِن مبتدأ وخبر، أو ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، و﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال متقدّمة. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره تعالى، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومَن يَعدِلْ / منهم عمّا أمرناه به مِن طاعة سليمان. وقُرئ: "يُزَغْ"[7] على البناء للمفعول، [٣٦٣و]
مِن "أزاغه".

١ قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.
٢ قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.
٤ ط س – تعالى.
٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٢/٣.
٦ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٢٢٧/١٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧٣/٨.
٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٨/٨.

﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: عذابِ النار في الآخرة. ورُوي[١] عن السدّي رحمه الله: «كان معه ملَك بيده سَوط مِن نار، كلّما استعصى عليه ضربه مِن حيث لا يراه الجنّي».[٢]

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾

﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لِما ذُكر مِن عملهم. وقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾... إلخ بيان لـ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: مِن قصور حصينة، ومساكنَ شريفةٍ، سُمِّيت بذلك لأنّها يُذَبّ عنها ويُحارَب عليها. وقيل: هي المساجد.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصورِ الملائكة والأنبياء عليهم السلام على ما اعتادوه، فإنّها كانت تُعملُ حينئذ في المساجد ليراها الناس، ويعبدوا مثلَ عباداتهم، وحُرمةُ التصاوير شرعٌ جديد. ورُوي أنّهم عملوا أسَدَين في أسفل كرسيّه، ونَسرَين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسَط الأسدان ذراعَيْهما، وإذا قعَدَ أظلّه النسران بأجنحتهما.

﴿وَجِفَانٖ﴾ جمع "جَفْنة"، وهي الصَّحفة، ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾ كالحِياض الكِبار، جمع "جابية"، مِن "الجِباية"، لاجتماع الماء فيها، وهي مِن الصفات الغالبة، كـ"الدابّة". وقُرئ بإثبات "الياء".[٣] قيل: كان يقعد على الجَفنة ألف رجل.

﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزل عنها لعِظَمها.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ حكاية لِما قيل لهم. و﴿شُكۡرٗا﴾ نصب على أنّه مفعول له، أو مصدر لـ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾؛ لأنّ العمل للمنعِم شكر له، أو لفعله المحذوف، أي: اشكروا شكرًا، أو حال، أي: شاكرين، أو مفعول به، أي: اعملوا شكرًا.

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: المتوفِّر على أداء الشكرِ بقلبه / ولسانه [٣٦٣ظ]
وجوارحه أكثرَ أوقاته، ومع ذلك لا يوفّي حقّه؛ لأنّ التوفيق للشكر نعمة

---

١ ط س: روي.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٧٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٢٨.

٣ أثبتَها أبو عمرو وورش عن نافع وصلًا، وابن كثير ويعقوب وصلًا ووقفًا. النشر لابن الجزري، ٢/٣٤٣.

تستدعي شكرًا آخر لا إلى نهاية، ولذلك قيل: "الشُّكور" مَن يرى عجزَه عن الشكر. ورُوي أنّه عليه السلام جَزَّأ سَاعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة مِن الساعات إلّا وإنسان مِن آل داود قائم يصلّي.[١]

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: على سليمان عليه السلام ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي: الجنَّ أو آله ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرَضةُ، أُضيفت إلى فِعلها. وقُرئ بفتح "الراء"،[٢] وهو تأثّر الخشبة مِن فعلها، يقال: "أرَضَتِ الأرَضةُ الخشبةَ أرْضًا، فأَرِضَتْ أرَضًا"، مثل: "أكَلَت القَوادِحُ[٣] أسنانَه أكْلًا، فأَكِلَتْ أكَلًا".

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: عصاه، مِن "نَسَأْتُ البعيرَ" إذا طردتَه؛ لأنّها يُطرَد بها ما يُطرَد. وقُرئ: "مِنْسَاتَهُ" بـ"ألِف" ساكنة بدلًا مِن "الهمزة"،[٤] وبـ"همزة" ساكنةٍ،[٥] وبإخراجها بينَ بينَ عند الوقف،[٦] و"مِنْسَاءَتَهُ" على "مِفْعَالةٍ"،[٧] كـ"مِيضاءة" في "مِيضَأةٍ"، و"مِنْ سَأَتِهِ"،[٨] أي: مِن طرَف عصاه، مِنْ "سِأَةِ القَوسِ"، وفيه لغتان كما في "قِحَةٍ"[٩] بالكسر والفتح. وقُرئ: "أَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ".[١٠]

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ مِن "تَبيّنتُ الشيءَ" إذا علمتَه بعد التباسه عليك، أي: علمَت الجنُّ علمًا بيّنًا بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٨٩/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٣/٣.

٢ أي: "الأَرَضِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والعبّاس بن الفضل. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٠/٨.

٣ القوادح: جمع القادحة، وهي الدودة التي تأكل السنّ والشجر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «قدح».

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٤٩/٢.

٥ قرأ بها ابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٦ قرأ بها حمزة الزيّات. انظر: النشر لابن الجزري، ٤٣٧/١.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٧٣/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٠/٨.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

٩ يقال: وَقُحَ الحافِر وقاحَةً ووُقوحةً وقِحةً وقَحةً، أي: صَلُبَ. انظر: القاموس المحيط للفيروزابادي، «وقح».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. المحتسب لابن جنّي، ١٨٨/٢.

﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي: أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لَعلموا موته عليه السلام حينما وقع، فلم يلبثوا بعده حَولًا في تسخيره إلى أن خرّ.

أو مِن "تَبيَّنَ الشيءُ" إذا ظهَر وتجلّى، أي: ظهرت الجنّ، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْجِنُّ﴾، أي: ظهر أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون / الغيبَ... إلخ. [٣٦٤و]

وقُرئ: "تُبُيِّنَتِ الْجِنُّ"[١] على البناء للمفعول على أنّ المُتَبيَّنَ في الحقيقة هو ﴿أَن﴾ مع ما في صلتِها؛ لأنّه بدل. وقُرئ: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ"،[٢] والضمير في ﴿كَانُواْ﴾ لـ﴿ٱلْجِنِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾.[٣] وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنَّ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ".[٤]

رُوي أنّ داود عليه السلام[٥] أسّس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى، فتوفّي قبل تمامه، فوصّى به إلى سليمان عليهم السلام، فاستعمل فيه الجنّ والشياطين، فباشَروه حتّى إذا حانَ أجله وعلِم به سأل ربّه أن يُعمِّيَ عليهم موتَه حتّى يفرغوا منه، ولِتبطل دعواهم عِلمَ الغيب، فدعاهم فبنَوا عليه صرحًا مِن قوارير ليس له باب، فقام يصلّي متّكئًا على عصاه، فقُبِض روحُه وهو متّكئ عليها، فبقي كذلك وهم فيما أُمِرُوا به مِن الأعمال حتّى أكَلَت الأَرَضة عصاه فخَرّ ميّتًا، وكانت الشياطينُ تجتمع حولَ مِحرابه أينما صلّى عليه السلام، فلم يكن ينظر إليه شيطان في صلاته إلّا احترق، فمرّ به يومًا شيطان فنظر، فإذا سليمان عليه السلام قد خرّ ميّتًا، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلَتها الأرَضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرَضة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقدارًا، فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنةٍ، وكان عمره عليه السلام ثلاثًا وخمسين سنةً، مَلَك وهو ابن ثلاث عشرةَ سنةً، وبقي في مُلكه أربعين سنةً، وابتدأ بناءَ بيت المَقدس لأربعٍ مَضين مِن مُلكه.[٦]

---

[١] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعلي بن الحسين والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٣] سبأ، ١٢/٣٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٨٩.

[٥] م – عليه السلام.

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٨١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٤/٣.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ١٥﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بيان لإخبار بعض الكافرين بنِعم الله تعالى إثرَ بيان أحوال الشاكرين لها، أي: لأولاد سبأ بنِ يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان. وقُرئ بمنع الصرف[١] على أنّه اسم القبيلة. وقُرئ بقَلب "الهمزة" "ألِفًا"،[٢] ولعلّه إخراج لها بينَ بينَ.

﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ وقُرئ بكسر "الكاف"،[٣] كـ"المسجِد". وقُرئ بلفظ الجمع،[٤] / أي: مواضع سُكناهم، وهي باليمن، يقال لها:[٥] مأرِب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ. [٣٦٤ظ]

﴿ءَايَةٌ﴾ دالّة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كلّ ما يشاء مِن الأمور البديعة، المُجازِي للمحسِن والمُسيء، معاضِدةٌ للبرهان السابق، كما في قصّتَي داود وسليمان عليهما السلام.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل مِن ﴿ءَايَةٌ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي جنّتان، وفيه معنى المدح، ويؤيّده قراءة النصب[٦] على المدح. والمراد بهما جماعتان مِن البساتين.

﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمين بلدِهم، وجماعة عن شماله، كلُّ واحدة مِن تَينِكَ الجماعتين في تقاربهما وتضامِّهما كأنّهما جَنّة واحدة، أو بستان كلّ رجل منهم عن يمين مَسكنه وعن شماله.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لِما قيل لهم على لسان نبيِّهم تكميلًا للنعمة، وتذكيرًا لِحُقوقها، أو لِما نطق به لسانُ الحال، أو بيانٌ لكونهم أحقّاءَ بأن يقال لهم ذلك.

---

١ أي: "لِسَبَأَ". قرأ بها أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٧.

٢ أي: "لِسَبَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن حبيب عن اليزيدي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٢٢٦. وقرأ بذلك حمزة الزيّات عند الوقف. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٤٣٠.

٣ قرأ بها الكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٤ أي: "مَسَاكِنِهِمْ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

٥ ط س: له.

٦ أي: "جَنَّتَيْنِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/٥٣٤. وقال في توجيهها: «على أنّ ﴿ءَايَةٌ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، و"جنتين" الخبر».

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئناف مبيِّن لِما يوجب الشكرَ المأمور به، أي: بلدتكم بلدة طيّبة، وربّكم الذي رزقكم ما فيها مِن الطيّبات وطلَب منكم الشكرَ ربٌّ غفور لِفَرطات مَن يشكره. وقُرئ الكلّ بالنصب[1] على المدح.

قيل: كان أطيبَ البلاد هواءً وأخصبَها، وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المِكتل، فتعمل بيدَيها، وتسير فيما بين الأشجار، فيمتلئ المِكتل ممّا يتساقط فيه مِن الثمار، ولم يكن فيه مِن مؤذيات الهوامّ شيء.[2]

﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾

﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ عن الشكر بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه. قيل: أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيًّا فدَعَوهم إلى الله تعالى، وذكّروهم بنِعَمِه، وأنذروهم عقابَه، فكذّبوهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: سيلَ الأمرِ العَرِم، أي: الصعب، مِن "عَرِمَ الرجلُ، فهو عارِمٌ وعَرِمٌ"، إذا شَرِسَ خُلُقه وصَعُب، أو المطرِ الشديدِ. وقيل: ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ جمع "عَرِمة"، وهي الحجارة المَركومة. وقيل: هو السِّكْر[3] الذي يحبِس الماء. وقيل: هو اسم للبناء يُجعل سَدًّا.

[٣٦٥و] / وقيل: هو البناء الرَّصين الذي بَنَتْها الملِكة بِلقيسَ بين الجبلَين بالصخر والقار، وحقَنَت به ماء العيون والأمطار، وتركَت فيها خروقًا على ما يحتاجون إليه في سقيهم. وقيل: ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ الجُرَذ الذي نقَب عليهم ذلك السدّ، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، سلّطه الله تعالى على سدّهم، فنَقَبه، فغرَّق بلادهم. وقيل: ﴿ٱلْعَرِمِ﴾ اسم الوادي.

وقرئ:[4] "الْعَرْمِ" بسكون "الراء".[5]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد بن وزير عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

[2] تفسير ابن أبي حاتم، ٣١٦٥/١٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٥/٣.

[3] السكر -بفتح "السين" وكسرها وسكون "الكاف" ثم "راء" مهملة-: الجِسر والسّدّ على الماء. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٩٦/٧.

[4] س: وقيل.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن عروة بن الورد. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

قالوا: كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبيّ صلّى الله عليهما وسلّم.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنّتيهم وآتينا بدلَهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمرٍ بَشِعٍ، فإنّ "الخَمْط" كلّ نَبْتٍ أخذ طعمًا مِن مرارة حتّى لا يُمكن أكله. وقيل: هو الحامِض والمرُّ مِن كلّ شيء.

وقيل: هو ثمرةُ شجرةٍ يقال لها: "فَسْوةُ الضَّبُع" على صورة الخَشخاش، لا يُنتفَع بها. وقيل: هو الأراك، أو كلّ شجر ذي شوك. والتقدير: "أُكُلٍ أُكُلِ خَمْطٍ"، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه.

وقُرئ: "أُكُلِ خَمْطٍ" بالإضافة،[١] وبتخفيف ﴿أُكُلٍ﴾.[٢]

﴿وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفان على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإنّ "الأَثْل" هو الطَّرْفاء. وقيل: شجر يُشبهه أعظَمُ منه لا ثمرَ له. وقُرئ: "وَأَثْلًا وَشَيْئًا"،[٣] عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

قيل: وصف "السِّدر" بالقِلّة لِما أنّ جَناه -وهو "النَّبِق"- ممّا يَطيب أكلُه، ولذلك يُغرس في البساتين. والصحيح أنّ "السِّدر" صنفان؛ صنف يُؤكل مِن ثمره، ويُنتفع بورَقه لغَسل اليد، وصنف له ثمرة عَفْصة لا تُؤكل أصلًا، ولا يُنتفع بورَقه، وهو "الضالّ"، والمراد ههنا هو الثاني حتمًا. وقال قَتادةُ: «كان شجرهم خيرَ الشجر، فصيّره الله تعالى مِن شرّ الشجر بأعمالهم».[٤] وتسميةُ البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة والتهكّم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ أو إلى ما ذُكر مِن التبديل، وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد رُتبته في الفظاعة. ومحلّه على الأوّل النصب

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٢ أي: "أُكْلٍ" بسكون "الكاف". قرأ بها نافع وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، حكاها الفضل بن إبراهيم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

٤ جامع البيان للطبري، ٢٥٨/١٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨٤/٨.

على أنّه مصدر مؤكِّد للفعل المذكور، وعلى الثاني النصب على أنّه مفعول ثانٍ له، أي: ذلك الجزاءَ الفظيعَ جزيناهم / لا جزاءً آخر، أو ذلك التبديلَ جزيناهم لا غيرَه. [٣٦٥ظ]

﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ بسبب كُفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضِدَّها، أو بسبب كفرهم بالرسل.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: وما نُجازي هذا الجزاءَ إلّا المبالِغ في الكفران أو الكفر. وقُرِئ: "يُجَازِي"[١] على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ. و"هَلْ يُجَازَى" على البناءِ للمفعول ورفعِ ﴿ٱلْكَفُورَ﴾،[٢] و"هَلْ يُجْزَى"[٣] على البناء للمفعول أيضًا.

وهذا بيانُ ما أوتوا مِن النِّعم الحاضرة في مساكنهم، وما فَعلوا بها مِن الكفران، وما فُعِل بهم مِن الجزاء.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ حكايةٌ لِما أوتوا مِن النِّعم البادية في مسائرهم ومتاجرهم، وما فَعلوا بها مِن الكُفران، وما حاق بهم بسبب ذلك، تكملةً لقصّتهم، وبيانًا لعاقبتهم، وإنّما لم يُذكر الكلّ معًا لِما في التثنية والتكرير مِن زيادة تنبيه وتذكيرٍ.

وهو عطفٌ على ﴿كَانَ لِسَبَإٍ﴾،[٤] لا على ما بعده مِن الجمل الناطقة بأفعالهم، أو بأجزيتها، أي: وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم مِن فنون النِّعم بينهم -أي: بين بلادهم- وبين القرى الشاميّة التي باركنا فيها للعالمين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن وثّاب والنخعي. المحتسب لابن جنّي، ١٨٩/٢.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلم بن جُندب. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٢.

[٤] سبأ، ١٥/٣٤.

متواصلةً يُرى بعضُها مِن بعضٍ لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبةً متنَ الطريق ظاهرةً للسابلة غيرَ بعيدة عن مسالكهم حتّى تخفي عليهم.

﴿وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَ﴾ أي: جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معيّن يليق بحال أبناء السبيل. قيل: كان الغادي مِن قرية يَقيل في أخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام. كلّ ذلك كان تكميلًا لِما أُوتوا مِن أنواع النعماء، وتوفيرًا لها في الحضر والسفر.

﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ على إرادة القول، أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم مِن الليالي والأيام ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما تكرهونه، لا يختلف الأمنُ فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين وإن تَطاولت مدّةُ سفركم وامتدّت لياليَ وأيّامًا كثيرةً، أو سيروا فيها لياليَ / أعماركم [٣٦٦و] وأيّامَها، لا تلقَون فيها إلّا الأمن، لكن لا على الحقيقة؛ بل على تنزيل تمكينهم مِن السير المذكور، وتسويةِ مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلةَ أمرِهم بذلك.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ وقُرئ: "يَا رَبَّنَا".[١] بطروا النعمةَ، وسئِمُوا أطيب العيش، وملّوا العافيةَ، فطلبوا الكدّ والتعب، كما طلب بنو[٢] إسرائيل الثومَ والبصل مكان المنّ والسلوى. وقالوا: لو كان جَنَا جِنّاتِنا أبعدَ لكان أجدرَ أن نشتهيَه، وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوِز وقِفارًا ليركبوا فيها الرواحل، ويتزوّدوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، فعجّل الله تعالى لهم الإجابةَ بتخريب تلك القرى المتوسّطة، وجعلها بَلقعًا لا يُسمع فيه داعٍ ولا مجيب.

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٧٧/٣.

[٢] م: بنوا.

وقُرئ: "بَعِدْ"،[١] و"رَبُّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"،[٢] و"بُعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"[٣] على النداء وإسنادِ الفعل إلى "بَيْنَ" ورفعِه به، كما يُقال: "سِيرَ فرسخان"، و"بُوعِدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا".[٤]

وقُرئ: "رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"،[٥] و"بَيْنَ سَفَرِنَا"،[٦] و"بَعَّدَ"[٧] برفع ﴿رَبَّنَا﴾ على الابتداء، والمعنى على خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسائرهم مع قِصَرها، ودنُوِّها وسهولة سلوكها، لفَرْط تنعّمهم، وغايةِ ترفُّههم، وعدمِ اعتدادهم بنِعم الله تعالى، كأنّهم يَتَشاجَون على الله تعالى ويتحازَنُون عليه.

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرّضوها للسخط والعذاب حين بَطِرُوا النِّعمةَ،[٨] أو غَمَطوها،[٩] ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: جعلناهم بحيث يتحدّث الناس بهم متعجّبين مِن أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم، ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرّقناهم كلَّ تفريق على أنّ "المُمزَّق" مصدر، أو كلَّ مَطْرَح ومكانِ تفريقٍ، على أنّه اسم مكانٍ. وفي عبارة التمزيق الخاصِّ بتفريق المتّصل وخرقِه مِن تهويل الأمر والدلالة على شدّة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزّقناهم تمزيقًا لا غايةَ وراءه بحيث يُضرَب به الأمثال / في كلّ فُرقة ليس بعدها وِصال، حتّى [٣٦٦ظ] لحِق غسّان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزدُ بعُمان.

وأصل قصّتهم على ما رواه الكلبي عن أبي صالح أنّ عمرو بن عامرٍ مِن أولاد سبأ، وبينهما اثنا عشر أبًا، وهو الذي يقال له: مزيقيا بن ماء السماء، أخْبَرَته طُريفةُ الكاهنة بخراب سدّ مأرِبَ، وتفريقِ سيل العَرِم الجنّتين.[١٠]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن أبي الحسن. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٨/٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري وأبي عمران الجوني. زادالمسير لابن الجوزي، ٤٩٦/٣.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٩/٨.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وابن الحنفية وعمرو بن فائد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣٨/٨.

٨ وفي هامش م: على القراءتين الأوليين. «منه». | وهُما: " رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا"، و"رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا".

٩ وفي هامش م: على القراءات الأواخر. «منه». | وهي: "رَبُّنَا بَعُدَ بَيْنُ أَسْفَارِنَا"، وما بعدها.

١٠ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٩٢/٣.

وعن أبي زيد الأنصاري[١] أنّ عَمرًا[٢] رأى جُرذًا يحفر السدّ، فعلم أنّه لا بقاءَ له بعدُ.[٣]

وقيل: إنّه كان كاهنًا وقد علِمه بكهانته، فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف مِن بلد إلى بلد، حتّى انتهى إلى مكّة المعظّمة وأهلُها جُرْهُم، وكانوا قهروا الناس وحازوا ولايةَ البيت على بني إسماعيل عليه السلام وغيرِهم فأرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن[٤] عامر يسألُهم المُقامَ معهم إلى أن يرجع إليه رُوّادُه الذين أرسلهم إلى أصقاع البلاد يطلبون له موضعًا يَسَعُه ومَن معه مِن قومه، فأَبَوا، فاقتتلوا ثلاثة أيّام، فانهزمت جُرْهم، ولم يُفلِتْ منهم إلّا الشَّرِيد، وأقام ثعلبة بمكّة وما حولها في قومه وعساكره حَولًا، فأصابتهم الحمّى، فاضطرُّوا إلى الخروج وقد رجع إليه رُوّاده، فافترقوا فرقتين، فرقة توجّهت نحو عُمانَ، وهم الأَزْدُ[٥] وكِندة وحِميَر ومَن يتلوهم، وسار ثعلبة نحو الشام، فنزل الأَوْسُ وأُلخزرجُ ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة، وهم الأنصار، ومضت غسّان فنزلوا بالشام، وانخزعت خزاعة بمكّة، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وهو لُحَيٌّ، فولّي أمر مكّة وحِجابةَ الكعبة، ثمّ جاءهم أولادُ إسماعيل عليه السلام، فسألوهم السُّكنى معهم وحولَهم، فأذِنُوا لهم في ذلك.[٦]

---

١ هو سعيد بن أوس الأنصاري، البصري، أبو زيد (ت. ٢١٥هـ/٨٣٠م). الإمام، العلّامة، حجّة العرب، النحوي، حدّث عن سليمان التيمي، ورؤبة بن العجّاج، وأبي عمرو بن العلاء، وسعيد بن أبي عروبة، وعِدّة. وحدّث عنه خلف بن هشام البزّار، وتلا عليه، وأبو عبيد القاسم، وأبو حاتم السجستاني، وخلق كثير. مِن تصانيفه: **النوادر في اللغة، والهمز، والمطر، وخلق الإنسان، ولغات القرآن، والشجر، وبيوتات العرب، والفرق، وغريب الأسماء**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٩٤/٩؛ **والأعلام** للزركلي، ٩٢/٣.

٢ م: عمروًا.

٣ انظر: **سيرة ابن هشام**، ١٣/١؛ **وتفسير ابن كثير**، ٥١٠/٦.

٤ س: ابن.

٥ الأَزد: حيّ مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأَزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: «ويقال فيهم: "الأَسْد" بـ"السين" المهملة بدل "الزاي"». قال الجوهري: «وهو بـ"الزاي" أفصح». والأَزْد مِن أعظم الأحياء وأكثرها بطونًا، وأمدّها فروعًا. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٩١/١.

٦ انظر: **جامع الآثار** للدمشقي، ٣٢٥/٢.

ورُوِي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ فَرْوَةَ بن مُسَيك الغطيفي[١] سأل [٣٦٧و] النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن سبأ، فقال له عليه السلام: / «هو رجل كان له عشرة أولاد، ستّة منهم سكنوا اليمن، وهم مَذحِج[٢] وكِندة والأزْد والأشعريّون[٣] وحِمير وأنمار؛[٤] منهم بَجِيلة[٥] وخَثعم،[٦] وأربعة منهم سكنوا[٧] الشام، وهم لَخم وجدام[٨] وعاملة[٩] وغسّان».[١٠]

---

١ هو فَروة بن مُسَيك بن الحارث بن سلمة الغطيفي، المرادي، أبو عمر (ت. نحو ٣٠هـ/ ٦٥٠م). صحابي، أصله مِن اليمن. وفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة تسع أو عشر وأسلم. ونزل على سعد بن عبادة، وأجزاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بمبلغ مِن المال، واستعمله على مراد ومذحج وزُبيد، وكتب له كتابًا فيه فرائض الصدقة، فعاد إلى بلاده. وقاتل أهل الردّة بعد وفاة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وبقي إلى خلافة عمر بن الخطّاب، وأقرّه عمر. سكن الكوفة في أواخر أعوامه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢٨١/٥؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٤٣/٥.

٢ مَذْحِج: لغةٌ في "مَذحِج"، بالذال معجمة، وغير معجمة، قبيلة مِن اليمن مِن ولد مالك. وهو مَذحِج بن أُدَد بن زَيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كَهلان. **شمس العلوم** للحميري، ٢٠٤٢/٤.

٣ الأشعريّون: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو الأشعَر بن أُدَد بن زَيد يجشب بن عريب بن زيد بن كَهلان، قال أبو عبيدة: وسمّي "الأشعَر" لأنّ أمّه ولدته وهو أشعَر. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١٦٨/١.

٤ بنو أنْمار: حيّ مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو أنمار بن أراش بن عمرو بن غوث بن نبيت بن مالك بن زيد بن كَهلان. قال أبو عبيدة: وولد أنْمار هذا خثعم، وأمّه هند بنت مالك بن العاص بن الشاهد بن علك، وعنفر والغوث وهتيّة وخُزيمة، وأمّهم بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة وبها يُعرفون. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٨٧/١.

٥ بنو بَجيلة: قبيلة مِن أَنمار بن أراش مِن كَهلان مِن القحطانيّة. و"بَجيلة" أمّهم، غلب عليهم اسمها، وهي بَجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة. قال في **العِبر**: هم بنو بَجيلة بن أنمار بن أراش. قال: وكانت بلادهم مع إخوتهم خثعم في سَروات اليمن والحجاز إلى تبالة، ثمّ افترقوا أيّام الفتح الإسلامي في الآفاق، فلم يبقَ منهم في مواطنهم إلّا القليل. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١٧١/١.

٦ بنو خَثعم: بطن مِن أنمار بن أراش مِن القحطانيّة، وكان لخثعم مِن الولد خلَف، وأمّه عاتكة بنت ربيعة بن نزار. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٢٤٣/١.

٧ م: سكنو.

٨ كذا في الأصول الخطّيّة بـ"الدال" المهملة، والصواب "جُذام" بـ"الذال" المعجمة. وبنو جُذام: بطن مِن كهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو جُذام بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. و"الجُذام" في أصل اللغة اسم للداء المعروف، فيحتمل أنّ اسم الرجل منقول عنه، ويحتمل أنّه مأخوذ مِن "الجَذم"، وهو القطع. انظر: **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٢٠٦/١.

٩ بنو عاملة: بطن مِن كَهلان مِن القحطانيّة، وهم بنو عاملة، واسمه الحارث بن عفيرة بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن زيد بن كهلان. وذكر أبو عبيد: أنّ بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك بن وديعة بن عفير بن عديّ بن الحارث بن مرّة بن أُدَد. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ٣٣٣/١.

١٠ انظر: **مسند أحمد**، ٧٥/٥ (٢٨٩٨)؛ و**سنن الترمذي**، ٣٦١/٥ (٣٢٢٢).

لمّا هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرّقوا أيدي سبأ شَذَرَ مَذَرَ، فنزلت طوائف منهم بالحجاز، فمنهم خُزاعة نزلوا بظاهر مكّة، ونزلت الأوس والخزرج بيثرب، فكانوا أوّل مَن سكنها، ثمّ نزل عندهم ثلاث قبائل مِن اليهود؛ بنو[1] قينقاع وبنو[2] قريظة والنضير، فَحالفوا[3] الأوسَ والخزرجَ، وأقاموا عندهم، ونزلت طوائف أُخَرُ منهم بالشام، وهم الذين تنصّروا فيما بعدُ، وهم غسّان وعاملة ولَخم وجدام وتنُوخ[4] وتَغلِب وغيرهم، وسبأ تجمع هذه القبائل كلَّها.

والجمهور على أنّ جميع العرب قسمان: قحطانيّة، وعدنانيّة، والقحطانيّة شِعبان: سبأٌ، وحضرموت، والعدنانيّة شِعبان: ربيعة، ومُضَر، وأمّا قضاعة فمختلف فيها، فبعضهم ينسبونها إلى قَحطان، وبعضهم إلى عدنان، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قِصّتهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: شأنُه الصبرُ عن الشهوات ودواعي الهوى، وعلى مشاقّ الطاعات، والشكر على النِّعم، وتخصيصُ هؤلاء بذلك لأنّهم المنتفِعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقّق عليهم ظنّه، أو وجده صادقًا. وقُرئ بالتخفيف،[5] أي: صدَق في ظنّه، أو صدَق بظَنٍّ ظنَّه. ويجوز تعدية الفعل إليه بنفسه؛ لأنّه نوع مِن القول. وقُرئ بنصب ﴿إِبْلِيسَ﴾ ورفعِ "الظَّنّ" مع التشديد،[6]

---

[1] م: بنوا.

[2] م: بنوا.

[3] س: فخالفوا.

[4] تَنُوخ: هم حيّ مِن اليمن، مِن القحطانيّة، وذكر المؤيّد صاحب حماة في تاريخه: أنّهم مِن قُضاعة، وقال أبو عبيد: هم ثلاثة أبطن؛ نزار، والأحلاف أسد وعفّان، سمّوا بذلك لأنّهم حلَفوا على المُقام بمكان الشام، والتنُّخ المُقام. انظر: نهاية الأرب للقلقشندي، ١٨٩/١.

[5] أي: "صَدَقَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٥٠/٢.

[6] أي: "صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يعمر ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٠.

بمعنى: وجده ظنَّهُ صادقًا، ومع التخفيف[١] بمعنى: قال له الصدقَ حين خيّله إغواءَهم، وبرفعهما والتخفيفِ[٢] على الإبدال، وذلك إمّا ظنّه بسبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات، / أو ببني آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال: إنّ ذرّيّته أضعف منه عزمًا. وقيل: ظنّ ذلك عند إخبار الله تعالى الملائكة أنّه يجعل فيها مَن يفسد فيها ويسفك الدماء، وقال: لَأضِلَّنّهم ولأُغوينّهم. [٣٦٧ظ]

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ أو الناس ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلّا فريقًا هم المؤمنون لم يتّبعوه، على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفّار، أو إلّا فريقًا مِن فِرق المؤمنين لم يتّبعوه، وهم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلّط واستيلاء بالوَسوسة والاستغواء. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ العِلل. و﴿مَن﴾ موصولة، أي: وما كان تسلّطه عليهم إلّا ليَتعلّق علمنا بمَن يؤمن بالآخرة متميّزًا ممّن هو في شكّ منها تعلّقًا حاليًا يترتّب عليه الجزاء، أو إلّا ليتميّز المؤمن مِن الشاكّ، أو إلّا ليؤمن مَن قُدّر إيمانه، ويَشكّ مَن قُدّر ضلاله، والمراد مِن حصول العلم حصول متعلَّقه مبالغةً.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: محافِظ عليه، فإنّ "فَعيلًا" و"مُفاعِلًا" صيغتان متآخِيتان.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

[١] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسَ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمّد وأبي الجهجاه الأعرابي وبلال بن أبي برزة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٠/٨؛ وتفسير القرطبي، ٢٩٢/١٤.

[٢] أي: "صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنُّهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٠/٨.

﴿قُلِ﴾ أي: للمشركين إظهارًا لبطلان ما هم عليه، وتَبكيتًا لهم: ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، وهما مفعولا "زَعَمَ"، ثمّ حُذف الأوّل تخفيفًا لطول الموصول بصِلته، والثاني لقيام صِفته -أعني: قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾- مَقامه، ولا سبيل إلى جعله مفعولًا ثانيًا؛ لأنّه لا يلتئِم مع الضمير كلامًا، وكذا ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾؛ لأنّهم لا يزعمونه، والمعنى: ادعوهم فيما يهمّكم مِن جلب نفع أو دفع ضرّ لعلّهم يستجيبون لكم إن صحّ دعواكم.

ثمّ أجاب عنهم إشعارًا بتعيّن الجواب، وأنّه لا يقبل المكابَرة، فقال: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ مِن خير وشرّ، ونفع وضرّ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أمرٍ ما مِن الأمور. وذِكرُهما للتعميم عُرفًا، أو لأنّ آلهتهم بعضها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيّة كالأصنام، أو لأنّ الأسبابَ القريبة للخير والشرّ سماويّة وأرضيّة. والجملة استئناف لبيان حالهم.

﴿وَمَا لَهُمۡ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ أي: شركةٍ، لا خَلقًا ولا ملكًا ولا تصرّفًا، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى ﴿مِنۡهُم﴾ مِن آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٖ﴾ يعينه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥ﴾ أي: لا توجد رأسًا، كما في قوله:

ولا ترى الضبُّ بها ينجَحِر[1]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٥]، وإنّما عُلِّق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحًا بنفي ما هو غرضهم مِن وقوعها.

---

[1] صدره:

ولا يُفزِع الأرنبَ أهوالُها

البيت لعَمرو بن أحمر الباهلي. و"الإفزاع": الإخافة. و"الأرنبَ": مفعول مقدّم. و"أهوالُها": فاعل "يفزع"، والضميرُ للمفازة والفلاة. و"الانجحار": الدخول في الجُحر؛ وهو ما حفَرَه الهوامّ والسِّباع لأنفسها. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تقع الشفاعة في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لِمَن أَذِنَ له في الشفاعة مِن النبيّين والملائكة ونحوِهم مِن المستأهِلين لمَقام الشفاعة، فتبيّن حِرمان الكفرة منها بالكلّيّة، أمّا مِن جِهة أصنامهم فلِظهور انتفاءِ الإذن لها ضرورةَ استحالة الإذن في الشفاعة لجمادٍ لا يعقل ولا ينطق، وأمّا مِن جهة مَن يعبدونه مِن الملائكة فلأنّ إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقّين لها، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ، ٧٨/٣٨]. ومِن البيّن أنّ الشفاعة للكفرة بمَعزِل مِن الصواب.

أو لا تنفع الشفاعة مِن الشفعاء المستأهِلين لها في حال مِن الأحوال إلّا كائنةً لمَن أَذِن له، أي: لأجله وفي شأنه مِن المستحقّين للشفاعة، وأمّا مَن عَداهم مِن غير المستحقّين لها فلا تنفعهم أصلًا وإن فُرِض وقوعُها وصدورها عن الشفعاء؛ إذ لم يُؤذَن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، فعلى هذا يثبت حرمانهم عن شفاعة هؤلاء بعبارة النصّ، وعن شفاعة الأصنام / بدلالته؛ [٣٦٨ظ] إذ حين حُرِمُوها مِن جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها فلَأَن يُحْرَمُوها[1] مِن جهة العجَزة عنها أولى. وقُرئ: "أُذِنَ لَهُ" مبنيًا للمفعول.[2]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوبِ الشفعاء والمشفوعِ لهم مِن المؤمنين، وأمّا الكفرة فهم مِن موقف الاستشفاع بمَعزِل، وعن التفزيع عن قلوبهم بألفِ مَنزل. و"التفزيع" إزالةُ الفزَع، ثمّ تُرك ذكر الفزَع وأُسند الفعل إلى الجارّ والمجرور. و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لِما ينبئ عنه ما قبلها مِن الإشعار بوقوع الإذن لمَن أَذِن له، فإنّه مسبوق بالاستئذان المستدعي للترقّب والانتظار للجواب، كأنّه سُئِل: كيف يُؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون في موقف الاستئذان والاستدعاء، ويتوقّفون على وجَلٍ وفزَعٍ مَلِيًا، حتّى إذا أُزيلَ الفَزَع عن قلوبهم بعد اللّتيّا والتي،[3] وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿قَالُوا۟﴾ أي: المشفوعُ لهم؛

---

[1] س: يُحْرَموا.

[2] قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخَلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٠.

[3] اللّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

إذ هم المحتاجون إلى الإذن، والمهتمّون بأمره: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في شأن الإذن؟ ﴿قَالُواْ﴾ أي: الشفعاء؛ لأنّهم المباشِرون للاستئذان بالذات، المتوسّطون بينهم وبينه عزّ وجلّ بالشفاعة: ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، وهو الإذنُ في الشفاعة للمستحقّين لها. وقُرِئ: "الحَقُّ" مرفوعًا،[١] أي: ما قاله الحقُّ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافًا بغاية عَظَمة جَناب العزّة عزّ وجلّ، وقُصور شأن كلّ مَن سواه، أي: هو المتفرّد بالعلوّ والكبرياء، ليس لأحد مِن أشراف الخلائق أن يتكلّم إلّا بإذنه.

وقُرِئ: "فُزِعَ" مخفّفًا[٢] بمعنى ﴿فُزِّعَ﴾. وقُرِئ: "فَزَّعَ" على البناء للفاعل،[٣] وهو الله وحده. وقُرِئ: "فُرِّغَ" بـ"الراء" المهملة و"الغين" المعجمة،[٤] أي: نُفِيَ الوجَل عنها وأُفنِيَ، مِن "فَرَغَ الزادُ" إذا لم يبقَ منه شيء، وهو مِن الإسناد المجازي؛ لأنّ الفراغَ -وهو الخلوّ- حالُ ظرفه عند نفاده، فأُسندَ إليه، على عكس قولهم: "جَرى النهر". وعن الحسن تخفيف "الراء"،[٥] وأصله: فَرَغَ الوَجَلُ عنها، أي: انتفى عنها وفَنِي، ثمّ حُذف الفاعل وأُسندَ إلى الجارّ والمجرور، وبه يُعرف حالُ التفريغ. وقُرِئ: "افْرُنْقِعَ عَن قُلُوبِهِمْ"[٦] بمعنَى: انكُشِفَ عنها.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم / مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أُمِرَ عليه السلام بتبكيت المشركين، [٣٦٩و]
بحملهم على الإقرار بأنّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرّة فيهما، وأنّ الرازق

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٥١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما والحسن وأيّوب السختياني وقتادة وأبي مجلز. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٤٥/٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٩١.

هو الله تعالى، فإنّهم لا يُنكرونه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾... ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ٣١/١٠].

وحيث كانوا يتلعثمون أحيانًا في الجواب مخافةَ الإلزام قيل له عليه السلام: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضًا. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنّ أحد الفريقين مِن الذين يوحِّدون المتوحِّدَ بالرزق والقدرةِ الذاتيّة، ويخصّونه بالعبادة، والذين يشركون به في العبادة الجمادَ النازلَ في أدنى المراتب الإمكانيّة، لَعَلَى أحد الأمرين مِن الهدى والضلال المبين، وهذا بعد ما سبَق مِن التقرير البليغ الناطق بتعيين مَن هو على الهدى ومَن هو في الضلال أبلغَ مِن التصريح بذلك، لجريانه على سَنن الإنصاف المُسكِت للخَصم الألدّ.

وقُرئ: "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ إِمَّا عَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ".[١]

واختلاف الجارّين للإيذان بأنّ الهادي كمَن استعلى مَنارًا ينظر الأشياء ويتطلّع عليها، والضالَّ كأنّه منغمِس في ظلامٍ لا يرى شيئًا، أو محبوسٌ في مَطمورة لا يستطيع الخروج عنها.

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا أبلغ في الإنصاف، وأبعد مِن الجدل والاعتساف، حيث أُسندَ فيه الإجرامُ -وإن أريدَ به الزلّةُ وتركُ الأولى- إلى أنفسهم، ومطلقُ العمل إلى المخاطَبين، مع أنّ أعمالهم أكبر الكبائر.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَحكم بيننا ويَفصل بعد ظهور حال كلٍّ منّا ومنكم، بأن يُدخل المحقّين الجنّةَ، والمبطلين النارَ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٥٨٢/٣.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفيصل في القضايا المنغلقة، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يُقضى به.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

/ ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي: ألحقتموهم ﴿بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ أريدَ بأمرهم بإراءةِ [٣٦٩ظ]
الأصنام مع كونها بمَرأى منه عليه السلام إظهارُ خطئهم العظيم، وإطْلاعُهم على بطلان رأيهم، أي: أرُونِيها لأنظرَ بأيِّ صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة. وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجّة عليهم.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسة؛ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الموصوف بالغلبة القاهِرة والحكمة الباهِرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسّ الأشياء وأذلّها مِن هذه الرتبة العالية؟ والضمير إمّا لله عزّ وعلا، أو للشأن، كما في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ١/١١٢].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: إلّا إرسالةً عامّةً لهم، فإنّها إذا عمَّتْهم فقد كَفَّتْهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلّا جامعًا لهم في الإبلاغ، فهي حال مِن "الكاف"، و"التاءُ" للمبالغة، ولا سبيلَ إلى جعلها حالًا مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لاستحالة تقدّم الحال على صاحبها المجرور. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على ما هم عليه مِن الغيّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط جهلهم وغايةِ غيّهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريق الاستهزاء، يعنون به المبشَّرَ به والمنذَرَ عنه، أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾.[١] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مخاطِبين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين به.

---

[١] سبأ، ٢٦/٣٤.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي: وعدُ يومٍ، أو زمانُ وعدٍ، والإضافة للتبيين. وقُرئ: "مِيعَادٌ يَوْمٌ" منوَّنين[١] على البدل، و"يَوْمًا"[٢] بإضمار "أعْني" للتعظيم. ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾[٣] عند مفاجأته ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ صفة لـ﴿مِيعَادُ﴾، وفي هذا الجواب مِن المبالغة في التهديد ما لا يخفى، حيث جُعِل الاستِئخار في الاستحالة كالاستِقدام الممتنع عقلًا، وقد مرّ بيانه مرارًا. ويجوز أن يكون نفي
[٣٧٠و] الاستئخار[٤] والاستقدام غيرَ مقيَّد بالمفاجأة، / فيكون وصفُ "الميعاد" بذلك لتحقيقه وتقريره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن الكتب القديمة الدالّة على البعث. وقيل: إنّ كفّار مكّة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأخبروهم أنّهم يجدون نَعته في كتبهم، فغضِبوا، فقالوا ذلك.[٥] وقيل: ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ القيامة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في موقف المحاسبة، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاوَرون ويتراجعون القول، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ بدل مِن ﴿يَرْجِعُ﴾... إلخ، أي: يقول الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي: لولا إضلالُكم وصدُّكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

[٣] م س ط - ساعة.

[٤] س: الاستنحار.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/٤.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۝٣٢﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ منكِرين لكونهم هم الصادّين لهم عن الإيمان، مثبتين أنّهم هم الصادّون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الإجرام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٣﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ إضرابًا عن إضرابهم، وإبطالًا له: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صَدُّنا مكرُكم بنا بالليل والنهار، فحُذف المضاف إليه، وأقيمَ مُقامه الظرفُ اتّساعًا، أو جُعل ليلُهم ونهارهم ماكرَين على الإسناد المجازي.

وقُرئ: "بَلْ مَكْرٌ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" بالتنوين ونصبِ الظرفَين،[1] أي: بل صَدُّنا مكرُكم في الليل والنهار، على أنّ التنوين عوض عن المضاف إليه، أو مكرٌ عظيمٌ، على أنّه للتفخيم. وقُرئ: / "بَلْ مَكَرُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" بالرفع[2] والنصب،[3] [٣٧٠ظ]
أي: تَكُرُّون الإغواءَ مَكَرًّا دائبًا لا تَفتُرون عنه، فالرفع على الفاعليّة، أي: بل صَدُّنا مَكَرُّكم الإغواءَ في الليل والنهار، على ما سبق مِن الاتّساع في الظرف بإقامته مُقام المضافِ إليه، والنصبُ على المصدريّة، أي: بل تَكُرُّون الإغواءَ مكرَّ الليل والنهار، أي: مَكَرًّا دائمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ ظرف للمَكْر، أي: بل مَكرُكم الدائم وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على أنّ المرادَ بمَكرِهم إمّا نفسُ أمرِهم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن راشد القارئ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩١.

بما ذُكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة، ٢٠/٥]، فإنّ الجَعلين المذكورين نعمة مِن الله تعالى وأيُّ نعمة، وإمّا أمورٌ أُخَرُ مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به، مِن الترغيب والترهيب وغير ذلك.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أضمَر الفريقان الندامةَ على ما فعلا مِن الضلال والإضلال، وأخفاها كلّ منهما عن الآخر مخافةَ التعيير، أو أظهروها، فإنّه مِن الأضداد، وهو المناسب لحالهم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في أعناقهم. والإظهار في موضع الإضمار للتنويه بذمّهم، والتنبيهِ على مُوجِب أغلالهم.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يُجزون إلّا جزاءَ ما كانوا يعملونه، أو إلّا بما كانوا يعملونه، على نَزع الجارّ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ مِن القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تسليةً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا مُنِيَ به مِن قومه مِن التكذيب والكفرِ بما جاء به، والمنافسةِ بكثرة الأموال والأولاد، والمفاخَرةِ بحظوظ الدنيا وزخارفها، والتكبّرِ بذلك / على المؤمنين، والاستهانةِ بهم [٣٧١و]
مِن أجله، وقولِهم: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم، ٧٣/١٩]، بأنّه لم يُرسل قطّ إلى أهل قرية مِن نذير إلّا قال مترفوهم مثلَ ما قال مُترفوا أهلِ مكّة في حقّه عليه السلام، وكادوا به نحو ما كادوا به عليه السلام، وقاسوا أمور الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزعموا أنّهم لو لم يَكرُموا على الله تعالى لَما رزقهم طيّباتِ الدنيا، ولولا أنّ المؤمنين هانوا عليه تعالى لَما حَرَمَهُمُوها، وعلى ذلك الرأي الركيك بنَوا أحكامهم.

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إمّا بناءً على انتفاء العذاب الأخروي رأسًا، أو على اعتقاد أنّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يُهينهم في الآخرة على تقدير وقوعها.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم وحَسْمًا لمادّة طمَعهم الفارغ، وتحقيقًا للحقّ الذي عليه يدور أمر التكوين: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه[١] له، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على مَن يشاء أن يَقْدِره عليه مِن غير أن يكون لأحدٍ من الفريقين داعٍ إلى ما فُعِل به مِن البسط والقَدْر، فربّما يوسِّع على العاصي، ويضيِّق على المطيع، وربّما يعكِس الأمر، وربّما يوسِّع عليهما معًا، وقد يضيّق عليهما، وقد يوسّع على شخصٍ تارةً، ويضيّق عليه أخرى، يفعل كلًّا مِن ذلك حسبَما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، فلا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذَين مَناطُهما الطاعةُ وعدمُها. وقُرئ: "وَيُقَدِّرُ" بالتشديد.[٢]

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيزعمون أنّ مدار البسط هو الشرف والكرامة، ومدارَ القَدْر هو الهوان، ولا يدرون أنّ الأوّل كثيرًا ما يكون بطريق الاستدراج، / والثاني بطريق الابتلاء ورفع الدرجات. [٣٧١ظ]

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ كلام مستأنَف مِن جهته عزّ وعلا، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقّ وتقريرِ ما سبق، أي: وما جماعةُ أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرّبكم عندنا قربةً، فإنّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواء في حكم التأنيث، أو بالخَصلة التي تقرّبكم. وقُرئ: "بِالَّذِي"،[٣] أي: بالشيء الذي.

---

[١] س ط: يبسط.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٣] وبالياء في: ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾. قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناء مِن مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، أي: وما الأموال والأولاد تقرِّبُ أحدًا إلّا المؤمنَ الصالح الذي أنفق أموالَه في سبيل الله تعالى، وعلّمَ أولاده الخيرَ، وربّاهم على الصلاح، ورشّحَهم للطاعة. وقيل: مِن أموالكم وأولادكم، على حذف المضاف، أي: إلّا أموالُ مَن... إلخ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد[١] بالمشار إليه للإيذان بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: ثابت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرورَ خبرٌ لِما بعده، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفيه تأكيد لتكرّر الإسناد، أو يَثبت لهم ذلك، على أنّ الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وما بعدَه مرتفع على الفاعليّة. وإضافة "الجَزاء" إلى ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ مِن إضافة المصدر إلى المفعول، أصلُه: "فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ"، ثمّ "جَزاءٌ الضِّعفَ"، ثمّ ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾. ومعناه: أن يضاعَف لهم حسناتُهم، الواحدةُ عشرًا فما فوقها.

وقُرِئَ: "جَزاءً الضِّعْفُ"،[٢] أي: فأولئك لهم الضِّعفُ جزاءً، و"جَزَاءٌ
[٣٧٢و] الضِّعْفَ"[٣] / على أن يُجازَوا الضِّعفَ، و"جَزَاءٌ الضِّعْفُ"[٤] بالرفع، على أنّ "الضِّعْفُ" بدل مِن "جَزَاءٌ".

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ مِن الصالحات، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: غُرفاتِ الجنّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ مِن جميع المَكارِه.

وقُرِئَ بفتح "الراء"[٥] وسكونها.[٦] وقُرِئَ: "فِي الْغُرْفَةِ"[٧] على إرادة الجنس.

---

[١] س - العهد.

[٢] قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٢.

[٧] قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردّ والطّعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ سابقين لأنبيائنا، أو زاعمين أنّهم يفوتوننا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ لا يُجديهم ما عوّلوا عليه نفعًا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يوسّعه عليه تارةً، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي: يضيّقه عليه تارةً أخرى، فلا تخشَوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله، وتعرّضُوا لِنفحاته تعالى.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عوضًا إمّا عاجلًا، وإمّا آجلًا. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّ غيره واسطة في إيصال رِزقه، لا حقيقةَ لرازقيّته.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٤٠﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون مِن دون الله. و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لمُضمَر متأخّر سيأتي تقديره، أو مفعول لمُضمَر مقدَّم، نحو: "اذكر".

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ تقريعًا للمشركين، وتبكيتًا لهم على نهج قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي﴾... إلخ [المائدة، ١١٦/٥]، وإقناطًا لهم عمّا[١] علّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن شفاعتهم. وتخصيصُ الملائكة لأنّهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم، ولأنّ عبادتهم مبدأ الشرك، فبظهور قُصورهم عن رتبة المعبوديّة وتنزّهِهم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الأولويّة. وقُرئ الفعلان بـ"النون".[٢]

---

١ س: ممّا.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٥٧/٢.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية سؤال الملائكة، كأنّه قيل: فماذا يقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: يقولون متنزِّهين عن ذلك: ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقّق، أي: أنت الذي نُواليه مِن دونهم، لا موالاةَ بيننا وبينهم، كأنّهم بيّنوا بذلك براءتهم مِن الرضا بعبادتهم، ثمّ أضربوا عن ذلك، ونفَوا أنّهم عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ أي: الشياطينَ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله سبحانه. وقيل: كانوا يتمثّلون لهم، ويُخيّلون لهم أنّهم الملائكة، فيعبدونهم. وقيل: يدخلون أجواف الأصنام إذا عُبِدَت، فيُعبَدون بعبادتها.

[٣٧٢ظ] ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ الضمير / الأوّل للإنس أو للمشركين، والأكثر بمعنى الكلّ، والثاني للجنّ.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ مِن جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزّه والتبرُّؤ عمّا نسب إليهم الكفرة، يخاطَبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهارًا لعجزهم وقصورهم عند عبَدتهم، وتنصيصًا على ما يوجب خَيبةَ رجائهم بالكلّيّة.

و"الفاء" ليست لترتيب ما بعدها مِن الحِكم على جواب الملائكة، فإنّه محقَّق، أجابوا بذلك أم لا؛ بل لترتيب الإخبار به عليه. ونسبة عدم النفع والضرّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبَدة بنَظمه في سِلك عدم نفع العبَدة لهم، كأنّ نفع الملائكة لعبَدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبَدة لهم. والتعرّض لعدم الضرّ مع أنّه لا بحثَ عنه أصلًا فإمّا لتعميم العجز، أو لحَمل عدم النفع على تقدير العبادة، وعدمِ الضرّ على تقدير تركها، أو لأنّ المراد دفع الضرّ على حذف المضاف. وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق لانعقاد رجائهم على تحقّق النفع يومئذ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطفٌ على "نَقُولُ[١] لِلْمَلَائِكَةِ"،[٢] لا على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ كما قيل،[٣] لأنّه ممّا يقال يوم القيامة خطابًا للملائكة مترتّبًا على جوابهم المَحكي، وهذا حِكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِما سيُقال للعبَدة يومئذ إثرَ حكاية ما سيُقال للملائكة، أي: يومَ نحشرهم جميعًا ثمّ نقول[٤] للملائكة كذا وكذا، ويقولون كذا وكذا، ونقول للمشركين: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بيان لبعض آخَر مِن كَفَراتِهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم / آياتُنا الناطقة بحقّيّة [٣٧٣و]
التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستتبِعكم بما يستبدِعه مِن غير أن يكون هناك دين إلهي. وإضافة "الآباء" إلى المخاطَبين -لا إلى أنفسهم- لتحريك عِرق العصبيّة منهم مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلام مَصروف عن وجهه، لا مِصداقَ له في الواقع، ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوّة، أو الإسلامِ، أو القرآنِ، على أنّ العطف لاختلاف العنوان بأن يُراد بالأوّل معناه، وبالثاني نظمُه المعجِز. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مِن غير تدبّر ولا تأمّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سِحريّته.

---

[١] كذا في الأصول الخطّيّة بـ"النون"، هو مبنيّ على القراءة بـ"النون"، وقد سبق بيانها في سبأ، ٣٤/٤٠.

[٢] سبأ، ٣٤/٤٠.

[٣] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٥٨٨؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٢٥٠.

[٤] كذلك هو مبنيّ على القراءة بـ"النون" في الفعلين.

وفي تكرير الفعل، والتصريحِ بذكر الكفرة، وما في "اللامَين"[١] مِن الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿لَمَّا﴾ مِن المسارعة إلى البتّ بهذا القول الباطل؛ إنكارٌ عظيم له، وتعجيبٌ بليغ منه.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحّة الإشراك كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٢١]. وقُرئ: "يُدَرِّسُونَهَا"،[٢] و"يَدَّرِسُونَهَا" بتشديد "الدال"،[٣] "يفتَعِلون" مِن "الدَّرْس".

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه، وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، وقد بانَ مِن قبلُ أن لا وجهَ له بوجه مِن الوجوه، فمِن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟ وهذا غاية تجهيل لهم، وتسفيهٍ لرأيهم.

ثمّ هدّدهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المتقدّمة والقرونِ الخالية كما كذّبوا، ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي: ما بلغَ هؤلاء عُشرَ ما آتينا أولئك مِن القوّة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغَ أولئك عُشرَ ما آتينا / هؤلاء مِن البيّنات والهدى، ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ عطفٌ على ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾... إلخ بطريق التفصيل والتفسير، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ[٤] قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾... إلخ [القمر، ٥٤/٩]. [٣٧٣ظ]

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذَر هؤلاء مِن مثل ذلك.

---

[١] أراد بهما الاسم الموصول المذكور في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولام التعريف في قوله: ﴿لِلْحَقِّ﴾ على سبيل التغليب. انظر: حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ٧١٠/٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٥٩/٨.

[٤] م س ط - قبلهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: ما أُرشدكم وأنصح لكم إلّا بخَصلة واحدة، هي ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ على أنّه بدل منها، أو بيان لها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي أن تَقُوموا مِن مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو تنتصبوا للأمر خالصًا لوجه الله تعالى معرضًا عن المماراة والتقليد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرّقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، فإنّ الازدحام يشوّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام. وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنّه أوثَق وأقرب مِن الاطمئنان.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمره صلّى الله عليه وسلّم وما جاء به؛ لتعلموا حقيقتَه وحَقِّيَتَه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئناف مَسوق مِن جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمّل بأنّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحته[١] مُلك الدنيا والآخرة لا يتصدّى لادّعائه إلّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهورِ عَجزه، أو مؤيَّدٌ مِن عند الله مرشَّح للنبوّة، واثِقٌ بحجّته وبرهانه.

وإذ قد علمتم أنّه عليه السلام أرجحُ العالِمين عقلًا، وأصدقُهم قولًا، وأنزهُهم نفسًا، وأفضلُهم علمًا، وأحسنُهم عملًا، وأجمعُهم للكمالات البشريّة؛ وجَب أن تصدّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمّ إلى ذلك معجزات تخِرّ لها صُمّ الجبال.

ويجوز أن يتعلّق بما قبله على معنى: ثم تتفكّروا فتعلَموا ما بصاحبكم مِن جِنّة. وقد جُوّز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهاميّة على معنى: ثم تتفكّروا أيّ شيء به مِن آثار الجنون.

---

١ س: تحت.

[٣٧٤و] ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ / هو عذاب الآخرة، فإنّه عليه السلام مبعوث في نَسَم الساعة.[١]

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: أيَّ شيء سألتكم مِن أجرٍ على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأسًا، كقول مَن قال لمَن لم يعطِه شيئًا: "إن أعطيتني شيئًا فخذه". وقيل: ﴿مَا﴾ موصولة، أريدَ بها ما سألهم بقوله تعالى: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى، ٤٢/٢٣]، واتّخاذُ السبيل إليه تعالى منفعتهم الكبرى، وقُرباه عليه السلام قُرباهم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مُطّلِع، يعلم صِدقي وخلوصَ نيّتي. وقُرئ: "إنْ أَجْرِي" بسكون "الياء".[٢]

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يُلقيه ويُنزله على مَن يجتبيه مِن عباده، أو يرمي به الباطِلَ فيدمغه، أو يرمي به في أقطار الآفاق، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام، وإعلاءِ كلمة الحقّ.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ صفة محمولة على محلّ ﴿إِنَّ﴾ واسمِها، أو بدل مِن المستكِنّ في ﴿يَقْذِفُ﴾، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف. وقُرئ بالنصب[٣] صفةً لـ﴿رَبِّي﴾، أو مقدَّرًا بـ"أعني". وقُرئ بكسر "الغين"،[٤] وبالفتح[٥] كـ"صَبور" مبالغةِ "غائِب".

---

[١] أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء، ٤/١٦١، عن أبي جَبيرة، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «بُعثت في نَسَم الساعة». وأخرجه البزّار في مسنده، ٨/٣٨٩ (٣٤٦٢)، بلفظ: «بُعثت في نَفَس الساعة». و"نَسَمُ الساعة" مِن "النسيم"، أوّلِ هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أوّل أشراط الساعة وضَعفِ مجيئها. النهاية لابن الأثير، «نسم».

[٢] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

[٤] قرأ بها حمزة وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام والتوحيد، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: زهَقَ الشرك بحيث لم يبقَ أثره أصلًا، مأخوذ مِن هلاك الحيّ، فإنّه إذا هلك لم يبقَ له إبداء ولا إعادة، فجُعل مثلًا في الهلاك بالمرّة، ومنه قول عُبيد:[١]

أقفَرَ مِن أهلِه عُبيدُ   فليس يُبدِي ولا يُعيدُ[٢]

وقيل: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إبليس، أو الصنم، والمعنى: لا ينشئ خَلقًا ولا يُعيد، أو لا يبدئ خيرًا لِأهله ولا يُعيد. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة منصوبة بما بعدها.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الطريق الحقّ / ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنّ وبالَ [٣٧٤ظ]
ضلالي عليها؛ لأنّه بسببها؛ إذ هي الحاطّة بالذات، والأمّارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قُوبل الشرطيّة بقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ لأنّ الاهتداء بهدايته وتوفيقه. وقُرئ: "رَبِّيَ" بفتح "الياء".[٣]

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يعلم قولَ كلٍّ مِن المهتدي والضالّ وفعلَه، وإن بالغ في إخفائهما.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ عند الموت، أو البعث، أو يومَ بدر. وعن ابن عبّاس

---

١ هو عُبيد بن الأبرص بن عَوف بن جشم الأسدي، مِن مضر، أبو زياد (ت. نحو ٢٥ق هـ/٦٠٠م). شاعر مِن دُهاة الجاهليّة وحكمائها. وهو أحد أصحاب المُجمهَرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلّقات. عاصَر أمرَأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات. وعمّر طويلًا حتى قتله النعمان بن المنذر، وقد وفَد عليه في يوم بؤسه. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٥٩/١؛ والأعلام للزركلي، ١٨٨/٤.

٢ لعُبيد بن الأبرص في لسان العرب لابن منظور، «قفر». وفيه: «يُقال: "أقفَرَ فلان مِن أهله" إذا انفرَد عنهم وبقي وحدَه».

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

رضي الله عنهما: «أنّ ثمانين ألفًا يغزون الكعبة ليخرّبوها، فإذا دخلوا البيداء خُسف بهم».[١] وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لَرأيتَ أمرًا هائلًا.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون الله عزّ وجلّ بهرَبٍ أو تَحصُّنٍ.

﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مِن ظهر الأرض، أو مِن الموقف إلى النار، أو مِن صحراء بدر إلى قَليبها، أو مِن تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والجملة معطوفة على ﴿فَزِعُوا﴾. وقيل: على ﴿لَا فَوْتَ﴾، على معنى: إذ فزِعوا فلم يفوتوا وأُخِذوا، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَأَخْذٌ"[٢] بالعطف على محلّه، أي: فلا فوتَ هنا، وهناك أخذٌ.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد مرّ ذكره في قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾.[٣]

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ "التناوُش": التناول السَّهل، أي: ومِن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولًا سهلًا ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فإنّه في حيّز التكليف، وهم منه بمَعزِل بعيد، وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبَعُد بحالِ مَن يريد أن يتناول الشيء مِن غَلوةٍ تناولَه[٤] مِن ذراعٍ في الاستحالة.
[٣٧٥و] وقُرئ بـ"الهمز"[٥] على قلب "الواو" لضمّها، وهو مِن "نَأَشْتُ الشيءَ" / إذا طلبتَه، وعن أبي عمرو: "التَّناؤُش" -بـ"الهمز"- التناول مِن بُعد، مِن قولهم: "نَأَشْتُ"

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٣. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء مِن الأرض يُخسف بأوّلهم وآخِرهم»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأوّلهم وآخِرهم وفيهم أسواقهم، ومَن ليس منهم؟ قال: «يُخسف بأوّلهم وآخِرهم، ثمّ يبعثون على نيّاتهم». صحيح البخاري، ٦٥/٣ (٢١١٨)؛ صحيح مسلم، ٢٢١٠/٤ (٢٨٨٤).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٩٣.

[٣] سبأ، ٤٦/٣٤.

[٤] قوله: "غَلْوة" هي مقدار رَمية سَهم، وهو هنا مثال للبُعد، كما أنّ الذراع مثال للقُرب بدون قصد للتخصيص. و"تَناولَه" مصدر مضاف للمفعول أو للفاعل. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢١١/٧.

[٥] أي: "التَّنَاؤُش". قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٥١/٢.

إذا أبطأتَ وتأخّرتَ، ومنه قول مَن قال:

تمنّى نئيشًا أن يكون أطاعني وقد حدثَت بعد الأمرِ أمورُ[١]

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إيّاه، ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ ذلك، في أوانِ التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويَرجُمون بالظنّ، ويتكلّمون بما لم يظهر لهم في حقّ الرسول عليه السلام مِن المَطاعن، أو في العذاب المذكور مِن بَتِّ القول بنفيه، ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مِن جهة بعيدة مِن حاله عليه السلام، حيث ينسبونه عليه السلام إلى الشِّعر والسِّحر والكذب، وأنّ أبعدَ شيء ممّا جاء به الشِّعرُ والسحرُ، وأبعدَ شيء مِن عادته المعروفة فيما بين الداني والقاصي الكذبُ، ولعلّه تمثيل لحالهم في ذلك بحال مَن يرمي شيئًا لا يراه مِن مكان بعيد لا مجال للوهم في لُحوقه.

وقُرِئ: "وَيُقْذَفُونَ"[٢] على أنّ الشيطان يُلقي إليهم ويُلقّنهم ذلك، وهو معطوف على ﴿قَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ على حكاية الحال الماضية، أو على ﴿قَالُوٓا۟﴾،[٣] فيكون تمثيلًا لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيّعوه مِن الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِن نفع الإيمان والنجاة مِن النار. وقُرِئ بإشمام الضمّ للحاء.[٤] ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم مِن كفرة الأمم الدارجة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ أي: مُوقعٍ في الرِّيبة، أو ذي رِيبةٍ.

---

[١] لنَهشل بن حَرّي في لسان العرب لابن منظور، «نأش». وفيه: «أي: تمنّى في الأخير وبعدَ الفَوت أن لو أطاعني، وقد حدثت أمور لا يُستدرك بها ما فات، أي: أطاعني في وقت لا تنفعه فيه الطاعة».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي حيوة ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٧١.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] قرأ بها ابن عامر والكسائي ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

والأوّل منقول ممَّن يصحّ أن يكون مُريبًا مِن الأعيان إلى المعنى، والثاني مِن صاحب الشكّ إلى الشكّ، كما يقال: "شِعرٌ شاعِر"، والله تعالى[١] أعلم.

[٣٧٥ظ] / عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسول ولا نبيٌّ إلّا كان له يومَ القيامة رفيقًا ومصافحًا».[٢]

---

[١] م - تعالى.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٦٩/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٨٦/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ سَبَإٍ

مكِّيَّةٌ، كما رُوي عن ابن عباس وقتادة، وفي «التحرير»: هي مكِّيَّةٌ بإجماعهم، وقال ابنُ عطيَّة: مكِّيَّةٌ إلَّا قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [الآية: ٦][1].

ورَوى الترمذيُّ عن فروة بن مُسيكة المراديّ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألَا أقاتلُ من أدبرَ من قومي. الحديث. وفيه: وأُنْزِلَ في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله، وما سبأ؟ الحديث[2].

قال ابنُ الحصَّار[3]: هذا يدلُّ على أنَّ هذه القصَّة مدنيَّةٌ؛ لأنَّ مُهاجَرةَ فروة بعد إسلام ثقيف سنةَ تسعٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ قوله: «وأُنْزِلَ» حكايةً عمَّا تقدَّم نزولُه قبلَ هجرته، فلا يأبى كونَها مكِّيَّةً.

وآياتُها خمسٌ وخمسون في الشاميّ، وأربع وخمسون في الباقين. وما قيل: خمسٌ وأربعون. سهوٌ من قلم الناسخ.

ووجهُ اتِّصالها بما قبلَها أنَّ الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٤. وذكر أنه اختلف فيها؛ فقالت فرقة: هي مكية، وقالت فرقة: هي مدنية.

(٢) سنن الترمذي (٣٢٢٢)، وهو عند أحمد (٨٩/٢٤٠٠٩)، وأخرجه أبو داود (٣٩٨٨) مختصراً. واسم الصحابي في هذه المصادر: فروة بن مسيك، وهو أشهر كما قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٨/ ٩٥.

(٣) هو علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى، أبو الحسن الأندلسي الأصل، الفاسي المنشأ، له كتابٌ في ناسخ القرآن ومنسوخه ـ سمعه منه الحافظ المنذري ـ وكتاب المدارك، وصل به مقطوع حديث مالك والموطأ، وغيرها، توفي سنة (٦١١هـ). التكملة لوفيات النقلة ٢/ ٣٠٩-٣١٠، وتاريخ الإسلام ١٣/ ٣١٩، والأعلام ٤/ ٣٣٠-٣٣١.

ممَّا يناسبُ الحكم التي في مختتم ما قبلُ من قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣] إلخ. وأيضاً قد أُشير فيما تقدَّم إلى سؤال الكفَّار عن الساعة على جهة الاستهزاء، وها هنا قد حَكى عنهم إنكارَها صريحاً والطعنَ بمن يقول بالمعاد على أتمِّ وجهٍ، وذكر ممَّا يتعلَّق بذلك ما لم يذكر هناك.

وفي «البحر» أنَّ سبب نزولها أنَّ أبا سفيان قال لكفار مكَّة لما سمعوا: (لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ): كأنَّ محمداً يتوعَّدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويتخوفنا[1] بالبعث، واللاتِ والعزَّى لا تأتينا الساعةُ أبداً ولا نبعث، فقال الله تعالى: قل يا محمد: بلى وربِّي لتبعثنّ، قاله مقاتل. وباقي السورة تهديدٌ لهم وتخويف، ومن هذا ظهرت المناسبةُ بين هذه السورة والتي قبلها[2]. انتهى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له عزَّ وجلَّ خلقاً ومُلْكاً وتصرُّفاً بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة، جميعُ ما وُجِد فيهما، داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما، متمكِّناً فيهما، فكأنه قيل: له هذا العالم بالأسر، ووصفُه تعالى بذلك ـ على ما قاله أبو السعود[3] ـ لتقريرِ ما أفاده تعليقُ الحمد المعرَّف بلام الحقيقة ـ عند أرباب التحقيق ـ بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراد المخلوقات به عزَّ وجلَّ، ببيان تفرُّده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك، وكون كلِّ ما سواه سبحانه من الموجودات التي من جملتها الإنسان تحتَ ملكوته تعالى، ليس لها في حدِّ ذاتها استحقاقُ الوجود فضلاً عمَّا عداه من صفاتها، بل كلُّ ذلك نِعَمٌ فائضةٌ عليها من جهتِه عزَّ وجلَّ، فما هذا شأنُه فهو بمعزلٍ من استحقاق الحمد الذي مَدَارُه الجميلُ الصادر عن القادر بالاختيار، فظهر اختصاصُ جميع أفراده به تعالى.

---

(١) في البحر المحيط: ويخوفنا.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٧.
(٣) في تفسيره ٧/ ١٢٠.

وفي الوصف بما ذُكِرَ أيضاً إيذانٌ بأنَّه تعالى المحمودُ على نعم الدنيا، حيث عقَّب الحمدُ بما تضمَّن جميعَ النعم الدنيويَّة، فيكون الكلام نظير قولك: احْمَدْ أخاكَ الذي حملك وكساك. فإنَّكَ تريدُ به: احْمَدْهُ على حملانه وكسوته.

وفي عطف قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ على الصلة كما هو الظاهر إيذانٌ بأنَّه سبحانه المحمودُ على نعم الآخرة؛ ليتلاءم الكلام. وفي تقييد الحمد فيه بأنَّ محلَّه الآخرة إيذانٌ بأنَّ محلَّ الحمد الأوَّل الدنيا لذلك أيضاً، فتفيد الجملتان أنَّه عزَّ وجلَّ المحمودُ على نِعَمِ الدنيا فيها، وأنَّه تبارك وتعالى المحمودُ على نِعَمِ الآخرة فيها.

وجُوِّزَ أن يكون في الكلام صنعة الاحتباك، وأصله: الحمد لله.. إلخ في الدنيا، وله ما في الآخرة والحمد فيها، فأثبتَ في كلٍّ منهما ما حذف من الآخر.

وقال أبو السعود: إنَّ الجملة الثانية لاختصاص الحمد الأخرويِّ به تعالى، إثرَ بيان اختصاص الدنيويِّ به سبحانه، على أنَّ «في الآخرة» متعلِّقٌ بنفس الحمد، أو بما تعلَّق به «له» من الاستقرار، وإطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه في الآخرة عن التعيين، كما اكتفي فيما سبق بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد فيها أيضاً، بل ليعمَّ النِّعَمْ الأخرويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الزمر:٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥] وما يكونُ ذريعةً إلى نيلها من النعم الدنيويَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣] أي: لِمَا جزاؤه هذا النعيمُ من الإيمان والعمل الصالح(١).

وأنت تعلم أنَّ المتبادر إلى الذهن هو ما قُرِّرَ أوَّلاً.

والفرقُ بين الحمدين ـ مع كون نِعَمِ الدنيا ونِعَمِ الآخرة بطريق التفضُّل ـ أنَّ

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٠.

الأوَّل على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذُّذ والاغتباط. وقد ورد في الخبر أنَّ أهلَ الجنة يُلْهَمون التسبيحَ كما يُلْهَمون النَّفَس[1].

وقولُ الزمخشريِّ[2]: إنَّ الأوَّل واجبٌ؛ لأنَّه على نعمةٍ متفضَّلٍ بها، والثاني ليس بواجب؛ لأنَّه على نعمةٍ واجبةِ الإيصال إلى مستحقِّها = مبنيٌّ على رأي المعتزلة. على أنَّ قوله: لأنَّه على نعمةٍ واجبة الإيصال. ليسَ على إطلاقه عندهم؛ لأنَّ ما يُعطي اللهُ تعالى العبادَ في الآخرة ليس مقصوراً على الجزاء عندهم، بل بعضُ ذلك تفضُّلٌ وبعضُه أجر.

وتقديم الخبر في الجملة الثانية؛ لتأكيد الحصر المستفادِ من اللام ـ على ما هو الشائع ـ اعتناءً بشأن نِعَمِ الآخرة. وقيل: للاختصاص؛ لأنَّ النِّعَم الدنيويَّة قد تكون بواسطة من يستحقُّ الحمدَ لأجلها، ولا كذلك نِعَمُ الآخرة. وكأنه أرادَ: لتأكيد الاختصاص، أو بَنى الأمر على أنَّ الاختصاص المستفادَ من اللام بمعنى الملابسة التامَّة لا الحصر، كما فصَّله الفاضلُ اليمنيّ، وأمَّا أنَّه أراد لاختصاص الاختصاص، فكما ترى، ويَرِدُ على قوله: ولا كذلك نِعَم الآخرة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فتأمَّل.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمرَ الدارين ودبَّره حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ العالمُ ببواطن الأشياء ومكنوناتها، ويلزم من ذلك علمُه تعالى بغيرها، وعمَّم بعضهم مِنْ أوَّلِ الأمر، وما ذكر مبنيٌّ على ما قاله بعضُ أهل اللغة من أنَّ الخبرة تختصُّ بالبواطن؛ لأنَّها من خَبَرَ الأرضَ: إذا شقَّها.

وفي هذه الفاصلة إيذانٌ بأنَّه تعالى كما يستحقُّ الحمدَ لأنَّه سبحانه منعِمٌ يستحقُّه لأنَّه ـ جلَّ شأنه ـ منعوتٌ بالكمال الاختياريِّ، وتكميلُ معنى كونه تعالى منعِماً أيضاً

(١) أخرج مسلم (٢٨٣٥): (١٩) من حديث جابر ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهلُ الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوَّطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكنْ طعامُهُم ذاك جُشَاءٌ كَرَشْحِ المسك، يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس».

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٧٨.

بأنَّه على وجه الحكمة والصواب، وعن علمٍ بموضع الاستحقاق والاستيجاب، لا كمن يطلَقُ عليه أنَّه منعمٌ مجازاً.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ استئنافٌ لتفصيل بعض ما يحيطُ به علمه تعالى من الأمور التي نيطت بها مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة.

وجُوِّز أن يكون تفسيراً لخبير، وأن يكون حالاً من ضميره تعالى في: «له ما في السماوات» فيكون: «له الحمد في الآخرة» اعتراضاً بين الحال وصاحبها.

أي: يعلمُ سبحانه ما يدخلُ في الأرض من المطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات، قاله السُّدِّيُّ.

وقال الكلبيُّ: ما يدخلُ فيها من الأموات، وما يخرج منها من جواهر المعادن.

والأولَى التعميمُ في الموصولين، فيشملان كلَّ ما يلجُ في الأرض، ولو بالوضع فيها، وكلَّ ما يخرجُ منها حتى الحيوان، فإنَّه كلَّه مخلوقٌ[1] من التراب.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الملائكة، قاله السُّدِّيُّ والكلبيُّ.

والأولَى التعميمُ، فيشمل «ما ينزل» المطرَ والثلجَ والبرَدَ والصاعقةَ والمقاديرَ ونحوها أيضاً، «وما يعرجُ» الأبخرةَ والأدخنةَ وأعمالَ العبادِ وأدعيَتَهم ونحوها أيضاً، ويرادُ بـ «السماء» جهةُ العلوِّ مطلقاً.

ولعلَّ ترتيب المتعاطفات كما سمعت إفادةً للترقِّي في المدح، وضُمِّن العروجُ معنى السير أو الاستقرار ـ على ما قيل ـ فلذا عُدِّي بـ «في» دون «إلى». وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار التضمين، والمراد بـ «ما يعرجُ فيها»: ما يعرجُ في ثخن السماء، ويعلم من العلم بذلك العلمُ بما يعرجُ إليها من باب أولى. فتدبر.

---

(١) في الأصل: مخلوقين.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه والسلميُّ: «يُنَزِّل» بضمِّ الياء وفتح النون وشدِّ الزاي، أي: الله، كذا في «البحر»[(١)].

وفي «الكشاف» عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قرأ: «نُنَزِّل» بالتشديد ونون العظمة[(٢)].

﴿وَهُوَ﴾ مع كثرة نعمته وسبوغ فضله ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾ للمفرِّطين في أداء مواجب شكرها، فهذا التذنيبُ ـ مع كونه مقرِّراً للخبرة ـ مفصِّلٌ لما أُجمِل في قوله سبحانه: «له ما في السماوات وما في الأرض» يُعْرَف منه كيف كان كلُّه نعمةً، وكالتبصُّر لأنواع النعم الكلِّيَّة، فكلٌّ منه ومن التذنيب السابق في موضعه الأحقِّ[(٣)]، فلا تتوهَّم أنَّ العكسَ أنسب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلِّم جنسَ البشر قاطبةً، لا أنفسهم أو معاصريهم فقط، وبنفي إتيانها نفيَ وجودها بالكلِّيَّة، لا عدمَ حضورها مع تحقُّقها[(٤)] في نفس الأمر، وإنما عبَّروا عنه بذلك لأنَّهم كانوا يُوعَدون بإتيانها. وقيل: لأنَّ وجودَ الأمور الزمانيَّة المستقبلة ـ لا سيما أجزاء الزمان ـ لا يكون إلَّا بالإتيان والحضور. وقيل: هو استبطاءٌ لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس:٤٨]. والأوَّل أولى.

والجملة ـ قيل ـ معطوفةٌ على ما قبلها عطفَ القصَّة على القصَّة، وجعلُها حاليَّةً غيرُ ظاهر.

﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم، وإثباتٌ لما نفوه، على معنى: ليس الأمر إلَّا إتيانها، وقولُه تعالى: ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تأكيدٌ له على أتمِّ الوجوه وأكملها.

---

(١) ٧/ ٢٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٩، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٥٣.

(٣) في (م): اللاحق. وهو تصحيف.

(٤) في (م): تحقيقها، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٧/ ١٢١، والكلام منه.

وجاء القَسَمُ بالربِّ للإشارة إلى أنَّ إتيانَها من شؤون الربوبيَّة، وأتى به مضافاً إلى ضميره ﷺ؛ ليدلَّ على شدَّة القسم. ورَوى هارون ـ كما قال ابن جنِّي[(١)] ـ عن طليق[(٢)] قال: سمعت أشياخنا يقرؤون: «ليأتينَّكم» بالياء التحتيَّة، وخُرِّجت على أنَّ الفاعل ضميرُ البعث؛ لأنَّ مقصودهم من نفي إتيان الساعة أنَّهم لا يبعثون. وقيل: الفاعل ضمير «الساعة» على تأويلها باليوم أو الوقت. وتعقَّبه أبو حيان[(٣)] بأنَّه بعيدٌ؛ إذْ لا يكون مثلُ هذا إلَّا في الشعر نحو:

ولا أرضَ أبقلَ إبقالَها[(٤)]

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ﴾ بدلٌ من المقسم به، على ما ذهب إليه الحوفيُّ وأبو البقاء، وجُوِّزَ أنْ يكون عطفَ بيان، وأجاز أبو البقاء أن يكون صفةً له[(٥)]. وتُعقِّبَ بأنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ، وهي ـ كما ذكره سيبويه في «الكتاب» ـ لا تتعرَّفُ بالإضافة إلى معرفة[(٦)]، والجمهور على أنَّها تتعرَّفُ بها، ولذا ذهب جمعٌ من الأجلَّة إلى أنَّه صفةٌ.

ووصف سبحانه بإحاطة العلم إمداداً للتأكيد، وتشديداً له إثرَ تشديد، فإنَّ عظمةَ حال المقسَم به تؤذنُ بقوَّة حال المقسَم عليه، وشدَّة ثباته واستقامته؛ لأنَّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلَّما كان المستشهَدُ به أعلى كعباً، وأبينَ فضلاً، وأرفعَ منزلةً؛ كانت الشهادةُ أقوى وآكد، والمستشهد عليه أثبتَ وأرسخ. وخُصَّ هذا الوصف بالذكر من بين الأوصاف ـ مع أنَّ كلَّ وصفٍ يقتضي العظمةَ يتأتَّى به ذلك ـ لِمَا أنَّ له تعلُّقاً خاصّاً بالمقسَم عليه؛ فإنَّه أشهرُ أفراد الغيب في الخفاء، ففيه مع رعاية التأكيد حسنُ الإقسام على منوال:

---

(١) في المحتسب ٢/ ١٨٦.
(٢) كذا في المحتسب. ووقع في القراءات الشاذة ص١٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٥٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٥٧: طلق. بدل: طليق.
(٣) في البحر المحيط ٧/ ٢٥٧.
(٤) عجز بيت لعامر بن جُوين الطائي، وسلف ٢/ ٢٣٩.
(٥) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢٠٣.
(٦) انظر الكتاب ١/ ٤٢٥.

وثنـــايـــاكِ إنَّـــهـــا إغـــريـــضُ[1]

كأنَّه قيل: وربِّي العالمِ بوقت قيامها لتأتينَّكم. وفيه إدماجُ أن لا كلامَ في ثبوتها.

وقال صاحب «الفرائد»: جيء بالوصف المذكور؛ لأنَّ إنكارَهم البعثَ باعتبار أنَّ الأجزاءَ المتفرِّقة المنتشرةَ يمتنعُ اجتماعها كما كانت؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ الآية [ق: ٤]، فالوصف بهذه الأوصاف رَدٌّ لزعمهم الاستحالة، وهو أنَّ من كان علمهُ بهذه المثابة، كيف يمتنع منه ذلك؟ انتهى. واستحسنه الطيبيُّ.

وقال في «البحر»: أَتْبَعَ القَسَم بقوله تعالى: «عالم الغيب» وما بعده؛ ليعلم أنَّ إتيانها من الغيب الذي تفرَّدَ به عزَّ وجلَّ.

وما ذُكِرَ أوَّلاً أبعدُ مغزى.

وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أنْ لا يَبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلاً، فإنَّهم كانوا يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنَّما لم يصدِّقوه عليه الصلاة والسلام مكابرةً.

وغَفَل صاحبُ «الفرائد» عن هذه الفائدة فقال: اقتضى المقامُ اليمينَ؛ لأنَّ من أنكر ما قيل له، فالذي وجبَ بعد ذلك إذا أُريد إعادةُ القول له أنْ يكون مقترناً باليمين، وإلَّا كان خطأً بالنظر إلى علم المعاني، وإن كان صحيحاً بالنظر إلى العربية والنحو. وقد يَغْفُلُ الأريب.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر ورويس وسلام والجحدريُّ وقعنب: «عالمُ» بالرفع[2]، على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو عالم. وجَوَّزَ الحوفيُّ أن يكون مبتدأً خبرُه

---

(١) صدر بيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٢/ ٢٨٧، وعجزه:

ولآلٍ تُـــومٌ وبـــرقٌ ومـــيـــضُ

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٧. وقراءة نافع وابن عامر في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩، وفي الأخير قراءة رويس راوية يعقوب. وهي أيضاً قراءة أبي جعفر المدني من العشرة.

محذوف، أي: عالم الغيب هو. وجَوَّز هو وأبو البقاء[1] أنْ يكون مبتدأً والجملةُ بعده خبره.

وقرأ ابنُ وثّاب والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: «علّامِ» بصيغة المبالغة، والخفض[2].

وقُرِئ: «عالم» بالرفع[3] بلا مبالغة «الغيوب» بالجمع[4].

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أي: لا يَبعد، ومنه: روض عزيب: بعيدٌ من الناس. وقرأ الكسائيُّ بكسر الزاي[5].

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدارُ أصغر نملة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كائنةٍ فيهما ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مثقالِ ذرَّة ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ أي: منه، والكلامُ على حدِّ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف:٤٩]. ورفعهما على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ هو اللوح المحفوظ عند الأكثرين. والجملة مؤكِّدةٌ لنفي العزوب.

وقرأ الأعمشُ وقتادة، وأبو عمرو ونافع في روايةٍ عنهما: «ولا أصغرَ ولا أكبرَ» بالنصب[6]، على أنَّ «لا» لنفي الجنس عاملةٌ عمل «إنَّ»، وما بعدَها اسمها منصوبٌ بها؛ لأنَّه شبيهٌ بالمضاف، ولم ينوَّن للوصف ووزن الفعل، فليس ذلك نحو: «لا مانع لما أعطيت»[7]، والخبر هو الخبر على قراءة الجمهور.

---

(١) في الإملاء ٤/ ٢٠٣.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩.
(٣) بعدها في (م): يكون.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٧٩.
(٥) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٥.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٥، والبحر المحيط ٧/ ٢٥٨، وقراءة الأعمش وقتادة في القراءات الشاذة ص١٢١. وقراءة نافع وأبي عمرو المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٧) قطعة من حديث متفق عليه، سلف ١٢/ ٤٨٣، وسلف ثمة الكلام في هذه المسألة.

وقال أبو حيان: «لا» لنفي الجنس، وهي وما بني معها مبتدأ على مذهب سيبويه، والخبر «إلا في كتاب»[1].

وما ذكرناه في توجيه القراءتين هو الذي ذهب إليه كثيرٌ من الأجلَّة.

وقيل: إنَّ ذلك معطوفٌ في قراءة الرفع على «مثقال»، وفي القراءة الأخرى على «ذَرَّة»، والفتحة فيه نيابة عن الكسرة للوصف والوزن، وإليه ذهبَ أبو البقاء[2].

واستشكلَ بأنَّه يصير المعنى عليه إذا كان الاستثناء متَّصلاً كما هو الأصل: لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا في كتاب مبين، فإنَّه يعزبُ عنه فيه. وفسادُه ظاهرٌ.

والتزمَ السراجُ البلقيني على تقدير العطف المذكور أنْ يكونَ الاستثناءُ من محذوف، والتقدير: ولا شيء إلَّا في كتابٍ، ثم قال: ولا بدع في حذف ما قُدِّر لدلالة الكلام عليه، ويحصل من مجموع ذلك إثباتُ العلم لله تعالى بكلِّ معلومٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ في الكتاب.

وقيل: العطفُ على ما ذكر، والاستثناء منقطع، والمعنى: لا يعزبُ عنه تعالى شيءٌ من ذلك، لكن هو في كتاب.

وقيل: العطف على «ذلك»، والكلام نهج قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ[3]

فالمعنى: إن كان يعزبُ عنه شيءٌ، فهو الذي في كتابٍ مبين، لكن الذي في الكتاب لا يعزبُ عنه، فلا يعزبُ عنه شيءٌ. وفيه من البعد ما فيه.

وقيل: إنَّ المرادَ بقوله تعالى: «لا يعزب» إلخ أنَّه تعالى عالمٌ به، والمراد بقوله سبحانه: «إلَّا في كتاب» نحو ذلك؛ لأنَّ الكتاب هو عِلْمُ الله تعالى،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨، والكتاب ٢/ ٢٧٥.

(٢) الإملاء ٤/ ٢٠٣.

(٣) سلف ٥/ ٤٠٧.

والمعنى: وما يعزبُ عنه مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء إلَّا يعلمُه، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا في علمه، فيكون نظيرَ قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. وفيه أنَّه أبعدُ ممَّا قبله.

وقيل: «يعزب» بمعنى يظهر ويذهب، والعطف على ما سمعت، والمعنى: لم يظهر شيءٌ عن الله تعالى بعدَ خلقه له إلَّا وهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، وتلخيصه: كلُّ مخلوقٍ مكتوب. وفيه أنَّ هذا المعنى لـ «يعزب» غيرُ معروف، وإنَّما المعروف ما تقدَّم. نعم قال الصغانيُّ في «العباب» قال أبو سعيد الضرير: يقال: ليس لفلانٍ امرأة تُعزِبه، أي: تُذْهِب عزبتَه بالنكاح، مثل قولك: تُمْرِضُه، أي: تقوم عليه في مرضِه، ثم قال الصغانيُّ: والتركيب يدلُّ على تباعدٍ وتَنَحٍّ، فتفسيره بالظهور بعيدٌ، ولئن سلَّمنا قربَه، فلأيٍّ شيء جمع بين الظهور والذهاب.

وقيل: «إلا» بمعنى الواو، و«هو» مقدَّر في الكلام، والكلام قد تمَّ عند «أكبر»، كأنه قيل: لا يعزبُ عنه ذلك، وهو في كتاب، ومجيءُ «إلَّا» بمعنى الواو ذهبَ إليه الأخفشُ من البصريين، والفرَّاء من الكوفيين[1]. وخرَّجَ عليه قومٌ: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢]، و: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧].

وقد حكى هذا القولَ مكِّيٌّ في نظير الآية، ثم قال: وهو قولٌ حسن، لولا أنَّ جميعَ البصريين لا يعرفون «إلَّا» بمعنى الواو.

وكأنَّه لم يقف على قول الأخفش، وهو من رؤساء نحاة البصرة، أو لم يعتبره[2]، فلذا قال: جميع البصريين، وقد كثر الكلام في هذا الوجه وارتضاه السراجُ البلقيني، وأنا لا أراهُ مَرْضياً، وإن أوقدَ له ألفُ سراج.

---

(١) انظر معاني القرآن للأخفش ١/٣٤٣، ومعاني القرآن للفراء ٢/٢٨٧-٢٨٨. وانظر ما سلف ١١/١٩٨-١٩٩.

(٢) في الأصل: يعتبروه.

وقيل: العطف على ما سمعت، وضمير «عنه» للغيب، فلا إشكال، إذ المعنى حينئذٍ: لا يبعدُ عن غيبه شيءٌ إلَّا ما كان في اللوح؛ لبروزه من الغيب إلى الشهادة واطِّلاع الملأ الأعلى عليه.

وتُعقِّب بأنَّ المعنى لا يساعدُه؛ لأنَّ الأمر الغيبيَّ إذا برز إلى الشهادة لم يعزب عنه، بل بقي في الغيب على ما كان عليه مع بروزه، ومعناه أنَّ كونَه في اللوح المحفوظ كنايةٌ عن كونه من جملة معلوماته تعالى، وهي إمَّا مغيبةٌ وإمَّا ظاهرةٌ، وكلُّ مغيَّبٍ سيظهر، وإلَّا كان معدوماً لا مغيَّباً، وظهورُه وقتَ ظهوره لا يرفعُ كونَه مغيَّباً، فلا يكون الاستثناء متَّصلاً، ألا ترى أنَّك لو قلت: عِلْمُ الساعة مغيَّبٌ عن الناس إلَّا علمَهم بها حين تقوم ويشاهدونها، لم يكن هذا الاستثناءُ متَّصلاً، كذا قيل، فتأمَّل ولا تغفل.

وأنت تعلم أنَّ هذا الوجه على فرض عدم ورود ما ذُكر عليه ضعيفٌ؛ لأنَّ الظاهرَ الذي يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [يونس: ٦١] رجوعُ الضمير إلى الله عزَّ وجلَّ.

والذي ذهب إليه أبو حيان[1] أنَّ الكتابَ ليس هو اللوح، وليس الكلامُ إلَّا كنايةً عن ضبط الشيء والتحفُّظ به.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: «ولا أصغرِ من ذلك ولا أكبرِ» بكسر الراءين[2]. وخُرِّجَ على أنَّه نويَ مضافٌ إليه، والتقدير: ولا أصغرِه ولا أكبرِه. و«من ذلك» ليس متعلِّقاً بأفعل، بل هو تبيينٌ؛ لأنَّه لما حذف المضاف إليه أُبهم لفظاً، فبُيِّن بقوله تعالى: «من ذلك»، أي: أعني من ذلك. ولا يخفى أنَّه توجيه شذوذ.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ متعلِّقٌ بقوله سبحانه: «لتأتينَّكم»،

---

(١) في البحر ٧/ ٢٥٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٨.

على أنَّه علةٌ له وبيانٌ لمقتضى إتيانها، فهو من تتمَّة المقسَم عليه، فحاصل الكلام أنَّ الحكمة تقتضي إثباتَها، والعلمُ البالغُ المحيط بالغيب وجميعِ الجزئيات جليِّها وخفيِّها حاصلٌ، والقدرةُ المقتضيةُ لإيجاد العالم وما فيه وجعله نعمةً على ما مرَّ، فقد تمَّ المقتضي، وارتفعَ المانعُ، فليس في الآية اكتفاءٌ في الردِّ بمجرَّد اليمين.

واستظهر في «البحر» تعلُّقه بـ «لا يعزب»، وذهب إليه أبو البقاء[1]. وتُعقِّبَ بأنَّ علمه تعالى ليس لأجل الجزاء.

وقيل: متعلِّق بمتعلَّق «في كتاب». وهو كما ترى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول من حيث اتِّصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل والشرف، أي: أولئك الموصوفون بالإيمان وعمل الأعمال الصالحات ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لما فَرَطَ منهم من بعض فرطاتٍ قلَّما يخلو عنها البشر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ حسنٌ لا تعب فيه ولا مَنَّ عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقدح فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين، يحسبون أنَّهم يفوتوننا، قاله قتادة. وقال عكرمة: مراغمين. وقال ابن زيد: مجاهدين في إبطالها.

وقرأ جمعٌ: «مُعْجِزين» مخفَّفاً[2]. وابنُ كثير وأبو عمرو والجحدريُّ وأبو السمَّال مثقَّلاً[3]؛ قال ابن الزبير: أي: مثبِّطين عن الإيمان من أراده، مدخِلين عليه العجزَ في نشاطه. وقيل: معجزين قدرةَ الله عزَّ وجلَّ في زعمهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر، وفيه إشارةٌ إلى بُعْدِ منزلتهم في الشرِّ

(١) في الإملاء ٢٠٣/٤.
(٢) ذكرها السمين في الدر المصون ٢٩١/٨ عن الجحدري وابن الزبير، وهي قراءة شاذة.
(٣) البحر المحيط ٢٥٨/٧. وقراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص١٥٨، والنشر ٣٢٧/٢.

﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ أي: من سيِّئ العذاب وأشدِّه، و«من» للبيان ﴿أَلِيمٌ ۝٥﴾ بالرفع[1] صفة «عذاب».

وقرأ أكثر السبعة بالجرِّ، على أنَّه صفةٌ مؤكِّدةٌ لـ «رجز» بناءً على ما سمعت من معناه، وجعله بعضهم صفةً مؤسِّسةً له بناءً على أنَّ «الرجز» ـ كما روي عن قتادة ـ مطلقُ العذاب، وجُوِّزَ جعلهُ صفة «عذاب» أيضاً، والجرُّ للمجاورة.

والظاهر أنَّ الموصول مبتدأ، والخبر جملة «أولئك لهم عذاب»، وجُوِّز أنْ يكون في محلٍّ نصبٍ عطفاً على الموصول قبله، أي: ويجزي الذين سعوا، وجملة «أولئك لهم» إلخ التي بعده مستأنفةٌ، والتي قبله معترضة.

وفي «البحر»: يحتمل ـ على تقدير العطف على الموصول ـ أنْ تكون الجملتان المصدَّرتان بـ «أولئك» هما نفس الثواب والعقاب، ويحتمل أن تكونا مستأنفتين، والثوابُ والعقابُ غير ما تضمنتا ممَّا هو أعظمُ، كـ : رضا الله تعالى عن المؤمن دائماً، وسخطه على الكافر دائماً[2].

وفيه أنَّه كيف يتأتَّى حملُ ذلك على رضا الله تعالى وضدِّه، وقد صرَّح أوَّلاً بالمغفرة والرزق الكريم، وفي مقابله بالعذاب الأليم، وجعل الأول جزاءً.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: ويعلمُ أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يطأ أعقابَهم من أمَّته عليه الصلاة والسلام، أو مَن آمن من علماء أهل الكتاب، كما روي عن قتادة، كـ : عبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضي الله عنهم ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ بالنصب على أنَّه مفعول ثانٍ لـ «يرى»، والمفعول الأول هو الموصول الثاني، و«هو» ضمير الفصل.

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع[3]، على جعل الضمير مبتدأ، وجعله خبراً، والجملة

---

(١) هي قراءة حفص وابن كثير من السبعة، ويعقوب من العشرة، وقرأ الباقون بالجر. التيسير ص١٨٠، والنشر٢/ ٣٤٩.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

في موضع المفعول الثاني لـ «يرى»، وهي لغة تميم؛ يجعلون ما هو فصلٌ عند غيرهم مبتدأً.

وقوله تعالى: «ويرى» إلخ ابتداءُ كلامٍ غير معطوفٍ على ما قبله، مسوقٍ للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات.

وفي «الكشف»: هو عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ على معنى: وقال الجهلة: لا ساعة، وعلم أولو[1] العلم أنَّه الحقُّ الذي نطق به المنزل إليك الحقُّ.

وتُعقِّبَ بأنَّه تكلُّفٌ بعيدٌ؛ فإنَّ دلالة النظم الكريم على الاهتمام بشأن القرآن لا غير.

وقيل عليه: أنت خبيرٌ بأنَّ ما قبله من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ وقولِه سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ إلخ في شأن الساعة ومنكري الحشر، فكيف يكون ما ذُكر بعيداً بسلامة الأمير، فذكرُ حقِّيَّةِ القرآن بطريق الاستطراد، والمقصود بالذات حقِّيَّةُ ما نطق به من أمر الساعة.

وقال الطبريُّ والثعلبيُّ[2]: إنَّ «يَرى» منصوبٌ بفتحةٍ مقدَّرةٍ عطفاً على «يجزي»، أي: وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة معاينةً أنَّه الحقُّ حسبما علموه قبلُ برهاناً، ويحتجُّوا به على المكذِّبين، وعليه فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ معطوفٌ على الموصول الأول، أو مبتدأ والجملةُ معترضةٌ، فلا يضرُّ الفصل كما توهِّم.

وجُوِّزَ أن يُراد بأولي العلم من لم يؤمن من الأحبار، أي: ليعلموا يومئذٍ أنَّه هو الحق، فيزدادوا حسرةً وغمّاً.

وتُعقِّبَ بأنَّ وصفَهم بأولي العلم يأباه؛ لأنها صفةٌ مادحةٌ، ولعلَّ المجوِّزَ لا يسلِّم هذا.

---

(١) في (م): أولي.

(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢١٣، وتفسير الثعلبي ٨/ ٧٠.

نعم كون ذلك بعيداً لا ينكر، لا سيَّما وظاهرُ المقابلة بقوله تعالى: «وقال الذين كفروا» يقتضي الحملَ على المؤمنين.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي يَقهر ولا يُقهر ﴿ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ المحمود في جميع شؤونه عزَّ وجلَّ، والمراد بصراطه تعالى التوحيدُ والتقوى، وفاعل «يهدي» إمَّا ضمير «الذي أنزل»، أو ضمير الله تعالى، ففي «العزيز الحميد» التفاتٌ، والجملة على الأوَّل إمَّا مستأنفةٌ، أو في موضع الحال من «الذي» على إضمار مبتدأ، أي: وهو يهدي، كما في قوله:

نجوتُ وأَرْهَنُهُم مالكاً[1]

أو معطوفةٌ على «الحق» بتقدير: وأنَّه يهدي.

وجُوِّزَ أن يكون «يهدي» معطوفاً على «الحقّ» عطف الفعل على الاسم؛ لأنَّه في تأويله، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك:١٩] أي: قابضات، وبعكسه قوله:

وألفيته يوماً يبرُّ[2] عدوَّه وبحرَ عطاءٍ يستخفُّ[3] المعابرا

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم كفار قريش، قالوا مخاطباً بعضهم لبعض على جهة التعجُّب والاستهزاء: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبيَّ ﷺ، والتعبيرُ عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل، كأنَّهم لم يعرفوا منه ﷺ إلَّا أنَّه رجلٌ، وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهرُ من الشمس:

وليس قولُكَ مَنْ هذا بضائِره العربُ تعرفُ من أنكرتَ والعجمُ[4]

---

(١) أي: وأنا أرهنهم. . .، والبيت لعبد الله بن همام السلولي، كما في إصلاح المنطق ص٢٥٧، ودلائل الإعجاز ص٢٠٥، ومعاهد التنصيص ١/ ٢٨٥، وصدره:

فلمَّا خشيتُ أظافِيرَهُم

(٢) هكذا في الأصل بتشديد الراء، وفي (م) ومطبوع البحر ٧/ ٢٥٩: يبير. وفي مطبوع ديوان النابغة ص ٦٥ ـ والبيت له ـ: يبيد.

(٣) في (م) ومطبوع البحر المحيط: يستحق.

(٤) هو للفرزدق في مدح زين العابدين. ديوانه ٢/ ١٧٨.

﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدِّثكم بأمرٍ مستغربٍ عجيب.

وقرأ زيد بن عليٍّ ﵄: «ينبيكم» بإبدال الهمزة ياءً محضةً[١]، وحُكي عنه: «يُنْبِئُكم» بالهمز من أنبأ[٢].

﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ «إذا» شرطيَّةٌ، وجوابها محذوفٌ لدلالة ما بعده عليه، أي: تبعثون، أو: تحشرون، وهو العامل في «إذا» على قول الجمهور، والجملة الشرطية بتمامها معمولةٌ لـ «ينبئكم»؛ لأنَّه في معنى: يقول لكم: إذا مُزِّقتم كلَّ ممزَّقٍ تبعثون، ثم أكَّد ذلك بقوله تعالى: «إنَّكم لفي خلقٍ جديد».

وجُوِّز أن يكون «إنكم لفي خلقٍ جديد» معمولاً لـ «ينبئكم»، وهو معلَّقٌ، ولولا اللام في خبر «إنَّ» لكانت مفتوحة، والجملة سدَّت مسدَّ المفعولين، والشرطيَّةُ على هذا اعتراضٌ، وقد مَنَعَ قومٌ التعليقَ في باب أَعْلَمَ، والصحيح جوازُه، وعليه قوله:

حذارِ فقد نُبِّئت إنَّك لَلَّذي ستُجْزَى بما تَسعى فتسعد أو تَشْقَى[٣]

وجُوِّزَ أنْ تكون «إذا» لمحضِ الظرفيَّة، فعاملها الذي دلَّ عليه ما بعدُ يقدَّرُ مقدَّماً، أي: تبعثون أو تحشرون إذا مُزِّقتُم، ولا يجوز أن يكون العامل «يدلُّكم» أو «ينبئكم»؛ لعدم المقارنة، ولا «مزِّقتم»؛ لأنَّ «إذا» مضافة إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا «خلقٍ» ولا «جديد»؛ لأنَّ «إنَّ» لها الصدر، فلا يعملُ ما بعدَها فيما قبلها.

وقال الزَّجَّاجُ: «إذا» في موضع النصب بـ «مُزِّقتم»، وهي بمنزلة «مَنْ» الشرطية، يعملُ فيها الذي يليها[٤].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٢) حكاها أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٥٩ عن الزمخشري، وفي مطبوع الكشاف ٣/ ٢٨٠: وقرأ زيد بن علي ﵁: ينبيكم!

(٣) أورده العيني في شرح الشواهد ٢/ ٤٤٧، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٩، والسمين في الدر المصون ٩/ ١٥٥ دون نسبة.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤١، وفيه: «إن» بدل «من»، وينظر تفصيل هذه المسألة في مغني اللبيب ص١٣٠-١٣١.

وقال السجاوندي: العاملُ محذوف، وما بعدها إنَّما يعملُ فيها إذا كان مجزوماً بها، وهو مخصوصٌ بالضرورة، نحو:

وإذا تُصبْكَ خصاصةٌ فتجمَّلِ[١]

فلا يُخرَّج عليه القرآن، فإذا لم تَجْزم كانت مضافةً إلى ما بعدها، والمضاف إليه لا يعملُ في المضاف.

وقال أبو حيان: الصحيح أنَّ العامل فيها فعلُ الشرط كسائر أدوات الشرط[٢]. وتمام الكلام على ذلك في كتب النحو.

و«ممزَّق» مصدر جاء على زنة اسم المفعول، كمُسرَّح في قوله:

ألم تعلم مُسَرَّحيَ القوافي فلا عِيّاً بهنَّ ولا اجتلابَا[٣]

وتمزيقُ الشيء: تخريقه وجعله قِطَعاً قِطَعاً، ومنه قوله:

إذا كنتُ مأكولاً فكن خير آكل وإلَّا فأدركني ولمَّا أُمَزَّقِ[٤]

والمرادُ: إذا متُّم وفُرِّقت أجسادكم كلَّ تفريقٍ بحيث صرتم رفاتاً وتراباً.

ونصب «كل» على المصدريَّة، وجُوِّز أنْ يكون اسم مكان، فنصب «كل» على الظرفية؛ لأنَّ لها حكم ما تضاف إليه، أي: إذا فُرِّقَتْ أجسادُكم في كلِّ مكانٍ، من القبور وبطون الطير والسباع، وما ذهبت به السيول كلَّ مذهبٍ، وما نسفته الرياح فطرحتهُ كلَّ مُطَّرح.

و«جديد» فعيل بمعنى فاعل عند البصريين، مِنْ جَدَّ الشيءُ إذا صار جديداً،

---

(١) هو عجز بيت لعبد قيس بن خفاف كما في الأصمعيات ص٢٣٠، والمفضليات ص٣٨٥، وصدره:

واستغن ما أغناك ربُّك بالغنى

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٥٩.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٦٥١، والمقتضب ١/ ٧٥، و٢/ ١٢٥، والخصائص ١/ ٣٦٧ و٣/ ٢٩٤، والجمل في النحو للزجاجي ص١١٦، والكشاف ٣/ ٢٨٠، وصدره في الديوان: ألم تُخْبَر بمَسْرَحِيَ القوافي.

(٤) البيت للممزَّق العبديّ، كما في الأصمعيات ص١٦٦، والبيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٧٥.

وبمعنى مفعول عند الكوفيين، من جدَّه إذا قطعه، ثمَّ شاع في كلِّ جديد وإن لم يكن مقطوعاً، كالبناء.

والسبب في الخلاف أنَّهم رأوا العرب لا يؤنثونه، ويقولون: ملحفةٌ جديد، لا: جديدة، فذهب الكوفيون إلى أنَّه بمعنى مفعول، والبصريون إلى خلافه، وقالوا: ترك التأنيث لتأويله بشيءٍ جديد، أو لحمله على فعيل بمعنى مفعول، كذا قيل.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يُنسَبُ إليه من أمر البعث ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه. واستدلَّ به أبو عمرٍو الجاحظ[1] على ما ذهب إليه من أنَّ صدقَ الخبر مطابقتُه للواقع مع الاعتقاد، وكذبه عدمُها معه، وغيرهما ليس بصدقٍ ولا كذب، وذلك أنَّ الكفارَ ـ وهم عقلاءُ من أهل اللسان عارفونَ باللغة ـ حصروا إخبارَ النبيِّ ﷺ بالبعث في الافتراء والإخبار حال الجِنة، على سبيل منع الخلو بالمعنى الأعم، ولا شكَّ أنَّ المراد بالثاني غيرُ الكذب؛ لأنَّه قسيمُه، وغيرُ الصدق؛ لأنَّهم اعتقدوا عدمه، وأيضاً لا دلالة لقولهم: «أم به جِنَّة» على معنى: أم صدق، بوجهٍ من الوجوه، فيجب أنْ يكون بعضُ الخبر ما ليسَ بصادقٍ ولا كاذب؛ ليكون ذلك منه بزعمهم، وإن كان صادقاً في نفس الأمر.

وتوضيحُه أنَّ ظاهر كلامهم هذا يدلُّ على طلب تعيين أحد حالَي النبيِّ ﷺ ـ المستويين في اعتقاد المتكلِّم ـ حين الإخبار بالبعث، وهو يستلزمُ تعيين أحدِ حالتي[2] الخبر، والاستفهام هاهنا للتقرير، فيفيد ثبوتَ أحد الحالين للخبر، ولا شكَّ أنَّ ثبوت أحدهما لا يثبتُ الواسطة ما لم يعتبر تنافيهما[3]، وكذا تنافيهما في الجمع لا يُثبتها، بل لا بدَّ من تنافيهما في الارتفاع، يعني أنَّ خبره عليه الصلاة والسلام بالبعث لا يخلو عن أحد الأمرين المتنافيين، فيكون المراد بالثاني

---

(١) الصواب أن الجاحظ: أبو عثمان، واسمه عمرو. وقد تبع المصنف في هذا الوهم الخفاجيَّ. انظر حاشيته ٧/ ١٩١.

(٢) في (م): حالي.

(٣) في الأصل: تنافيها.

ما هو منافٍ وقسيمٌ للأول، ومعلومٌ أنَّه غيرُ الصدق، فليس الصدقُ عبارةً عن مطابقة الواقع فقط، والكذب عن عدم المطابقة له، كما يقول الجمهور، أو عن مطابقة الاعتقاد له وعدم مطابقته له، كما يقول النظَّام، فيكونان عبارتين عن مطابقتهما وعدم مطابقتهما، وتَثبتُ الواسطة.

وأجيبَ بأنَّ معنى «أم به جِنَّةٌ»: أم لم يفتر، فعبَّر عن عدم الافتراء بالجِنَّة؛ لأنَّ المجنون يلزمُه أن لا افتراءَ له؛ لأنَّه ـ كما دل عليه نقل الأئمة واستعمال العرب ـ الكذبُ عن عمد، ولا عمدَ للمجنون، فالثاني ليس قسيماً للكذب، بل لما هو أخصُّ منه، أعني الافتراء، فيكون ذلك حصراً للخبر الكاذب بزعمهم في نوعيه: الكذب عن عمد، والكذب لا عن عمد، ولو سُلِّم أنَّ الافتراء بمعنى الكذب مطلقاً، فالمعنى: أَقَصَدَ الافتراءَ ـ أي: الكذب ـ أم لم يقصد، بل كذب بلا قصدٍ لما به من الجِنَّة.

وقيل: المعنى: أفترى أم لم يفتر، بل به جنونٌ، وكلام المجنون ليس بخبر؛ لأنَّه لا قصدَ له يُعتَدُّ به ولا شعور، فيكون مرادهم حصره في كونه خبراً كاذباً، أو ليس بخبر، فلا يثبتُ خبرٌ لا يكون صادقاً ولا كاذباً. ونوقش فيه كما لا يخفى على من راجع كتب المعاني.

بقي هاهنا بحثٌ، وهو أنَّ الطيبيَّ أشارَ إلى أنَّ مبنى الاستدلال كون «أم» متَّصلةً. واعترضه بأنَّ الظاهرَ كونُها منقطعةً؛ أمَّا لفظاً، فلاختلاف مدخول الهمزة و«أم»، وأمَّا معنًى: فلأنَّ الكفرة المعاندين لمَّا أَخرَجوا قولهم: «هل ندلُّكم على رجلٍ ينبئكم» مخرجَ الطنز[1] والسخرية، متجاهلين برسول الله ﷺ وبكلامه من إثبات الحشر والنشر، وعقَّبوه بقولهم: «أفترى على الله كذباً» = أَضْرَبُوا عنه إلى ما هو أبلغُ منه ترقِّياً من الأهون إلى الأغلظ، من نسبة الجنون إليه، وحاشاه ﷺ، فكأنَّهم قالوا: دعوا حديثَ الافتراء، فإن هاهنا ما هو أطمُّ منه؛ لأنَّ العاقلَ كيف يحدِّثُ بإنشاء خلقٍ جديد بعد الرفات[2] والتراب؟! ولمَّا كان التعويلُ على ما بعد

(١) أي: السخرية. القاموس (طنز).

(٢) في الأصل: الوفات!؟

الإضراب من إثبات الجنون، أوقعَ الإضراب الثاني في كلامه تعالى ردّاً لقولهم، ونفياً للجنون عنه، صلوات الله تعالى وسلامه عليه، وإثباتاً له فيهم، إلى آخر ما قال.

ولم يرتضِ ذلك صاحب «الكشف» فقال: في كلام «الكشاف» إشارةٌ إلى أنَّ «أم» متصلة، وفائدةُ العدول عن الفعل في جُنّ: إيماءٌ إلى أنَّ الثابتَ هو ذلك الشق، كأنَّه قيل: أَعَنِ افتراءِ هذا الكذب العُجاب أم جنونٍ؟ والتقابل لأنَّ المجنونَ لا افتراء له، فالاستدلال على الانقطاع بتخالف العديلين ساقط؛ وأمَّا الترقِّي من الاتصال [فحاصل][1] أيضاً ـ على ما لوَّحَ إليه ـ بوجهِ ألطف. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ ظاهر الاستدلال يقتضي الاتِّصال، لكن قال الخفاجيُّ: إنَّ كون الاستدلال مبنيًّا على الاتصال غيرُ مسلَّمٍ، فتأمَّل[2].

والظاهر: «أفترى على الله كذباً أم به جِنَّةٌ» من قول بعضهم لبعض.

وفي «البحر»[3]: يحتملُ أنْ يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: «هل ندلُّكم» رَدَّدَ بين شيئين، ولم يجزم بأحدهما لما في كلٍّ من الفظاعة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾ إبطالٌ من جهته تعالى لما قالوا بقسيميه، وإثباتُ ما هو أشدُّ وأفظعُ لهم، ولذا وضع «الذين لا يؤمنون» موضعَ الضمير توبيخاً لهم، وايماءً إلى سبب الحكم بما بعده، كأنَّه قيل: ليس الأمر كما زعموا، بل هم في كمال اختلال العقل، وغاية الضَّلال عن الفهم والإدراك الذي هو الجنون حقيقةً، وفيما يؤدِّي إليه ذلك من العذاب؛ حيث أنكروا حكمةَ الله تعالى في خلق العالم، وكذَّبوه عزَّ وجلَّ في وعده ووعيده، وتعرَّضوا لسخطه سبحانه.

وتقديم العذاب على ما يوجبُه ويستتبعه؛ للمسارعة إلى بيان ما يسوءهم ويفتُّ في أعضادهم، والإشعارِ بغاية سرعة ترتُّبه عليه، كأنَّه يسابقه فيسبقه. ووصف

(١) زيادة يقتضيها السياق، وفي حاشية الشهاب: والترقي المذكور حاصلٌ مع الاتصال أيضاً.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٢.
(٣) ٧/ ٢٦٠.

الضلال بالبعيد الذي هو وصفُ الضالِّ للمبالغة؛ لأنَّ ضلالهم إذا كان بعيداً في نفسه، فكيف بهم أنفسِهم؟!

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قيل: هو استئنافٌ مسوقٌ لتذكيرهم بما يعاينون ممَّا يدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ، وتنبيههم على ما يحتمل أنْ يقعَ من الأمور الهائلة في ذلك؛ إزاحةً لاستحالتهم الإحياء، حتى قالوا ما قالوا فيمن أخبرهم به، وتهديداً على ما اجترؤوا عليه.

والمعنى: أَعَمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاطَ بجوانبهم من السماء والأرض، ولم يتفكَّروا أنَّهم أشدُّ خلقاً أم هي؟ وأنَّا «إن نشأ نخسف بهم الأرض» كما خسفناها بقارون، «أو نسقط عليهم كسفاً» أي: قطعاً «من السماء» كما أسقطنا على أصحاب الأيكة؛ لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات.

وهو تفسيرٌ ملائمٌ للمقام، إلَّا أنَّ ربطَ قوله تعالى: «إن نشأ» إلخ بما قبله بالطريق الذي ذكره بعيدٌ.

وفي «البحر» أنَّه تعالى وَقَفهم في ذلك على قدرته الباهرة، وحَذَّرهم إحاطة السماء والأرض بهم، وكأنَّ ثَمَّ حالاً محذوفةً، أي: أفلا يرون إلى ما يحيطُ بهم من سماءٍ وأرضٍ مقهوراً[١] تحتَ قدرتنا، نتصرَّفُ فيه كما نريد؟ «إنْ نشأ نخسف بهم الأرض» إلخ. أو: أفلم[٢] ينظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم محيطاً بهم، وهم مقهورون فيما بينه؟ «إن نشأ» إلخ. ولا يخلو عن شيء.

وقال العلَّامة أبو السعود: إنَّ قوله تعالى: «أفلم يروا» إلخ استئنافٌ مسوقٌ لتهويل ما اجترؤوا عليه من تكذيبِ آيات الله تعالى، واستعظامِ ما قالوا في حقِّه عليه الصلاة والسلام، وأنَّه من العظائم الموجبة لنزول أشدِّ العقاب، وحلولِ أفظع العذاب من غير رَيْثٍ وتأخير. وقوله تعالى: «إن نشأ» إلخ بيانٌ لما ينبئ عنه ذكر

(١) في الأصل، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٠: مقهور. والمثبت من (م).

(٢) في الأصل و(م): فلم، والمثبت من البحر.

إحاطتهما بهم من المحذور المتوقَّع من جهتهما، وفيه تنبيهٌ على أنَّه لم يبقَ من أسباب وقوعه إلَّا تعلُّقُ المشيئة به، أي: فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم، بحيثُ لا مفرَّ لهم عنه ولا محيص؟ «إنْ نشأ» جرياً على موجب جناياتهم «نخسف» إلخ[1].

ولا يخفى أنَّ فيه بُعْداً وضعفَ ربطٍ بالنسبة إلى ما سمعت أوَّلاً، مع أنَّ ما بَعْدُ ليس فيه كثيرُ ملاءَمةٍ لما قبلَه عليه. ويخطر لي أنَّ قوله تعالى: «أفلم يروا» مسوقٌ لتذكيرهم بأظهر شيءٍ لهم ـ بحيث إنهم يعاينونه أينما التفتوا، ولا يغيبُ عن أبصارهم حيثما ذهبوا ـ يدلُّ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ؛ إزاحةً لِمَا دعاهم إلى ذلك الاستهزاء والوقيعة بسيِّد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، من زعمهم قصورَ قدرته تعالى عن البعث والإحياء؛ ضرورةَ أنَّ من قَدِرَ على خلق تلك الأجرام العظام لا يعجزُه إعادةُ أجسامٍ هي كَلَا شيءٍ بالنسبة إلى تلك الأجرام، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ [يس:٨١] وفيه من التنبيه على مزيد جهلهم المشارِ إليه بالضلال البعيد ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر ممَّا بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴿لَأَيَةً﴾ أي: لدلالةً واضحةً على كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يعجزه البعث بعد الموت وتفرُّقِ الأجزاءِ المحاطة بهما. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ أي: راجعٍ إلى ربِّه تعالى، مطيعٍ له جلَّ شأنه؛ لأنَّ المنيبَ لا يخلو من النظر في آيات الله عزَّ وجلَّ والتفكُّر فيها = كالتعليل لِمَا يُشعر به قوله سبحانه: «أفلم يروا» إلخ من الحثِّ على الاستدلال بذلك على ما يزيحُ إنكارهم البعثَ. وفيه تعريضٌ بأنَّهم مُعْرِضون عن ربِّهم سبحانه، غيرُ مطيعين له جلَّ وعلا، وتَخلُّصٌ إلى ذكر المنيبين إليه تعالى على قول، وقوله تعالى: «إنْ نشأ» كالاعتراض جيء به لتأكيد تقصيرهم، والتنبيهِ على أنَّهم بلغوا فيه مبلغاً يستحقُّون به في الدنيا ـ فضلاً عن الأخرى ـ نزولَ أشدِّ العقاب، وحلولَ أفظع العذاب، وأنَّه لم يبق من أسباب ذلك إلَّا تعلُّق المشيئة به، إلَّا أنَّها لم تتعلَّق لحكمة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٢٣.

وظَنِّي أنه حسن، وتحتملُ الآية غير ذلك، واللهُ تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

وقيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى مصدر «يروا»، وهو الرؤية، وذُكِّرَ لتأويله بالنظر، والمراد به الفكر.

وقيل: إشارةٌ إلى ما تُليَ من الوحي الناطق بما ذكر.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن وثَّاب وعيسى والأعمش وابنُ مصرِّف: «يشأ» و«يخسف» و«يسقط» بالياء فيهنَّ، وأدغمَ الكسائيُّ الفاء في الباء في: «يخسف بهم»[1].

قال أبو عليّ: ولا يجوزُ ذلك؛ لأنَّ الباء أضعف في الصوت من الفاء، فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء نحو: اضرب فلاناً، وهذا كما تدغم الباء في الميم، نحو: اضرب مالكاً، ولا تدغم الميم في الباء، نحو: اضمم بك[2]؛ لأنَّ الباء انحطَّت عن الميم بفقد الغنَّة التي فيها.

وقال الزمخشريُّ: قرأ الكسائيُّ: «يخسف بهم» بالإدغام، وليست بقوية[3].

وأنت تعلم أنَّ القراءةَ سنَّةٌ متَّبعة، ويوجد فيها الفصيحُ والأفصح، وذلك من تيسير اللهِ تعالى القرآنَ للذكر، وما أدغم الكسائيُّ إلَّا عن سماع، فلا التفاتَ إلى قول أبي عليٍّ ولا الزمخشريّ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه لحسن إنابته وصحَّة توبته فضلاً، أي: نعمةً وإحساناً.

وقيل: فضلاً وزيادةً على سائر الأنبياء المتقدِّمين عليه، أو أنبياء بني إسرائيل، أو على من عدا نبينا ﷺ؛ لأنَّه ما من فضيلةٍ في أحدٍ من الأنبياء عليهم السلام إلا وقد أوتيَ عليه الصلاة والسلام مثلها بالفعل، أو تمكَّن منها فلم يختر إظهارَها.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٠. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٢) في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٩: اضمم بكراً.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٨١.

أو على الأنبياء مطلقاً، وقد يكون في المفضول ما ليس في غيره، وقد انفردَ عليه السلام بما ذُكر هاهنا.

وقيل: أو على سائر الناس، فيندرجُ فيه النبوَّة والكتاب والملك والصوتُ الحسن.

وتُعقِّبَ بأنَّه إن أريد أنَّ كلّاً منها فضلٌ لا يوجد في سائر الناس، فعدمُ مِثْلِ ملكِه وصوته محلُّ شبهةٍ، وإن أريد المجموع من حيث هو، ففيه أنَّه غيرُ موجودٍ في الأنبياء أيضاً، فلا وجهَ لتخصيصه بهذا الوجه.

وأنا أرى الفضلَ لتفسير الفضل بالإحسان. وتنكيرُه للتفخيم، و«منَّا» أي: بلا واسطةٍ، لتأكيد فخامته الذاتيَّة بفخامته الإضافيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وتقديمه على المفعول الصريح؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر؛ ليتمكَّن في النفس عند وروده فضلَ تمكُّن.

وذكر شؤون داود وسليمان عليهما السلام هنا لمناسبة ذكر المنيب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ كما أشرنا إليه.

وقال أبو حيَّان: مناسبةُ قصَّتيهما عليهما السلام لما قبلها هي أنَّ أولئك الكفَّار أَنكروا البعثَ لاستحالته في زعمهم، فأُخبروا بوقوع ما هو مستحيلٌ في العادة ممَّا لا يمكنهم إنكارُه، إذ طفحَت ببعضه أخبارهم وأشعارهم(١).

وقيل: ذكر سبحانه نعمتَه عليهما احتجاجاً على ما منحَ نبيَّنا ﷺ، كأنَّه قيل: لا تستبعدوا هذا، فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا، فلمَّا فرغَ التمثيلُ له عليه الصلاة والسلام رجعَ التمثيلُ لهم بسبأ وما كان من هلاكهم بالكفر والعتوّ.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: سبِّحي معه، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، وأخرجه ابنُ جرير عن أبي ميسرة، إلَّا أنه قال: معناه ذلك بلغة الحبشة(٢).

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٢.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٢٢٠.

والظاهرُ أنَّه عربيٌّ من التأويب، والمراد: رَجِّعي معه التسبيح، ورِدِّديه.

وقال ابنُ عطية: إن أصلَ ماضيه: آب، وضُعِّفَ للمبالغة[١].

وتعقَّبه في «البحر» بقوله: ويظهر أنَّ التضعيفَ للتعدية؛ لأنَّ آبَ بمعنى رجع لازمٌ صلته اللام[٢]، فعُدِّيَ بالتضعيف، إذ شرحوه بقولهم: رجِّعي معه التسبيح[٣].

يُروى أنَّه عليه السلام كان إذا سَبَّح سبَّحت الجبالُ مثل تسبيحه بصوتٍ يُسمَع منها، ولا يعجزُ الله عزَّ وجلَّ أن يجعلَها بحيثُ تسبِّح بصوتٍ يُسمَع، وقد سبَّح الحصَى في كفِّ نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وسُمِع تسبيحُه، وكذا في كفِّ أبي بكرٍ رضي الله عنه[٤]. ولا يبعدُ على هذا أن يقال: إنَّه تعالى خَلَق فيها الفهمَ أوَّلاً، فناداها كما يُنادَى أولو الفهم وأَمَرَها.

وقال بعضهم: إنَّه سبحانه نَزَّلَ الجبالَ منزلةَ العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا؛ إشعاراً بأنَّه ما من حيوانٍ وجمادٍ إلَّا وهو منقادٌ لمشيئته تعالى، غيرُ ممتنعٍ على إرادته سبحانه، ودلالةً على عزَّة الربوبيَّة وكبرياء الألوهيَّة، حيث نادى الجبال وأمرَها.

وقيل: المراد بتأويبها حملُها إيَّاه على التسبيح إذا تأمَّل ما فيها. وفيه مع كونه خلاف المأثور أنَّ «معه» يأباه، وأيضاً لا اختصاص له عليه السلام بتأويب الجبال بهذا المعنى، حتى يُفَضَّل به، أو يكون معجزةً له.

وقيل: كان عليه السلام ينوحُ على ذَنْبِه بترجيعٍ وتحزين، وكانت الجبالُ تسعدُه بأصدائها. وفيه أنَّ الصدى ليس بصوتِ الجبالِ حقيقةً، وإنَّما هو من آثار

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٠٧.

(٢) العبارة في البحر ٧/ ٢٦٢: وينظر أن التضعيف للتعدية، وليس للمبالغة؛ إذ اصله آبَ، وهو لازم بمعنى رجع اللازم...، ففي عبارة المصنف تحريف، ومما يدل على ذلك أن آب بمعنى رجع يتعدى بـ «إلى» وليس باللام. ينظر غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ١٢١، واللسان والتاج (أوب)، ومعجم الأفعال المتعدية بحرف ص١١.

(٣) سلف ٢/ ٢٥٤.

صوتِ المتكلِّم على ما قام عليه البرهان، والله تعالى نادى الجبال، وأمرها أن تُؤَوِّبَ معه، وأيضاً أيُّ اختصاصٍ له عليه السلام بذلك، ولصوت كلِّ أحدٍ صدًى عند الجبال؟

وعن الحسن أنَّ معنى «أوِّبي معه»: سيري معه أينَ سار. والتأويب سيرُ النهار، كأنَّ الإنسان يسيرُ الليل، ثم يُرَجِّعُ السيرَ بالنهار، أي: يردِّده. ومن ذلك قول تميم بن مقبل:

لحقنا بحيٍّ أوَّبوا السيرَ بعدما دَفعنا شعاعَ الشمسِ والطَّرفُ يجنحُ[1]

وقول آخر:

يومان يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ ويومُ سيرٍ إلى الأعداء تأويبِ[2]

وأورد عليه أنَّ الجبالَ أوتادُ الأرض، ولم ينقل سيرُها مع داود عليه السلام أو غيره.

وقيل: المعنى: تصرَّفي معه على ما يتصرَّف فيه، فكانت إذا سبَّح سبَّحت، وإذا ناح ناحت، وإذا قرأ الزبور قرأت.

وتُعقِّبَ بأنَّه لم يعرف التأويبُ بمعنى التصرُّف في لغة العرب.

وقيل: المعنى: ارجعي إلى مراده فيما يريد؛ من حفرٍ، واستنباطِ أعينٍ، واستخراج معدن، ووضع طريق.

والجملةُ معمولةٌ لقولٍ مضمرٍ، أي: قولنا: يا جبال، على أنَّه بدل من «فضلاً» بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلَ اشتمال، أو: قلنا: يا جبال، على أنَّه بدلٌ من «آتينا». وجُوِّزَ كونُه بدلاً من «فضلاً» بناءً على أنَّه يجوز إبدال الجملة من المفرد، وجَوَّزَ

---

(١) هو في ذيل ديوان تميم بن أُبيّ بن مقبل رقم (١٤)، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٣٥٣.

(٢) البيت لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٩٤ والمفضليات ص١٢٠، وخزانة الأدب ٤/٢٧. قال البغدادي: المقامة بالفتح: المجلس، وروى أبو عمرو بالضم بمعنى الإقامة. والأندية: الأفنية، والندي والنادي: المجلس... وتأويب: صفة سير، وهو السرعة في السير والإمعان فيه.

أبو حيان الاستئناف[1]، وليس بذاك.

وقرأ ابنُ عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: «أُوْبِي» بضمِّ الهمزة وسكون الواو[2]، أمرٌ من الأَوْب، وهو الرجوع، وفرَّق بينهما الراغبُ بأنَّ الأَوْبَ لا يُقال إلَّا في الحيوان الذي له إرادة، والرجوع يقال فيه وفي غيره[3].

والمعنى على هذه القراءة عند الجمهور: ارجعي معه في التسبيح، وأمرُ الجبال كأمر الواحدة المؤنثة؛ لأنَّ جمع ما لا يعقل يجوزُ فيه ذلك، ومنه: يا خيل الله اركبي، وكذا: ﴿مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨] وقد جاء ذلك في جمع من يعقل من المؤنَّث، قال الشاعر:

تركنا الخيلَ والنعمَ المفدَّى وقلنا للنساء بها أقيمي[4]

لكن هذا قليل.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب، وهو عند أبي عمرو بن العلاء بإضمار فعلٍ تقديره: وسخَّرنا له الطير، وحكى أبو عبيدة عنه أنَّ ذاك بالعطف على «فضلاً»[5]، ولا حاجةَ إلى الإضمار؛ لأنَّ إيتاءها إيَّاه عليه السلام تسخيرُها له. وذكر الطيبيُّ أنَّ ذلك كقوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[6]

وقال الكسائيُّ بالعطف أيضاً، إلَّا أنَّه قدَّر مضافاً، أي: وتسبيح الطير. ولا يُحتاج إليه.

وقال سيبويه: «الطير» معطوفٌ على محلِّ «جبال»[7] نحو قوله:

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٢.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٣.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (أوب).

(٤) البيت لم يعرف قائله، وسلف ١٤/ ١٨٣.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٤٣.

(٦) عجز بيت لا يعرف قائله، وسلف ٣/ ٣٦٠ و٥/ ٢٩١.

(٧) كذا قال، وسيبويه في الكتاب قد نقل هذا عن الخليل، ثم نقل عنه اختيار الرفع في مثل هذه المسألة. ينظر الكتاب ٢/ ١٨٦-١٨٧، والبحر ٧/ ٢٦٣.

ألا يــا زيــدُ والــضــحــاكَ سِـيــرًا[(١)]

بنصب الضَّحاك، ومنعه بعضُ النحويين؛ للزوم دخول «يا» على المنادى المعرَّف بـ «أل»، والمجيزُ يقول: رُبَّ شيءٍ يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً.

وقال الزَّجَّاج: هو منصوبٌ على أنَّه مفعول معه[(٢)].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يجوز؛ لأن قبله «معه»، ولا يقتضي [الفعل] اثنين من المفعول معه إلَّا على البدل أو العطف، فكما لا يجوز: جاء زيدٌ مع عمرو مع زينب، إلَّا بالعطف، كذلك هذا[(٣)].

وقال الخفاجيُّ: لا يأباه «معه» سواءٌ تعلَّق بـ «أوِّبي» على أنَّه ظرفٌ لغوٌ، أو جُعِل حالاً؛ لأنهما معمولان متغايران، إذ الظرفُ والحال غيرُ المفعول معه، وكلٌّ منها بابٌ على حدة، وإنَّما الموهم لذلك لفظ المعيَّة، فما اعترض به أبو حيَّان غيرُ متوجِّه وإنْ ظُنَّ كذلك، وأقبحُ من الذنب الاعتذارُ؛ حيث أُجيبَ بأنَّه يجوزُ أن يُقال: حُذفت واوُ العطف من قوله تعالى: «والطير» استثقالاً لاجتماع الواوين، أو اعتبر تعلُّق الثاني بعد تعلُّق الأوَّل[(٤)].

وقرأ السلميُّ وابنُ هرمز وأبو يحيى وأبو نوفل ويعقوب وابنُ أبي عبلة وجماعةٌ من أهل المدينة وعاصم في رواية: «والطيرُ» بالرفع[(٥)]، وخُرِّجَ على أنَّه معطوفٌ

---

(١) أورده أبو بكر ابن الأنباريُّ في الأضداد ص٥٣، وابن فارس في مقاييس اللغة ٢/ ٢١٦، والهروي في الأزهية ص١٦٥، وابن السيد البطليوسي في الحلل ص١٩٦، وابن يعيش في شرح المفصل ١/ ١٢٩ دون نسبة. قال ابن يعيش: يروى برفع الضحاك ونصبه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٣.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٣.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ عن الأعرج وعبد الوارث عن أبي عمرو. وذكر القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٦٢ أنها قراءة ابن أبي إسحاق، ونصر عن عاصم، وابن هرمز ومسلمة بن عبد الملك.

=

على «جبال» باعتبار لفظه، وحركتُه لعروضها تشبه حركة الإعراب، ويُغتفرُ في التابع ما لا يُغتفرُ في المتبوع.

وقيل: معطوف على الضمير المستتر في «أوِّبي»، وَسوَّغَ ذلك الفصلُ بالظرف.

وقيل: هو بتقدير: ولتؤوب الطيرُ، نظيرُ ما قيل في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]

وقيل: هو مرفوعٌ بالابتداء، والخبر محذوف، أي: والطير تؤوب.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ وجعلناه في يده كالشمع والعجين يصرِّفه كما يشاء من غير نارٍ ولا ضربِ مطرقة، قاله السُّدِّيُّ وغيره.

وقيل: جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إيَّاه ليِّناً كالشمع بالنسبة إلى قوى سائر البشر.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾«أن» مصدريَّة، وهي على إسقاط حرف الجرِّ، أي: ألنَّا له الحديد لعمل سابغات، أو: وأمرناه بعمل سابغاتٍ. والأوَّل أولى.

وأجاز الحوفيُّ وغيرُه أن تكون مفسِّرةً، ولمَّا كان شرطُ المفسِّرة أن يتقدَّمها معنى القول دون حروفه، و«ألنَّا» ليس فيه ذلك، قَدَّر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً فيه معنى القول؛ ليصحَّ كونها مفسِّرةً، أي: وأمرناه أن اعمل، أي: أي اعمل.

وأورد عليه أنَّ حذف المفسَّر لم يعهد.

والسابغات: الدروع، وأصله صفةٌ من السبوغ، وهو التمام والكمال، فغلب على الدروع كالأبطح، قال الشاعر:

= قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٤٩: انفرد ابن مهران عن هبة الله بن جعفر عن أصحابه عن روح [راوية يعقوب] برفع الراء من «والطير»، وهي رواية زيد عن يعقوب، ووردت عن عاصم وأبي عمرو. اهـ.

وقراءة عاصم وأبي عمرو المشهورة عنهما بالنصب كقراءة الجمهور.

لا سابغاتٍ ولا جأواءَ باسلةً تقي المنونَ لَدَى استيفاءِ آجالِ[1]

ويقال: سوابغ أيضاً، كما في قوله:

عليها أسودٌ ضارياتٌ لَبوسُهم سوابغُ بيضٌ لا تُخَرِّقُها النَّبلُ[2]

فلا حاجةَ إلى تقدير موصوف، أي: دروعاً سابغات.

ولا يَرِدُ هذا نقضاً على ما قيل: إنَّ الصفة ما لم تكن مختصَّةً بالموصوف، كحائض، لا يحذفُ موصوفها.

وقرئ: «صابغات» بإبدال السين صاداً لأجل الغين[3].

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ السرد[4] في الأصل ـ كما قال الراغب ـ: خَرْزُ ما يخشن ويغلظُ، قال الشماخ:

فظلَّت سراعاً خيلُنا في بيوتكم كما تابعتْ سردَ العِنان الخوارزُ

واستعير لنظم الحديد[5].

وفي «البحر»: هو إتباعُ الشيء بالشيء من جنسه، ويقال للدرع: مسرودة؛ لأنَّه توبع فيها الحَلَق بالحَلَق، قال الشاعر:

وعليهما مسرودتانِ قضاهُما داودُ أو صَنَعُ السوابغِ تُبَّعُ

ولصانعها: سَرَّاد، وزرَّاد بإبدال السين زاياً[6].

---

(١) هو في شرح قطر الندى لابن هشام ص٢٨١ بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان ٢/ ٨ دون نسبة. وجأواء: الجيش العظيم.

(٢) هو لزهير بن أبي سلمى كما في ديوانه ص١٠٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٨٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٣، وحاشية الشهاب ٧/ ١٩٣.

(٤) بعدها في (م): نسج.

(٥) مفردات الراغب (سرد) دون ذكر البيت، وهو في ديوان الشماخ ص١٩٤، وصدره فيه:

شككن بأحساء الذِّنَابِ على هُدًى

وذكره بمثل رواية المصنف القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٦٥، لكن فيه: تباعاً. بدل: سراعاً.

(٦) البحر ٧/ ٢٥٥، والبيت سلف ٧/ ١٦٩.

وفسَّره هنا غيرُ واحدٍ بالنسج، وقال: المعنى: اقتصد في نسج الدروع بحيثُ تتناسبُ حلقها. وابنُ عباس ـ فيما أخرجه عنه ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرقٍ ـ بالحلق[1]، أي: اجعل حلقها على مقادير متناسبة.

وقال ابن زيد: لا تعملها صغيرةً فتضعف، فلا يقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرةً فيُنال صاحبُها من خلالها.

وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن عباس تفسيرُها بالمسامير، وروي ذلك عن قتادة ومجاهد، أي: قَدِّر مساميرَها فلا تعملها دقاقاً ولا غلاظاً، أي: اجعلها على مقدارٍ معيَّنٍ دقَّةً وغيرها، مناسبة للثقب الذي هيِّئ لها في الحلقة، فإنَّها إن كانت دقيقةً اضطربت فيها فلم تمسك طرفيها، وإن كانت غليظةً خرقت طرف الحلقة الموضوعة فيه، فلا تمسك أيضاً.

ويبعِدُ هذا أنَّ إلانةَ الحديد له عليه السلام بحيث كان كالشمع والعجين يغني عن التسمير، فإنَّه بعد جمع الحَلَق وإدخال بعضِه في بعض يزال انفصال طرفي كلٍّ حلقةٍ بمزج الطرفين، كما يمزج طرفَا حلقة من شمع أو عجين، والإحكامُ بذلك أتمُّ من الإحكام بالتسمير، بل لا يبقى معه حاجةٌ إلى التسمير أصلاً، فلعلَّه إنْ صحَّ مبنيٌّ على أنَّه عليه السلام كان يعملُ الحَلَقَ من غير مزجٍ لطرفي كلٍّ، فيسمِّر للإحكام بعد إدخال بعضه في بعض، ويظهر ذلك على التفسير الثاني لقوله تعالى: «ألنَّا له الحديد»، إذ غايةُ القوَّة كسرُ الحديد كما يريد من غير آلةٍ، دون وصل بعضه ببعض، ولا يعارضُ ذلك ما نُقِل عن البقاعيِّ أنَّه قال: أخبرنا بعضُ من رأى ما نسب إلى داود عليه السلام من الدروع أنَّه بغير مسامير[2]، فإنَّه نقلٌ عن مجهولٍ، فلا يلتفتُ لمثلِه.

وقيل: معنى «قدِّر في السَّرْد»: لا تصرفْ جميعَ أوقاتك فيه، بل مقدار ما يحصل به القوت، وأمَّا الباقي فاصرفه إلى العبادة؛ قيل: وهو الأنسب بالأمر الآتي.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧، وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٢٤.
(٢) نظم الدرر ١٥/ ٤٥٩.

وحكي أنَّه عليه السلام أوَّل من صنعَ الدرع حَلَقاً، وكانت قبلُ صفائح، وروي ذلك عن قتادة.

وعن مقاتل أنَّه عليه السلام حين ملك على بني إسرائيل يخرجُ متنكِّراً فيسألُ الناس عن حالِه، فعرضَ له مَلَكٌ في صورة إنسانٍ، فسأله، فقال: نِعْمَ العبدُ لولا خَلَّةٌ فيه، فقال: وما هي؟ قال: يُرزق من بيت المال، ولو أكلَ من عمل يده تمَّتْ فضائله، فدعا الله تعالى أن يعلِّمَه صنعةً، ويسهِّلها عليه، فعلَّمه صنعةَ الدروع، وألانَ له الحديد، فأثرى، وكان ينفقُ ثلثَ المال في مصالح المسلمين، وكان يَفرُغُ من الدرع في بعض يومٍ، أو في بعض ليل، وثمنها ألف درهم.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» وابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: كان داود عليه السلام يرفعُ في كلِّ يومٍ درعاً، فيبيعها بستَّة آلاف درهم؛ ألفان له ولأهله، وأربعة آلاف يطعمُ بها بني إسرائيل الخبز الحُوَّارَى[1].

وقيل: كان يبيعُ الدرع بأربعة آلاف، فينفقُ منها على نفسه وعياله، ويتصدَّق على الفقراء.

وفي «مجمع البيان» عن الصادق رضي الله عنه أنَّه عمل ثلاث مئة وستين درعاً فباعها بثلاث مئة وستين ألف درهم، فاستغنى عن بيت المال[2].

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ خطابٌ لداود وآله عليهم السلام، وهم وإنْ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، يفهمون ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ التزاماً من ذكره[3]. وجُوِّزَ أنْ يكون خطاباً له عليه السلام خاصَّةً على سبيل التعظيم.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧، وهو في نوادر الأصول ١/ ١١٢، والحُوَّارى بالضم وتشديد الواو وراءٍ مفتوحة: ما حوِّر من الطعام، أي: بيض. والخبز الحوَّارى للذي نخل مرة بعد مرة. الصحاح والنهاية (حور).

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ١٨٩.

(٣) حاشية الخفاجي ٧/ ١٩٣-١٩٤.

وأيًّاً ما كان، فالظاهرُ أنه أمرٌ بالعمل الصالح مطلقاً، وليس هو على الوجه الثاني أمراً بعمل الدروع خاليةً من عيب.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ فأجازيكم به، وهو تعليلٌ للأمر، أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب والترهيب.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أي: وسخَّرنا له الريح، وقيل: «لسليمان» عطف على «له» في «ألنَّا له الحديد»، و«الريح» عطف على «الحديد»، وإلانةُ الريح عبارةٌ عن تسخيرها.

وقرأ أبو بكر: «الرِّيْحُ» بالرفع[1] على أنَّه مبتدأ، و«لسليمان» خبرُه، والكلام على تقدير مضاف، أي: ولسليمان تسخيرُ الريح. وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّه مبتدأ، ومتعلَّق الجارِّ كونٌ خاصٌّ، هو الخبر، وليس هناك مضافٌ مقدَّر، أي: ولسليمان الريحُ مسخَّرةٌ.

وعندي أنَّ الجملةَ على القراءتين معطوفةٌ على قوله تعالى: «ولقد آتينا داودَ منَّا فضلاً» إلخ عطف القصَّة على القصَّة.

وقال ابنُ الشيخ: العطفُ على القراءة الأولى على «ألنَّا له الحديد»، وكلتا الجملتين فعليَّةٌ، وعلى القراءة الثانية العطفُ على اسميَّة مقدَّرة دلَّت عليها تلك الجملة الفعليَّة، لا عليها؛ للتخالف، فكأنَّه قيل: ما ذكرنا لداود، ولسليمان الريح؛ فإنَّها كانت له كالمملوك المختصِّ بالمالك، يأمرُها بما يريد، ويسيرُ عليها حيثما يشاء. ثم قال: وإنَّما لم يقل: ومع سليمان الريح؛ لأنَّ حركتها ليست بحركة سليمان، بل هي تتحرك بنفسها، وتحركُ سليمان وجنوده بحركتها، وتسيرُ بهم حيث شاء، وهذا على خلاف تأويب الجبال، فإنَّه كان تبعاً لتأويب داود عليه السلام، فلذا جيء هناك بـ «معه».

وقرأ الحسنُ وأبو حيوة وخالد بن إلياس: «الرياحُ» بالرفع جمعاً[2].

---

(١) التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ عن أبي حيوة فقط.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي: جريُها بالغداة مسيرة شهر، وجريُها بالعشيِّ كذلك، والجملة إمَّا مستأنفةٌ، أو حالٌ من «الريح»، ولا بدَّ من تقدير مضاف في الخبر؛ لأنَّ الغدوَّ والرواحَ ليسا[1] نفس الشهر، وإنَّما يكونان فيه، ولا حاجةَ إلى تقديرٍ في المبتدأ كما فعل مكِّيٌّ، حيث قال: أي: مسير غدوِّها مسيرة شهر، ومسير رواحها كذلك[2]؛ لما لا يخفى.

وقال ابنُ الحاجب في «أماليه»: الفائدةُ في إعادة لفظ الشهر الإعلامُ بمقدار زمن الغدوِّ وزمن الرواح، والألفاظ التي تأتي مبيِّنةً للمقادير لا يحسنُ فيها الإضمار، ألا ترى أنَّك تقول: زنةُ هذا مثقال، وزنةُ هذا مثقال، فلا يحسن الإضمار، كما لا يحسنُ في التمييز، وأيضاً فإنَّه لو أضمر، فالضمير إنَّما يكونُ لما تقدَّم باعتبار خصوصيَّته، فإذا لم يكن له بذلك الاعتبار وجب العدول إلى الظاهر، ألا ترى أنَّك إذا أكرمتَ رجلاً وكسوتَ ذلك الرجل بخصوصه لكانت العبارة: أكرمتُ رجلاً وكسوتُه، ولو أكرمتَ رجلاً وكسوتَ رجلاً آخر لكانت العبارة: أكرمتُ رجلاً وكسوتُ رجلاً، فتبيَّن أنَّه ليس من وضع الظاهر موضع الضمير[3]، كذا في «حواشي الطيبي» عليه الرحمة.

ولا يخفى أنَّ ما ذكره مبنيٌّ على ما هو الغالب، وإلَّا فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ [فاطر: ١١]، ولم يقتصر على الإعلام بزمن الغدوِّ ليقاس عليه زمن الرواح؛ لأنَّ الريح كثيراً ما تسكنُ أو تضعفُ حركتُها بالعشيِّ، فدُفِعَ بالتنصيص على بيان زمن الرواح توهُّمُ اختلاف الزمانين.

قال قتادة: كانت الريح تقطعُ به عليه السلام في الغدوِّ إلى الزوال مسيرةَ شهرٍ، وفي الرواح من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر.

وأخرجَ أحمد في «الزهد» عن الحسن أنَّه قال في الآية: كان سليمانُ عليه

(١) في (م): ليس.
(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٤.
(٣) أمالي ابن الحاجب ١/ ٢٧٢.

السلام يغدو من بيت المقدس، فيَقيلُ بإصطخر، ثم يروحُ من إصطخر، فيَقيلُ بقلعة خراسان(١).

وقد ذُكر حديثُ هذه الريح في بعض الأشعار القديمة، قال وهب ـ ونقلَه عنه في «البحر» ـ: وجدتُ أبياتاً منقورةً في صخرةٍ بأرض كَسْكَر(٢) لبعضِ أصحاب سليمان عليه السلام وهي:

ونحن ولا حولٌ سوى حول ربِّنا ... نروحُ من الأوطان من أرضِ تدمرِ
إذا نحنُ رحنَا كان ريثُ رواحِنا ... مسيرةَ شهرٍ والغدوُّ لآخرِ
أناسٌ شَرَوا لله طَوعاً نفوسَهم ... بنصرِ ابن داودَ النبيِّ المطهَّرِ
لهم في معالي الدين فضلٌ ورفعةٌ ... وإن نُسِبوا يوماً فمن خير معشرِ
متى تُركبُ الريحُ المطيعةُ أسرعت ... مبادرةً عن شهرها لم تُقَصِّرِ
تظلُّهم طيرٌ صفوفٌ عليهم ... متى رَفرفتْ من فوقهم لم تُنَفَّرِ(٣)

وذكر أيضاً ﷺ أنَّه عليه السلام كان مستقرُّه تدمر، وأنَّ الجنَّ قد بنتها له بالصُّفَّاح(٤) والعمد والرخام الأبيض والأشقر، وقال: وفيه يقول النابغة:

إلَّا سليمانَ إذ قال الإلهُ له ... قم في البريَّة فاصددها(٥) عن الفَنَدِ
وجيِّشِ الجنَّ إنِّي قد أذنتُ لهم ... يبنونَ تدمرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ(٦)

انتهى.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٧. وإصطخر: مدينة بفارس. معجم البلدان ١/ ٢١١.
(٢) في مطبوع البحر المحيط ٧/ ٢٦٤: يشكر. وكسكر مكان بالعراق. انظر معجم البلدان ٤/ ٤٦١.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤. وفي مطبوعه اختلاف يسير في الأبيات.
(٤) الصُّفَّاح بالضم والتشديد: الحجر العريض. الصحاح (صفح).
(٥) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر المحيط، ووقع في ديوان النابغة، وتفسير القرطبي ١٧/ ٢٦٧، وخزانة الأدب ٣/ ٤٠٥: فاحددها. وكذا وقع في تفسير الآلوسي أيضاً ١٢/ ٤٨٩، وذكر ثمة البيت الأول.
(٦) ديوان النابغة ص٣٣. وفيه وفي تفسير الثعلبي ٨/ ٧٤، والقرطبي ١٧/ ٢٦٧: وخيِّس. بدل: وجيِّش. ومعنى خيِّس: ذلل. القاموس (خيس). وقال عبد القادر البغدادي في

وما ذكره في تدمر هو المشهور عند العامة، وقد ذَكر ذلك الثعالبيُّ في «تفسيره» مع الأبيات المذكورة[1]، لكن في «القاموس»: تَدْمُر، كتَنْصُر: بنتُ حسان بن أُذَيْنَة، بها سمِّيت مدينتها[2]. وهو ظاهرٌ في المخالفة، ولعلَّ التعويل على ما فيه إنْ لم يمكن الجمعُ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقرأ ابن أبي عبلة: «غَدوتها»، و«رَوحتها» على وزن فَعْلَة[3]، وهي المرَّة الواحدة من غدا وراح.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: النحاس الذائب، من قَطر يقطُر قطراً وقَطراناً بسكون الطاء وفتحها[4]. وقيل: الفِلِزَّات؛ النحاس والحديد وغيرهما. وعلى الأول جمهور اللغويين.

وأريد بـ «عين القِطر» مَعْدِنُ النحاس، ولكنَّه سبحانه أساله كما ألانَ الحديدَ لداود، فنبع كما ينبعُ الماءُ من العين، فلذلك سُمِّيَ عينَ القطر باسم ما آل إليه.

وذكر الجلبيُّ أنَّ نسبةَ الإسالة إلى العين مَجازيَّةٌ، كما في: جرى النهر.

وقال الخفاجيُّ[5]: إن كانت العينُ هنا بمعنى الماء المَعين، أي: الجاري، وإضافتُها كما في لجين الماء، فلا تَجوُّزَ في النسبة، وإنَّما هو من مجازِ الأَوْل، على أن العينَ منبع الماء، ولا حاجة إليه. اهـ. فتأمَّل.

وقال بعضهم: القِطْر: النحاس، و«عين» بمعنى ذات، ومعنى «أسلنا»: أذبنا، فالمعنى: أذبنا له النحاس على نحو ما كان الحديد يلينُ لداودَ عليه السلام، فكانت الأعمالُ تتأتَّى منه وهو باردٌ دون نار، ولم يَلِنْ ولا ذَابَ لأحدٍ قبلَه.

= الخزانة ٣/ ٤٠٥: الفَنَد بفتح الفاء والنون: خطأ الرأي والصنيع، وقال ابن الأعرابي: الفند: الظلم. اهـ.

(١) تفسير أبي إسحاق الثعلبي ٨/ ٧٤.

(٢) القاموس (تدمر).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤.

(٤) وأما القطران المعروف فبكسرها. حاشية الشهاب ٧/ ١٩٤.

(٥) في حاشيته ٧/ ١٩٤.

والظاهر المؤيَّدُ بالآثار أنَّه تعالى جعلَه في مَعْدِنه عيناً تسيلُ كعيون الماء؛ أخرج ابن المنذر عن عكرمة أنَّه قال في الآية: أَسَالَ اللهُ تعالى له القطرَ ثلاثة أيَّامٍ، يسيلُ كما يسيل الماء، قيل: إلى أين؟ قال: لا أدري.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ قال: سُيِّلَتْ له عينٌ من نحاسٍ ثلاثةَ أيام[1].

وفي «البحر» عن ابن عباس والسُّدِّيِّ ومجاهد قالوا: أُجريت له عليه السلام ثلاثةَ أيام بلياليهنَّ، وكانت بأرض اليمن. وفي روايةٍ عن مجاهد أنَّ النَّحاسَ سالَ من صنعاء[2]. وقيل: كان يسيلُ في الشهر ثلاثة أيام.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ الجارُّ والمجرور متعلِّقاً بمحذوفٍ هو خبرٌ مقدَّم، و«مَنْ» في محلِّ رفع مبتدأ، ويحتملُ أن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً مقدَّماً من «مَنْ»، وهي في محلِّ نصبٍ، عطف على «الريح».

وجُوِّز أن يكون «من الجن» عطفاً على «الريح»، على أنَّ «مِنْ» للتبعيض، و«من يعمل» بدلٌ منه. وهو تكلُّف.

و«يعمل» إمَّا منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو مفعوله مقدَّرٌ يفسِّره ما سيأتي إن شاء الله تعالى؛ ليكون تفصيلاً بعد الإجمال، وهو أوقعُ في النفس.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره عزَّ وجلَّ ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل منهم عمَّا أمرناه به من طاعة سليمان عليه السلام.

وقرئ: «يُزِغ» بضمِّ الياء من أزاغ مبنيّاً للفاعل[3]، ومفعوله محذوف، أي: من يُمل ويصرف نفسَه أو غيره. وقيل: مبنيّاً للمفعول فلا يحتاج إلى تقدير مفعول[4].

---

(١) الأثران في الدر المنثور ٥/ ٢٢٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٦٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٥.

(٤) ينظر حاشية الشهاب ٧/ ١٩٤.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ أي: عذاب النار في الآخرة، كما قال أكثر المفسِّرين، وروي ذلك عن ابن عباس.

وقال بعضهم: المراد تعذيبه في الدنيا، ورُوي عن السُّدِّيِّ أنَّه عليه السلام كان معه مَلَكٌ بيده سَوطٌ من نار، كلَّما استعصَى عليه جنيٌّ ضربهَ من حيث لا يراه الجنيُّ. وفي بعض الروايات أنَّه كان يَحْرِقُ من يخالفُه.

واحتراقُ الجنِّيِّ مع أنَّه مخلوقٌ من النار غيرُ منكرٍ، فإنَّه عندنا ليس ناراً محضةً، وإنَّما النارُ أغلب العناصر فيه.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ جمع: محراب، وهو ـ كما قال عطية ـ القصر، وسمي باسم صاحبه؛ لأنه يحارب غيره في حمايته، فإنَّ المحراب في الأصل من صيغ المبالغة اسمٌ لمن يكثر الحرب، وليس منقولاً من اسم الآلة، وإن جَوَّزَهُ بعضهم، ولابن حَيُّوس[1]:

جمعَ الشجاعةَ والخشوعَ لربِّه ما أحسنَ المحراب في محرابه[2]

ويطلق على المكان المعروف الذي يقفُ بحذائه الإمام، وهو مما أُحدِث في المساجد، ولم يكن في الصدر الأوَّل، كما قال السيوطيُّ، وألَّف في ذلك رسالةً[3]، ولذا كَرِهَ الفقهاءُ الوقوفَ في داخله.

وقال ابن زيد: المحاريب: المساكن.

وقيل: ما يصعدُ إليه بالدرج، كالغرف.

وقال مجاهد: هي المساجد، سمِّيت باسم بعضها تجوُّزاً على ما قيل. وهو مبنيٌّ على أنَّ المحراب اسمٌ لحجرةٍ في المسجد يُعبَدُ الله تعالى فيها، أو لموقف الإمام.

---

(١) هو شاعر الشام، أبو الفتيان، محمد بن سلطان بن محمد بن حَيُّوس، الغنوي صاحب الديوان. مات بحلب سنة ثلاث وسبعين وأربع مئة. سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤١٣.

(٢) البيت في ديوانه ١/ ٩٩، وسلف ٤/ ١٤٧، وفيه: المحراب. بدل: محرابه.

(٣) سماها: إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب. وقد طبعت أكثر من مرة.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة تفسيرَها بالقصور والمساجد معاً[1].

وجملة «يعملون له ما يشاء» استئنافٌ لتفصيل ما ذُكر من عملهم، وجُوِّزَ كونُها حالاً. وهو كما ترى.

﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ قال الضَّحَّاك: كانت صورَ حيوانات. وقال الزمخشريُّ: صور الملائكة والأنبياء والصلحاء، كانت تُعمَل في المساجد من نحاس وصُفْر وزجاج ورخام؛ ليراها الناس، فيعبدوا نحو عبادتهم[2]، وكان اتخاذُ الصُّور في ذلك الشرع جائزاً، كما قال الضحَّاك وأبو العالية.

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: اتَّخذ سليمانُ عليه السلام تماثيلَ من نحاس، فقال: يا ربِّ انفخ فيها الروح، فإنَّها أقوى على الخدمة. فنفخ[3] الله تعالى فيها الروح، فكانت تخدمُه، وإسفنديار من بقاياهم[4].

وهذا من العجب العجاب، ولا ينبغي اعتقادُ صحَّته، وما هو إلَّا حديثُ خرافة.

وأمَّا ما روي من أنَّهم عملوا له عليه السلام أسدين في أسفل كرسيه، ونَسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعدَ بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعدَ أظلَّه النسران بأجنحتهما؛ فأمرٌ غيرُ مستبعدٍ، فإنَّ ذلك يكونُ بآلاتٍ تتحرَّك عند الصعود وعند القعود، فتحرِّكُ الذراعين والأجنحة. وقد انتهت صنائعُ البشر إلى مثل ذلك في الغرابة.

وقيل: التماثيلُ طِلَّسْمات[5]، فتعمل تمثالاً للتمساح أو للذباب أو للبعوض، فلا يتجاوزُه الممثَّل به ما دام في ذلك المكان، وقد اشتهر عملُ نحو ذلك عن

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٢٨.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٨٢.
(٣) في (م): فينفخ.
(٤) نوادر الأصول ص١١٢.
(٥) الطِّلَّسم: خطوط وأعداد يَزعُم كاتبها أنَّه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية؛ لجلب محبوب أو دفع أذى، وهو لفظ يوناني لكلِّ ما هو غامضٌ مبهمٌ، كالألغاز والأحاجي. المعجم الوسيط (طلسم).

الفلاسفة، وهو مما لا يتمُّ عندهم إلَّا بواسطة بعض الأوضاع الفلكيَّة، وعلى الباب الشهيرة بباب الطلسم من أبواب بغداد تمثالُ حيَّةٍ يزعمونَ أنَّه لمنع الحيَّات عن الإيذاء داخلَ بغداد، ونحن قد شاهدنا مراراً أناساً لسعتهم الحيَّات، فمنهم من لم يتأذَّ، ومنهم من تأذَّى يسيراً، ولم نشاهد موت أحدٍ من ذلك، وقلَّما يسلمُ مَن لَسَعَتْهُ خارجَ بغداد، لكن لا نعتقدُ أنَّ لذلك التمثال مدخلاً فيما ذُكر، ونظنُّ أنَّ ذاك لضعف الصنف الموجود في بغداد من الحيَّات، وقلَّة شرِّه بالطبيعة.

وقيل: كانت التماثيل صور شجرٍ، أو حيوانات محذوفة الرؤوس ممَّا جُوِّزَ في شرعنا.

ولا يُحتاج إلى التزام ذلك إلَّا إذا صحَّ فيه نقلٌ، فإنَّ الحقَّ أنَّ حرمةَ تصوير الحيوان كاملاً لم تكن في ذلك الشرع، وإنَّما هي في شرعنا، ولا فرقَ عندنا بين أنْ تكونَ الصورةُ ذات ظلٍّ وأن لا تكون كذلك، كصورة الفرس المنقوشة على كاغد أو جدارٍ مثلاً.

وحكى مكِّيٌّ في «الهداية»[1] أنَّ قوماً أجازوا التصوير، وحكاه النَّحاسُ[2] أيضاً، وكذا ابنُ الفرس[3]، واحتجُّوا بهذه الآية.

وأنت تعلمُ أنَّه وَرد في شرعنا من تشديد الوعيد على المصوِّرين ما ورد، فلا يلتفتُ إلى هذا القول ولا يصحُّ الاحتجاجُ بالآية. وكأنَّه إنَّما حرمت التماثيل؛ لأنَّه بمرورِ الزمان اتخذها الجهلةُ ممَّا يعبدُ، وظنُّوا وضعَها في المعابد لذلك، فشاعت عبادةُ الأصنام، أو سدًّا لباب التشبُّه بمتَّخذي الأصنام بالكُلِّيَّة.

﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع: جَفْنَة، وهي ما يوضع فيها الطعام مطلقاً، كما ذكره غيرُ واحدٍ.

---

(١) هو الهداية إلى بلوغ النهاية، وهو في سبعين جزءاً في معاني القرآن وأنواع علومه. انظر كشف الظنون ٢/ ٢٠٤١.
(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ٣٣٦.
(٣) في أحكام القرآن له ٣/ ٤٤٥.

وقال بعض اللغويين: الجفنة أعظمُ القِصاع، ويليها القَصْعة، وهي ما تُشبع العَشَرة، ويليها الصَّحْفَة، وهي ما تشبعُ الخمسة، ويليها المئكلة، وهي ما تشبع الاثنين والثلاثة، ويليها الصحيفة، وهي ما تشبع الواحد، وعليه فالمراد هنا المطلق؛ لظاهر قوله تعالى (كَٱلْجَوَابِ) أي: كالحياض العظام، جمع: جَابية، من الجباية، أي: الجمع، فهي في الأصل مجازٌ في الطرف أو النسبة؛ لأنَّها يُجبَى إليها، لا جابية، ثم غلبت على الإناء المخصوص غلبةَ الدابَّة في ذوات الأربع.

وجاء تشبيهُ الجفنة بالجابية في كلامهم، من ذلك قولُ الأعشى:

نَفَى الذمَّ عن آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كجابيةِ السَّيْحِ العراقيِّ تفهقُ[1]

وقول الأفوهِ الأوديِّ:

وقدورٍ كالرُّبى راسيةٍ وجفانٍ كالجوابي مُتْرَعَهْ[2]

وذُكِر في سَعة جِفان سليمان عليه السلام أنَّها كان على الواحدة منها ألفُ رجل.

وقرئ: «كالجوابي» بياء[3]، وهو الأصل، وحَذْفُها للاجتزاء بالكسرة، وإجراءِ «أل» مجرى ما عاقبها، وهو التنوين، فكما يحذفُ مع التنوين يحذف مع ما عاقبه.

﴿وَقُدُورٍ﴾ جمع: قِدْر، وهو ما يُطْبَخ فيه من فخَّار أو غيره، وهو على شكلٍ مخصوص.

﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي، لا تنزلُ عنها لعظمها، قاله قتادة. وقيل: كانت عظيمةً كالجبال.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٧٥. السَّيح: الماء الذي يسيح على وجه الأرض، أي: يجري. والجابية: الحوض الذي يجبى فيه الماء، أي: يجمع. أمالي القالي ٢/ ٢٩٦. وقال الحريري في درة الغوَّاص ص١٨٠: عنى بالجابية دجلة، وأراد أن جفنة آل المحلَّق تُمَدُّ بالطعام بعد الطعام، كما يُمَدُّ دجلة بالماء بعد الماء. ويقال: فهق الغدير، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد.

(٢) البيت ليس في ديوان الأفوه. وهو في البحر المحيط ٧/ ٢٥٥، والدر المصون ٩/ ١٦٢، واللباب لابن عادل ١٦/ ٢٨.

(٣) أثبت الياء وصلاً ووقفاً من السبعة ابنُ كثير، وأثبتها في الوصل ورش - راوية نافع - وأبو عمرو. انظر التيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.

وقُدِّمت المحاريبُ على التماثيل؛ لأنَّ الصورَ توضعُ في المحاريب، أو تنقشُ على جدرانها.

وقُدِّمت الجفانُ على القدور، مع أنَّ القدور آلةُ الطبخ، والجفان آلةُ الأكل، والطبخُ قبل الأكل؛ لأنَّه لمَّا ذكرت الأبنيةُ الملكيَّة ناسبَ أنْ يشارَ إلى عظمة السِّماط[١] الذي يمدُّ فيها، فذكرت الجفان أوَّلاً لأنَّها تكونُ فيها، بخلاف القدور فإنَّها لا تُحْضَرُ هناك كما ينبئ عنه قولُه تعالى: «راسيات» على ما سمعت أوَّلاً، وكأنَّه لما بيَّن حال الجفان اشتاق الذِّهنُ إلى حال القدور، فذكرت للمناسبة.

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ بتقدير القول على الاستئناف أو الحاليَّة من فاعل سخرنا المقدَّر، و«آل» منادى حذف منه حرف النداء.

و«شكراً» نصب على أنَّه مفعولٌ له، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العملَ حقُّه أنْ يكونَ للشكر، لا للرجاء والخوف. أو على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لـ «اعملوا» لأنَّ الشكرَ نوعٌ من العمل، فهو كـ: قعدتُ القرفصاء، وقيل: لتضمين «اعملوا» معنى اشكروا. وقيل: لاشكروا، محذوفاً. أو على أنَّه حالٌ بتأويل اسم الفاعل، أي: اعملوا شاكرين؛ لأنَّ الشكر يعمُّ القلبَ والجوارح. أو على أنَّه صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي: اعملوا عملاً شكراً. أو على أنَّه مفعول به لـ «اعملوا»، فالكلام كقولك: عملت الطاعة. وقيل: إنَّ «اعملوا» أقيم مُقامَ اشكروا مشاكلةً لقوله سبحانه: «يعملون».

وقال ابنُ الحاجب[٢]: إنَّه جُعِل مفعولاً به تجوُّزاً.

وأيًّا ما كان، فقد رَوى ابنُ أبي الدنيا، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود[٣] قال: لمَّا قيل لهم: «اعملوا آل داود شكراً» لم يأت ساعةٌ على القوم إلَّا ومنهم قائمٌ يصلِّي.

---

(١) السماط: ما يمدُّ ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها. المعجم الوسيط (سمط).

(٢) في أماليه ١/ ٢٧٣.

(٣) كذا في الدر المنثور ٥/ ٢٢٩ وعنه نقل المصنف. والذي في الشكر لابن أبي الدنيا (٧٣)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤٥٢٤): عن مسعر.

وفي رواية: كان مصلَّى آل داود لم يخلُ من قائمٍ يصلِّي ليلاً ونهاراً، وكانوا يتناوبونَه، وكان سليمانُ عليه السلام يأكلُ خبز الشعير، ويطعم أهله خشارته[1]، والمساكينَ الدرمك؛ وهو الدقيق الحُوَّارى، وما شبع قطُّ، وقيل له في ذلك، فقال: أخافُ إذا شبعتُ أنْ أنسى الجياع.

وجَوَّزَ بعض الأفاضل دخولَ داود عليه السلام في الآل هنا؛ لأنَّ آل الرجل قد يعمُّه. ويؤيِّده ما أخرجَه أحمد في «الزهد» وابنُ المنذر والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن المغيرة بن عتيبة[2] قال: قال داود عليه السلام: يا ربِّ، هل باتَ أحدٌ من خلقِك أطول ذِكْراً منِّي، فأوحى الله تعالى إليه: الضفدع، وأنزل سبحانه عليه عليه السلام: «اعملوا آل داود شكراً» فقال داودُ عليه السلام: كيف أطيقُ شكرك، وأنتَ الذي تنعمُ عليَّ، ثم ترزقني على النعمة الشكر، فالنعمةُ منك، والشكرُ منك، فكيف أُطيق شكرك؟ فقال جلَّ وعلا: يا داود، الآن عرفتني حقَّ معرفتي.

وجاء في رواية ابن أبي حاتم عن الفضيل أنَّه عليه السلام قال: يا ربِّ، كيف أشكرك، والشكرُ نعمةٌ منك؟ قال سبحانه: الآن شكرتني حين علمتَ النعمَ منِّي[3].

وكذا ما أخرجه الفريابيُّ وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قال داود لسليمان عليهما السلام: قد ذَكر الله تعالى الشكر، فاكفني قيامَ النهار أكفك قيام الليل. قال: لا أستطيع. قال: فاكفني صلاة النهار، فكفاه[4].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ قال ابن عباس: هو الذي يَشْكُرُ على أحواله كلِّها.

---

(١) في (م): خشادته. والخشارة من الشعير ما لا لبَّ له، وخشار المائدة ما يبقى عليها مما لا خير فيه. المعجم الوسيط (خشر).

(٢) في مطبوع الدر المنثور ٥/ ٢٢٩: عتبة، وفي مطبوع الزهد للإمام أحمد ص٨٨: عيينة، وفي مطبوع شعب الإيمان للبيهقي (٤٤١٣): عقبة. وانظر الجرح والتعديل ٨/ ٢٢٧، وتوضيح المشتبه ٦/ ١٧٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٢٩.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٢٨، وذكره النحاس في معاني القرآن ٥/ ٤٠١.

وفي «الكشاف»: هو المتوفِّرُ على أداء الشكر، الباذلُ وسعه فيه، قد شغلَ به قلبه ولسانه وجوارحَه؛ اعترافاً واعتقاداً وكدحاً، وأكثر أوقاته[١].

وقال السُّدِّيُّ. هو من يشكرُ على الشكر.

وقيل: من يرى عجزَه عن الشكر؛ لأنَّ توفيقَه للشكر نعمةٌ يستدعي شكراً آخرَ لا إلى نهاية.

وقد نظم هذا بعضهم فقال:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلَّا بفضله ... وإن طالتِ الأيَّام واتَّسع العمرُ
إذا مسَّ بالنعماء عمَّ سرورُها ... وإنْ مسَّ بالضرَّاء أعقبها الأجر[٢]

وقد سمعتَ آنفاً ما روي عن داود عليه السلام.

وهذه الجملةُ يحتملُ أن تكون داخلةً في خطاب آل داود، وهو الظاهر، وأن تكونَ جملةً مستقلَّةً جيء بها إخباراً لنبينا ﷺ، وفيها تنبيهٌ وتحريضٌ على الشكر.

وقرأ حمزةُ: «عبادي» بسكون الياء، وفتَحها الباقون[٣].

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ قيل: أي: أَوْقَعْنا على سليمان الموتَ، حاكمين به عليه. وفي «مجمع البيان»: أي: حكمنا عليه بالموت[٤]. وقيل: أَوْجَبْناه عليه.

وفي «البحر»: أي: أنفذنا عليه ما قضينَا عليه في الأزل من الموت، وأخرجناه إلى حيِّز الوجود[٥]. وفيه تكلُّف.

وأيّاً ما كان، فليس المراد بالقضاء أخا القدر، فتدبَّر.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٣.
(٢) هي لمحمود الوراق كما في الفاضل في اللغة والأدب للمبرد ص٩٥، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٣١٧.
(٣) التيسير ص١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.
(٤) مجمع البيان ٢٢/ ١٩٣.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٦٦.

و«لمَّا» شَرطيَّة، ما بعدها شرطُها، وجوابها قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ واستدِلَّ بذلك على حرفيتها. وفيه نظر.

وضمير «دلَّهم» عائدٌ على الجنِّ الذين كانوا يعملون له عليه السلام. وقيل: عائدٌ على آل سليمان. ويأباه بحسب الظاهر قولُه تعالى بعد: «تبيَّنت الجنُّ».

والمراد بـ «دابَّة الأرض» الأرَضَة، بفتحات، وهي دُوَيبَّة تأكلُ الخشب ونحوه، وتسمى: سُرْفة، بضمِّ السين وإسكان الراء المهملة وبالفاء.

وفي «حياة الحيوان» عن ابن السكِّيت: أنَّها دُوَيبَّةٌ سوداءُ الرأس، وسائرُها أحمر، تتَّخذ لنفسها بيتاً مربَّعاً من دقاق العيدان، تضمُّ بعضَها إلى بعض بلُعابها، ثم تدخل فيه وتموت[1]. وفي المثل: أصنع من سُرْفة[2].

وسمَّاها في «البحر»[3] بِسُوسة الخشب.

و«الأرض» ـ على ما ذهب إليه أبو حاتم وجماعة ـ مصدرُ أَرَضَت الدابَّةُ الخشبَ تأرِضه: إذا أكلته، من باب ضرب يضربُ، فإضافةُ «دابَّة» إليه من إضافة الشيء إلى فعله. ويؤيِّدُ ذلك قراءةُ ابن عباس والعبّاس بن الفضل: «الأَرَض» بفتح الراء[4]؛ لأنَّه مصدر أَرِضَ من باب عَلِم المطاوع لأَرَض من باب ضَرَبَ، يقال: أَرَضت الدابَّة الخشبَ، بالفتح، فأرِض بالكسر، كما يقال: أكلت القوادحُ[5] الأسنان أكْلاً فأكِلت أكَلاً، فالأرْض بالسكون: الأكل، والأرَض بالفتح: التأثُّر من ذلك الفعل. وقد يفسَّرُ الأولُ بالتأثُّر الذي هو الحاصل بالمصدر؛ لتتوافق القراءتان.

وقيل: «الأرَض»، بالفتح: جمع: أَرَضَة، وإضافة «دابَّة» إليه من إضافة العامِّ إلى الخاص.

---

(١) حياة الحيوان ٢/ ٢٠.
(٢) مجمع الأمثال ١/ ٤١١.
(٣) ٧/ ٢٦٦.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٦٦، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢١ للواقدي.
(٥) جمع قادحة، وهي دودة تكون في الأسنان. حاشية الشهاب ٧/ ١٩٥.

وقيل: إنَّ «الأرْض» بالسكون بمعناها المعروف، وإضافة «دابَّة» إليها؛ قيل: لأنَّ فعلَها في الأكثر فيها.

وقيل: لأنَّها تؤثِّر في الخشب ونحوه، كما تؤثِّر الأرضُ فيه إذا دُفِن فيها.

وقيل غير ذلك، والأولى التفسيرُ الأوَّلُ، وإنْ لم تجئ الأرضُ في القرآن بذلك المعنى في غير هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ في موضع الحال من «دابَّة»، أي: آكلةً منسأته، والمنسأة: العصا، من نسأتُ البعيرَ: إذا طردتَه؛ لأنَّها يُطردُ بها، أو من نَسَأْتُه: إذا أخَّرته، ومنه: النسيءُ، ويظهر من هذا أنَّها العصا الكبيرة التي تكون مع الراعي وأضرابه.

وقرأ نافع وأبو عمرو[١] وجماعةٌ: «منساته» بألف، وأصله: منسأته، فأبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غير قياسيٍّ، وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها؛ لأنِّي لا أعرفُ لها اشتقاقاً، فإنْ كانت ممَّا لا تهمز فقد احتطت، وإن كانت ممَّا تهمز فقد يجوز لي ترك الهمز فيما يهمز. ولعلَّه بيانٌ لوجه اختيار القراءة[٢] بدون همزة، وبالهمز جاءت في قول الشاعر:

ضربتُ بمنسأةٍ وجهَه   فصارَ بذاك مهيناً ذليلا[٣]

وبدونه في قوله:

إذا دببتَ على المنساة من هرمٍ   فقد تباعدَ منك اللهوُ والغزلُ[٤]

---

(١) في الأصل: وأبو عامر، وفي (م): وابن عامر. والمثبت هو الصواب، وهو الموافق لما في البحر المحيط ٧/ ٢٦٧ - وعنه نقل المصنف - والتيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٤٩ وهي قراءة أبي جعفر أيضاً من العشرة.

(٢) في الأصل: القرآن.

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣. وذكره أبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٥ بلفظ: منساءة، بدل: منسأة. مستدلاً بها على مجيئها بالهمز والمد على وزن مفعالة.

(٤) ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٤٥، والجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣١، والطبري في =

وقرأ ابن ذكوان وبكّار والوليدُ بن أبي عتبة وابن مسلم وآخرون: «منسأْته» بهمزةٍ ساكنة[1]، وهو من تسكين المتحرك تخفيفاً. وليس بقياس، وضعَّف النحاة هذه القراءة؛ لأنَّه يلزمُ فيها أنْ يكون ما قبلَ تاء التأنيث ساكناً غير ألف.

وقيل: قياسها التخفيف بين بين، والراوي لم يضبط. وأنشد هارون بن موسى الأخفش الدمشقيُّ[2] شاهداً على السكون في هذه القراءة قول الراجز:

صريعُ خمرٍ قام من وَكَأْتِهْ كقومةِ الشيخِ إلى مِنْسَأْتِهْ[3]

وقُرِئ بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً، و«مِنْساءته» بالمدِّ على وزن مِفعالة[4]، كما يقال في الميضأة ـ وهي آلة التوضُّؤ، وتطلق على محلِّه أيضاً ـ ميضاءة.

وقرئ: «مِنْسَيَتِه» بإبدال الهمزة ياءً[5].

وقرأت فرقةٌ منهم عمرو بن ثابت عن ابن جبير: «من» مفصولةً حرف جرٍّ «سأتِهِ» بجرِّ التاء[6]، وهي طرف العصا، وأصلها ما انعطفَ من طرفي القوس، ويقال فيه: سِيَة أيضاً، استعيرت لما ذكر إمَّا استعارةً اصطلاحيَّةً؛ لأنَّها كانت خضراء فاعوجَّت بالاتِّكاء عليها، على ما ستسمعه إنْ شاء الله تعالى في القصَّة، أو لغويَّة باستعمال المقيَّد في المطلق. وبما ذُكر عُلِم ردُّ ما قاله البَطَلْيَوسيّ بعد ما نقل

= تفسيره ١٩/ ٢٣٩، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٨٧، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣، وأبو حيان في البحر ٧/ ٢٥٥.

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٦٧، وقراءة ابن ذكوان ـ راوية ابن عامر ـ في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٢) مقرئ دمشق، قرأ على ابن ذكوان وهشام، وله تصانيف في القراءات والعربية، توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٦٦.

(٣) الرجز في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٧. وذكره القرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٨٣، والأول عنده: وقائمٍ قد قام من تُكَأْتِهْ.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٨٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٧.

(٥) المحتسب ٢/ ١٨٨.

(٦) المحتسب ٢/ ١٨٦، والبحر ٧/ ٢٦٧. ووقع في مطبوع البحر: عمر بن ثابت، بدل: عمرو.

هذه القراءة عن الفراء[١]: إنه تعجرفٌ لا يجوز أن يستعمل في كتاب الله عزَّ وجلَّ، ولم يأتِ به روايةٌ ولا سماع، ومع ذلك هو غيرُ موافقٍ لقصَّة سليمان عليه السلام؛ لأنَّه لم يكن معتمداً على قوس، وإنما كان معتمداً على عصا.

وقُرِئ: «أَكَلَتْ منسأته» بصيغة الماضي[٢]، فالجملة إمَّا حالٌ أيضاً بتقدير «قد»، أو بدونه، وإمَّا استئنافٌ بيانيٌّ.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أي: علمت بعد التباسِ أمر سليمان من حياته ومماته عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ أنَّهم لو كانوا يعلمون الغيبَ ـ كما يزعمون ـ لعلموا موتَه زمنَ وقوعه، فلم يلبثوا بعدَه حولاً في الأعمال الشاقَّة إلى أن خرَّ.

والمراد بالجنِّ الذين علموا ذلك ضعفاءُ الجنِّ، وبالذين نَفَى عنهم علمَ الغيب رؤساؤهم وكبارهم، على ما روي عن قتادة. وجُوِّز عليه أن يراد بالأمر الملتبس عليهم أمرُ علم الغيب، أو المراد بالجنِّ الجنس، بأن يسند للكلِّ ما للبعض، أو المراد كبارهم المدَّعونَ علمَ الغيب، أي: عَلِمَ المدَّعون علمَ الغيب منهم عجزَهم وأنَّهم لا يعلمون الغيب. وهم وإن كانوا عالمين قبل ذلك بحالهم لكن أريد التهكُّم بهم كما تقول للمبطل إذا دحضت حُجَّتَه: هل تَبيَّنتَ أنَّك مبطلٌ؟ وأنت تعلم أنَّه لم يزل كذلك متبيِّناً.

وجُوِّز أن يكون «تبين» بمعنى بان وظهر، فهو غيرُ متعدٍّ لمفعول، كما في الوجه الأول، فإنَّ مفعوله فيه «أن لو كانوا» إلخ، وهو في هذا الوجه بدلٌ من «الجن» بدل اشتمال، نحو: تبيَّنَ زيدٌ جهلُه، والظهور في الحقيقة مسندٌ إليه، أي: فلمَّا خرَّ بانَ للناس وظهر أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب.

(١) يعني قوله في معاني القرآن ٢/ ٣٥٧: ولو جاء في القراءة: «من سأتِه». إلا أن الفراء قال بعد توجيهها: ولم يقرأ بها أحدٌ علمناه. والكلام من حاشية الشهاب ٧/ ١٩٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٨٣ دون نسبة، وعزاها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١١ لمصحف عبد الله.

ولا حاجة على ما قُرِّرَ إلى اعتبار مضافٍ مقدَّرٍ، هو فاعلُ «تبيَّن» في الحقيقة، إلَّا أنَّه بعد حذفه أقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وأسند إليه الفعل، ثم جعل «أن لو كانوا» إلخ بدلاً منه بدل كلٍّ من كلّ، والأصل: تبيَّن أمر الجنِّ أنْ لو كانوا. . إلخ.

وجَعَل بعضهم في قوله تعالى: «أن لو كانوا يعلمون» إلخ قياساً طُويت كُبْراه، فكأنه قيل: لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، لكنَّهم لبثوا في العذاب المهين، فهم لا يعلمون الغيب.

ومجيء «تبيَّن» بمعنى بان وظهر لازماً، وبمعنى أدرك وعلم متعدِّياً = موجودٌ في كلام العرب، قال الشاعر:

تبيَّن لي أنَّ القماءةَ ذلَّةٌ ... وأنَّ أعزَّاءَ الرجال طيالها[1]

وقال الآخر:

أفاطم إنِّي ميِّتٌ فتبيَّني ... ولا تجزعي كلُّ الأنام تموتُ[2]

وفي «البحر»[3] نقلاً عن ابن عطيَّة قال: ذهب سيبويه[4] إلى أنَّ «أنْ» لا موضعَ لها من الإعراب، وإنَّما هي منزَّلةٌ منزلةَ القسم من الفعل الذي معناه التحقيق واليقين[5]، لأنَّ هذه الأفعال التي هي: تحقَّقتُ، وتيقَّنتُ، وعلمتُ، ونحوها،

---

(١) نسبه في الحماسة البصرية ١/ ٣٥ لأنيف بن زبَّان النهشلي، ونسبه عبد القادر البغدادي في الخزانة ٩/ ٤٨٨، وشرح أبيات المغني ٤/ ٦٧-٦٨ لأثال بن عبدة بن الطبيب. وهو في المحتسب ١/ ١٨٤، والمنصف ١/ ٣٤٢، وأمالي ابن الشجري ١/ ٨٦، وشرح المفصل ١٠/ ٨٨ دون نسبة. ونسبه المبرد في الكامل ١/ ١٢١، ٢/ ١٠٤٤ لرجل من بني سعد.

(٢) هو بهذا اللفظ في البحر المحيط ٧/ ٢٦٧، والدر المصون ٩/ ١٦٨.
وذكره أبو عبيد في الأمثال ص٣٣٥، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ١٥٧، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٣٣، والصفدي في تصحيح التصحيف ص٥٥٥، برواية:
ولا تجزعي كل النساء يئيم.
وهو كذلك في المستقصى ٢/ ٢٢٦ ونسبه فيه لامرئ القيس. وليس في ديوانه.

(٣) ٧/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٤) انظر الكتاب ٣/ ١٠٧-١٠٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٢.

تحلُّ محلَّ القسم، فـ «ما لبثوا» جواب القسم لا جواب «لو». اهـ. فتأمَّله فإنِّي لا أكاد أتعقَّله وجهاً يُلتفتُ إليه.

وفي «أمالي العزِّ بن عبد السلام» أنَّ «الجنّ» ليس فاعل «تبيَّنت»، بل هو مبتدأ، و«أنْ لو كانوا يعلمون» خبرُه، والجملة مفسِّرةٌ لضمير الشأن في «تبيَّنت» إذ لولا ذلك لكان معنى الكلام: لمَّا مات سليمان وخرَّ ظهرَ لهم أنَّهم لا يعلمون الغيب. وعلمُهم بعدم علمهم الغيب لا يتوقَّف على هذا، بل المعنى: تبيَّنت القصَّة ما هي، والقصَّة قوله تعالى: ﴿ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. اهـ.

والعجبُ من صدور مِثْلِه عن مِثْلِه، وما جعلَه مانعاً عن فاعلية «الجن» مدفوعٌ بما سمعتَ في تفسير الآية كما لا يخفى.

وفي كتاب النحاس إشارةٌ إلى أنَّه قُرئ: «تبيَّنت الجنَّ» بالنصب، على أنَّ «تبيَّنت» بمعنى علمت، والفاعل ضمير «الإنس»، و«الجنَّ» مفعوله[1].

وقرأ ابنُ عباس ـ فيما ذكر ابن خالويه[2] ـ ويعقوب بخلافٍ عنه: «تُبُيِّنَت» مبنياً للمفعول[3].

وقرأ أُبيٌّ: «تبيَّنت الإنس»، وعن الضَّحَّاك: «تباينت الإنس» بمعنى تعارفت وتعالمت، والضمير في «كانوا» للجنِّ المذكور فيما سبق. وقرأ ابن مسعود: «تبيَّنت الإنسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمون الغيب»[4]، وهي قراءاتٌ مخالفةٌ لسواد المصحف مخالفةً كثيرة.

وفي القصة رواياتٌ، فروي أنَّه كان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في مسجد بيت المقدس المُدَدَ الطِّوال، فلمَّا دنا أجلُه لم يصبح إلَّا رأى في محرابه

(١) البحر المحيط ٧/٢٦٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/٣٣٧-٣٣٨، ومعاني القرآن له ٥/٤٠٥.

(٢) في القراءات الشاذة ص١٢١.

(٣) هي قراءة رويس عن يعقوب. النشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) ذكر هذه القراءات الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٨٣-٢٨٤، والأخيرة في المحتسب ٢/ ١٨٨.

شجرةً نابتةً قد أنطقَها الله تعالى، فيسألُها: لأيِّ شيءٍ أنت؟ فتقول: لكذا، حتى أصبحَ ذاتَ يومٍ، فرأى الخرنوبة[(١)]، فسألَها، فقالت: نبتُّ لخرابِ هذا المسجد، فقال: ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حيٌّ، أنتِ التي على وجهِك هلاكي وخرابُ بيت المقدس. فنزعَها وغرسَها في حائطٍ له، واتخذَ منها عصا، وقال: اللهمَّ عَمِّ على الجنِّ موتي، حتى يُعْلَم أنَّهم لا يعلمون الغيب كما يموِّهون. وقال لملك الموت: إذا أُمِرتَ بي فأعلمني، فقال: أمرتُ بك، وقد بقيَ من عمرك ساعةٌ. فدعا الجنَّ فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له بابٌ، فقام يصلِّي متَّكئاً على عصاه، فقبض روحَه وهو متَّكِئٌ عليها، وكانت الجنُّ تجتمعُ حولَ محرابه أينما صلَّى، فلم يكن جنِّيٌّ ينظرُ إليه في صلاته إلَّا احترقَ، فمرَّ جنيٌّ فلم يسمع صوتَه، ثم رجع فلم يسمع، فنظر إذا سليمان قد خرَّ ميتاً، ففتحوا عنه، فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أنْ يعرفوا وقتَ موته، فوضعوا الأَرَضَة على العصا، فأكلت منها في يومٍ وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه ويحسَبونه حيًّا، فتبيَّن أنَّهم لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب سنةً[(٢)].

ولا يخفى أنَّ هذا من باب التخمين والاقتصارِ على الأقل، وإلَّا فيجوزُ أن تكونَ الأَرَضَةُ بدأت[(٣)] بالأكل بعد موته بزمانٍ كثير، وأنَّها كانت تأكلُ أحياناً وتتركُ أحياناً.

وأما كونُ بدئها في حياته فبعيد، وكونه بالوحي إلى نبيٍّ في ذلك الزمان ـ كما قيل ـ فواهٍ؛ لأنَّه لو كان كذلك لم يحتاجوا إلى وضع الأَرَضَة على العصا ليستعلموا المدَّةَ.

---

(١) في الأصل: الخربوبة، وفي الكشاف ٣/ ٢٨٤ـ والكلام منه ـ: الخروبة. اهـ. والخروبة والخرنوبة: شجر الينبوت، وقيل: الينبوت: الخشخاش. انظر تاج العروس (خرب).

(٢) قال الحافظ ابن كثير بعد ذكر نحو هذا الخبر: وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تُلقِّي من علماء أهل الكتاب، وهي وقف لا يصدَّق منها إلا ما وافق الحق، ولا يكذَّب منها إلا ما خالف الحق، والباقي لا يصدق ولا يكذب.

(٣) في الأصل و(م): بدت، والمثبت من حاشية الشهاب ٧/ ١٩٦.

وروي أنَّ داودَ عليه السلام أسَّسَ بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام، فمات قبل أن يُتِمَّه، فوصَّى به إلى سليمان، فأمرَ الجنَّ بإتمامه، فلمَّا بقي من عمره سنة سأل أنْ يُعمَّى عليهم موتُه حتى يفرغوا منه، ولتبطلَ دعواهم علم الغيب.

وهذا بظاهره مخالفٌ لما رويَ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو الذي أسَّس بيتَ المقدس بعد الكعبة بأربعين سنة[1]، ثم خرب، وأعاده داود، وماتَ قبل أن يتمَّه.

وأيضاً أنَّ موسى عليه السلام لم يدخل بيتَ المقدس، بل ماتَ في التِّيْهِ، وجاء في الحديث الصحيح[2] أنَّه عليه السلام سأل ربَّه عند وفاته أنْ يدنيه من الأرض المقدَّسة رميةً بحجر.

وأيضاً قد روي أنَّ سليمان قد فرغَ من بناء المسجد وتعبَّد فيه، وتجهَّز بعدَه للحجِّ شكراً لله تعالى على ذلك.

وأجيب عن الأوَّل بأنَّ المرادَ تجديد التأسيس، وعن الثاني بأنَّ المرادَ بفسطاط موسى فسطاطه المتوارث، وكانوا يضربونَه يتعبَّدون فيه تبرُّكاً، لا أنَّه كان يُضربُ هنالك في زمنه عليه السلام.

ويحتاجُ هذا إلى نقلٍ، فإنَّ مثلَه لا يُقالُ بالرأي، فإنْ كان فأهلاً ومرحباً.

وقيل: المراد به مجمع العبادة على دين موسى، كما وقع في الحديث: «فسطاط إيمان»[3].

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠) من حديث أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي المساجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة...».

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) يشير إلى حديث ابن عمر الذي أخرجه أبو داود (٤٢٤٢)، وأحمد (٦١٦٨) وفيه: «حتى يصير الناس إلى فسطاطين؛ فسطاطِ إيمان لا نفاق فيه، وفسطاطِ نفاقٍ لا إيمان فيه...»، وذكره القرطبي في التذكرة ص٥٥٩-٥٦٠.

وقال القرطبيُّ في «التذكرة»: المرادُ به فرقةٌ منحازةٌ عن غيرها، مجتمعةٌ تشبيهاً بالخيمة[١].

ولا يخفى ما فيهما، وإن قيل: إنَّهما أظهرُ من الأول.

وعن الثالث بأنَّ المرادَ بالفراغ القربُ من الفراغ، وما قاربَ الشيءَ له حكمه. وفيه بعدٌ.

واختير أنَّ هذا رواية، وذاك رواية، والله تعالى أعلم بالصحيح منهما.

ورُوي أنَّه عليه السلام قد أمر ببناء صرحٍ له، فبنوه، فدخلَه مختلياً ليصفو له يومٌ في الدهر من الكدر، فدخل عليه شابٌّ، فقال له: كيف دخلت عليَّ بلا إذن؟ فقال: إنَّما دخلتُ بإذن. فقال: ومَنْ أذِنَ لك؟ قال: ربُّ هذا الصرح. فعلم أنَّه مَلَكُ الموت أتى لقبض روحه. فقال: سبحان الله! هذا اليوم الذي طلبتُ فيه الصفا، فقال له: طلبتَ ما لم يُخلَق، فاستوثقَ من الاتِّكاء على عصاه، فقبض روحَه، وخفي على الجنِّ موتُه حتى سقط.

ورويَ أنَّ أفريدون جاء ليصعدَ كرسيَّه، فلما دنا ضرب الأَسَدَانِ ساقَه فكسراها[٢]، فلم يجسُر أحدٌ بعده أنْ يدنو منه، ولذا لم تَقربهُ الجنُّ وخفيَ أمرُ موته عليهم.

ونُظر فيه بأنَّ سليمان كان بعد موسى بمدَّةٍ مديدة، وأفريدون كان قبلَه؛ لأن منوجهر من أسباط أفريدون، وظهر موسى عليه السلام عليه في زمانه.

وعلى جميع الرويات الدالَّة على موته عليه السلام: خرورُه لمَّا كُسِرت العصا؛ لضعفِها بأكل الأرَضة منها، ونسبة الدلالة في الآية إليها نسبةٌ إلى السبب البعيد.

ومن الغريب ما نُقِل عن ابن عباس أنَّه عليه السلام ماتَ في متعبَّده على فراشه

(١) التذكرة ص٥٦١.

(٢) في الأصل: فكسراهما. والمثبت من (م)، والكشاف ٣/ ٢٨٤.

وقد أغلقَ الباب على نفسه، فأكلت الأرَضة المنسأة، أي: عتبة الباب، فلمَّا خرَّ، أي: البابُ، عُلِم موتُه، فإنَّ فيه جَعْلَ ضمير «خرَّ» للباب، وإليه ذهب بعضُهم.

وفيه أنَّه لم يُعهَد تسميةُ العتبة منسأة، وأيضاً كان اللازم عليه: خرَّت، بتاء التأنيث. ولا يجيء حذفُها في مثل ذلك إلَّا في ضرورة الشعر، وكونُ التذكير على معنى العود بعيدٌ، فالظاهر عدمُ صحَّة الرواية عن الحبر، والله تعالى أعلم.

وحَكى البغويُّ عنه أنَّ الجنَّ شكروا الأرَضَة، فهم يأتونَها بالماء والطين في جوفِ الخشب[١].

وهذا شيءٌ لا أقول به ولا أعتقدُ صحَّة الرواية أيضاً.

وكان عمره عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة، ومَلَكَ بعد أبيه وعمره ثلاثَ عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربعِ سنين مضينَ من ملكه، ثمَّ مضى وانقضى، وسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزولُ[٢] سلطانُه.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الغيبَ لا يختصُّ بالأمور المستقبلة، بل يشملُ الأمور الواقعة التي هي غائبةٌ عن الشخص أيضاً.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لمَّا ذكر عزَّ وجلَّ حالَ الشاكرين لنعمه، المنيبين إليه تعالى، ذكرَ حال الكافرين بالنعمة، المعرضينَ عنه جلَّ شأنُه؛ موعظةً لقريش، وتحذيراً لمن كفرَ بالنِّعم وأعرضَ عن المنعِم.

وسبأ في الأصل اسمُ رجل، وهو سبأ بن يشجب ـ بالشين المعجمة والجيم، كينصر ـ بنِ يعرب بن قحطان، وفي بعض الأخبار عن فروة بن مسيك قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ فقلت[٣]: يا رسول الله، أخبرني عن سبأ، أرجلٌ هو أم امرأة؟ فقال: «هو رجلٌ من العرب ولد عشرةً، تَيَامَنَ منهم ستَّة، وتشاءم منهم أربعة، فأمَّا الذين

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٥٥٢.

(٢) في الأصل: ولا يزال.

(٣) الذي في المصادر أن الراوي رجلٌ مبهم.

تيامنوا، فالأَزْدُ وكندةُ ومَذْحِجٌ والأشعريون وأنمارٌ، ومنهم بَجِيلة، وأمَّا الذين تشاءموا، فعاملةُ وغسَّانُ ولَخْمٌ وجُذامٌ»[1].

وفي «شرح قصيدة عبد المجيد بن عَبْدُون»[2] لعبد الملك بن عبد الله بن بَدْرُون الحضرميّ البستيّ[3] أنَّ سبأ بن يشجب أوَّلُ ملوك اليمن في قول، واسمه عبد شمس، وإنَّما سُمِّيَ سبأ؛ لأنَّه أولُ من سَبَى السبيَ من ولد قحطان، وكان ملكه أربعَ مئة وأربعاً وثمانين سنةً، ثمَّ سُمِّيَ به الحيُّ.

ومَنَعَ الصرفَ عنه ابنُ كثير[4] وأبو عمرو باعتبارِ جَعْلِه اسماً للقبيلة، ففيه العلميَّة والتأنيث، وقرأ قنبل بإسكان الهمزة على نيَّة الوقف[5].

وعن ابن كثير قلبُ همزته ألفاً[6]، ولعلَّه سكَّنها أوَّلاً بنيَّة الوقف كقنبل، ثمَّ قلبهَا ألفاً، والهمزةُ إذا سُكِّنت يطَّرد قلبُها من جنس حركة ما قبلها. وقيل: لعلَّه أخرجَها بينَ بين، فلم يؤدِّه الراوي كما وجب.

والمراد بسبأ هاهنا؛ إمَّا الحيُّ أو القبيلة، وإمَّا الرجلُ الذي سمعت، وعليه فالكلام على تقدير مضاف، أي: لقد كان في أولاد سبأ. وجُوِّزَ أنْ يرادَ به البلد، وقد شاعَ إطلاقُه عليه، وحينئذٍ فالضميرُ في قوله تعالى: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ لأهلها، أو لها مراداً بها الحيُّ على سبيل الاستخدام، والأمر فيه على ما تقدَّم ظاهر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٢٢) وفيه: أرض أو امرأة. بدل: أرجل هو أم امرأة. وسلف بعضه ص٥ من هذا الجزء.

(٢) هو عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابرتي، أبو محمد، ذو الوزارتين، أديب الأندلس في عصره، وكان كاتباً مترسلاً عالماً بالتاريخ والحديث، توفي سنة (٥٢٩هـ) وقيل غير ذلك. الأعلام ٤/ ١٤٩.

(٣) هو أبو القاسم، أديب أندلسي، اشتهر بشرحه لقصيدة ابن عبدون، وسماه: كمامة الزهر وفريدة الدهر. توفي (بعد ٦٠٨هـ). الأعلام ٤/ ١٦١.

(٤) في رواية البزي. انظر التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٥) التيسير ص١٦٧، والنشر ٢/ ٣٣٧.

(٦) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٢، وليست في التيسير والنشر. وانظر حاشية الشهاب ٧/ ١٩٦.

والمسكن اسم مكان، أي: في محلِّ سكناهم، وهو كالدار يطلَقُ على المأوى للجميع، وإن كان قطراً واسعاً، كما تسمى الدنيا داراً.

وقال أبو حيَّان: ينبغي أن يحمل على المصدر، أي: في سكناهم؛ لأن كلَّ أحدٍ له مسكنٌ، وقد أُفرد في هذه القراءة، وجَعْلُ المفردِ بمعنى الجمع، كما في قوله:

كُلوا في بعض بطنكم تَعِفُّوا[١]

وقوله:

قد عضَّ أعناقَهم جلدُ الجواميسِ[٢]

يختصُّ بالضرورة عند سيبويه[٣]. انتهى[٤].

وبما ذكرنا لا تبقى حاجة إليه كما لا يخفى.

واسم ذلك المكان مَأرِب، كمنزل، وهي من بلاد اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرةُ ثلاث.

وقرأ الكسائيُّ والأعمش وعلقمة: «مسكِنهم» بكسر الكاف[٥] على خلاف القياس، كمسجِد ومَطْلِع، لأنَّ ما ضُمَّت عينُ مضارعِهِ أو فتحت قياسُ المَفْعَل منه زماناً ومكاناً ومصدراً الفتحُ لا غير.

---

(١) عجزه:

فإنَّ زمانكم زمن خميص

وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعلم قائلها. وسلف ١/ ٣٩٩.

(٢) صدره:

الواردون وتيمٌ في ذرا سبأٍ

وهو لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٠، وسلف ١٩/ ٤١١.

(٣) انظر الكتاب ١/ ٢١٠.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٦٩. وقراءة الكسائي في التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠. وهي قراءة خلف من العشرة.

وقال أبو الحسن[1]: كسر الكاف لغة فاشيةٌ، وهي لغةُ الناس اليوم، والفتحُ لغةُ الحجاز، وهي اليوم قليلة. وقال الفراء[2]: هي لغةٌ يمانيةٌ فصيحة.

وقرأ الجمهور: «مساكنهم» جمعاً[3]، أي: في مواضع سكناهم.

﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامةٌ دالَّةٌ ـ بملاحظة أخواتها السابقة واللاحقة ـ على وجود الصانع المختار، وأنَّه سبحانه قادرٌ على ما يشاء من الأمور العجيبة، مُجَازٍ للمحسن والمسيء، وهي اسم «كان»، وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ منها، على ما أشار إليه الفرَّاء[4]، وصرَّح به مكِّي[5] وغيره.

وقال الزجَّاج: خبر مبتدأ محذوف، أي: هي جنَّتان[6].

ولا يشترط في البدل المطابقة إفراداً وغيره، وكذا الخبر إذا كان غيرَ مشتقٍّ، ولم يمنع المعنى من اتحاده مع المبتدأ، ولعلَّ وجه توحيد الآية هنا مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] ولا حاجةَ إلى اعتبار مضافٍ مفردٍ محذوفٍ هو البدل أو الخبر في الحقيقة، أي: قصة جنَّتين.

وذهب ابن عطية[7] ـ بعد أن ضعَّفَ وجه البدلية، ولم يذكر الجهة ـ إلى أنَّ «جنَّتان» مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

ولا يظهر، لأنَّه نكرةٌ لا مسوِّغَ للابتداء بها، إلَّا إن اعتقد أنَّ ثَمَّ صفةً

---

(١) هو الأخفش سعيد بن مسعدة، وذكر قوله الفارسي في الحجة ٦/ ١٤.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٧.

(٣) هي قراءة أبي بكر عن عاصم، ونافع، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر، ويعقوب. انظر التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٥٨.

(٥) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥.

(٦) انظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٤٨.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣.

محذوفةً، أي: جنَّتان لهم، أو: جنَّتان عظيمتان، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام متفلِّتاً عما قبلَه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «جنَّتين» بالنصب على المدح(١). وقال أبو حيان: على أنَّ «آية» اسمُ «كان»، و«جنَّتين» الخبر(٢).

وأيًّاما كان، فالمراد بالجنَّتين ـ على ما روي عن قتادة ـ جماعتان من البساتين؛ جماعةٌ عن يمين بلدهم، وجماعةٌ عن شماله، وإطلاقُ الجنَّة على كلِّ جماعةٍ؛ لأنَّها لتقارب أفرادها وتضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ، كما تكون بلادُ الريف العامرة وبساتينُها.

وقيل: أريد بستانَا كلِّ رجلٍ منهم عن يمين مسكنه وشماله، كما قال سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، قيل: ولم تجمع؛ لئلَّا يلزمَ أنَّ لكلِّ مسكنِ رجلٍ جنةً واحدةً لمقابلة الجمع بالجمع. ورُدَّ بأنَّ قوله تعالى: (عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) يدفعُ ذلك؛ لأنَّه بالنظر إلى كلِّ مسكنٍ، إلَّا أنها لو جُمعت أوهم أنَّ لكلِّ مسكنٍ جناتٍ عن يمينٍ، وجناتٍ عن شمال، وهذا لا محذورَ فيه، إلَّا أنْ يُدَّعى أنَّه مخالفٌ للواقع.

ثمَّ إنَّه قيل: إنَّ «في» فيما سبق بمعنى «عند»، فإنَّ المساكن محفوفةٌ بالجنَّتين لا ظرفٌ لهما.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا، فإنَّ القريبَ من الشيء قد يجعل فيه مبالغةً في شدَّة القرب.

ولكلٍّ وجهةٌ، لكن أنت تعلمُ أنَّه إذا أُريدَ بالمساكن أو المسكن ما يصلحُ أنْ يكونَ ظرفاً لبلدهم المحفوفة بالجنَّتين أو لمحلِّ كلٍّ منهم المحفوفة بهما = لم يحتج إلى التأويل أصلاً، فلا تَغفُل.

﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ بتقدير قولٍ، أي: قال لهم نبيُّهم: «كلوا» إلخ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٣، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

وفي «مجمع البيان» قيل: إنَّ مساكنَهم كانت ثلاثة عشر قريةً، في كلِّ قريةٍ نبيٌّ يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، يقول: «كلوا من رزق ربكم» إلخ[١].

وقيل: ليس هناك قولٌ حقيقةً، وإنَّما هو قولٌ بلسان الحال.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾ أي: هذه البلدةُ التي فيها رزقُكم بلدةٌ طيِّبَةٌ، وربُّكم الذي رزقكم وطلبَ شكركم ربٌّ غفورٌ فَرَطاتِ من يشكره، والجملةُ استئنافٌ للتصريح بموجب الشكر.

ومعنى «طيِّبةٌ»: زكيَّةٌ مستلذَّة. يروى أنَّها كانت لطيفةَ الهواء، حسنةَ التربة، لا تَحدث فيها عاهةٌ، ولا يكونُ فيها هامَّةٌ، حتى إنَّ الغريبَ إذا حلَّها وفي ثيابه قملٌ أو براغيثُ ماتت.

وقيل: المراد بطيبها صِحَّةُ هوائها، وعذوبةُ مائها، ووفورُ نزهتها، وأنَّه ليس فيها حَرٌّ يؤذي في الصيف، ولا بردٌ يؤذي في الشتاء.

وقرأ رويسٌ بنصب «بلدة» وجميع ما بعدها[٢]، وذلك على المدح والوصفية. وقال أحمد بن يحيى: بتقدير: اسكنوا بلدةً طيبة، واعبدوا ربًّا غفوراً.

ومن الاتفاقات النادرة أنَّ لفظ «بلدة طيبة» بحساب الجُمَّل، واعتبارِ هاء التأنيث بأربع مئة ـ كما ذهب إليه كثيرٌ من الأدباء ـ وقعَ تاريخاً لفتح القسطنطينية[٣]، وكانت نزهةَ بلاد الروم.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن الشكر كما يقتضيه المقام، ويدخل فيه الإعراضُ عن الإيمان؛ لأنَّه أعظم الكفر والكفران.

وقال أبو حيَّان: أعرضوا عمَّا جاء به إليهم أنبياؤهم الثلاثة عشر، حيث دعوهم إلى الله تعالى، وذكَّروهم نعمَه سبحانه، فكذَّبوهم وقالوا: ما نعرفُ لله نعمةً[٤].

---

(١) مجمع البيان ٢٢/ ١٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٠.
(٣) أي: سنة (٨٥٧هـ).
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٠.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: الصعب، من عَرِمَ الرجل، مثلَّث الراء، فهو عارمٌ وعَرِم، إذا شَرِس خلقُه وصَعُبَ، وفي معناه ما جاء في روايةٍ عن ابن عباس من تفسيره بالشديد.

وإضافةُ السيل إليه من إضافة الموصوف إلى الصفة، ومن أبَاها من النحاة قال: التقدير: سيلَ الأمرِ العَرِمِ.

وقيل: «العرم»: المطر الشديد، والإضافة على ظاهرها.

وقيل: هو اسمٌ للجُرَذ الذي نَقَبَ عليهم سدَّهم، فصار سبباً لتسلُّطِ السيل عليهم، وهو الفأر الأعمى الذي يقال له: الخُلْد، وإضافة السيل إليه لأدنى ملابسة.

وقال ابن جبير: العَرِم: المُسَنَّاة، بلسان الحبشة. وقال الأخفش: هو بهذا المعنى عربيّ.

وقال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة: العرم في لغة اليمن جمع عَرِمة، وهي كلُّ ما بُنِيَ أو سُنِّم ليُمسِكَ الماء، ويقال لذلك البناء بلغة الحجاز المسنَّاة، والإضافةُ كما في سابقه، والملابسة في هذا أقوى.

وعن ابن عباس وقتادة والضحاك ومقاتل: هو اسمُ الوادي الذي كان يأتي السيلُ منه وبُنِيَ السدُّ فيه، ووجه إضافة السيل إليه ظاهرٌ.

وقرأ عروة[١] بن الورد ـ فيما حكى ابن خالويه ـ: «العَرْم» بإسكان الراء تخفيفاً[٢]، كقولهم في الكَبِد: الكَبْد.

رويَ أنَّ بلقيس لمَّا ملكت اقتتلَ قومُها على ماء واديهم، فتركت ملكها وسكنت قصرها، وراودوها على أن ترجع، فأبت، فقالوا: لتَرْجِعِنَّ أو لنقتلنَّك، فقالت لهم: أنتم لا عقولَ لكم ولا تطيعوني، فقالوا: نطيعك، فرجعت إلى واديهم، وكانوا إذا مُطِروا أتاهم السيلُ من مسيرة ثلاثة أيام، فأمَرت فسدَّ ما بين الجبلين

(١) في الأصل و(م): عزرة، والمثبت من المصادر على ما يأتي.
(٢) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١.

بمُسَنَّاةٍ، بالصخر والقار، وحبست الماء من وراء السَّدِّ، وجَعلت له أبواباً بعضُها فوق بعض، وبَنَتْ من دونه بركةً منها اثنا عشر مخرجاً على عدَةِ أنهارِهم، وكان الماء يخرجُ لهم بالسويَّة إلى أنْ كان من شأنها مع سليمان عليه السلام ما كان.

وقيل: الذي بنى لهم السدَّ هو حِمْيَر أبو القبائل اليمنيَّة.

وقيل: بناه لقمان الأكبر ابن عاد، ورصفَ أحجاره بالرصاص والحديد، وكان فرسخاً في فرسخ.

ولم يزالوا في أرغدِ عيشٍ، وأخصب أرض، حتى إنَّ المرأةَ تخرجُ وعلى رأسها المِكْتَلُ، فتعمل بيديها وتسير، فيمتلئ المكتلُ ممَّا يتساقط من أشجار بساتينهم، إلى أن أعرضوا عن الشكر، وكذَّبوا الأنبياءَ عليهم السلام، فسلَّط الله تعالى على سدِّهم الخُلْدَ، توالد[١] فيه فخرقه، فأرسلَ سبحانه سيلاً عظيماً، فحمل السدَّ وذهب بالجنان وكثيرٍ من الناس.

وقيل: إنَّه أذهب السدَّ، فاختلَّ أمرُ قسمة الماء ووصوله إلى جنانهم، فيبست وهلكت.

وكان ذلك السيلُ ـ على ما قيل ـ في ملك ذي الأذعار بن حسان في الفترة بين نبيِّنا ﷺ وعيسى عليه السلام.

وفيه بحثٌ على تقدير القول بأنَّ الإعراض كان عمَّا جاءهم به أنبياؤهم[٢] الثلاثة عشر، كما ستعلمه إنْ شاء الله تعالى عن قريب.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي: أذهبنا جنَّتيهم، وآتينا بدلها ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ أي: ثمرٍ ﴿خَمْطٍ﴾ أي: حامضٍ أو مرٍّ.

وعن ابن عباس: الخمط: الأراك. ويقال لثمره مطلقاً أو إذا اسودَّ وبلغ: البربر[٣].

---

(١) في (م): فوالد.

(٢) في (م): جاءهم من أنبيائهم.

(٣) كذا في الأصل و(م). ولعل الصواب: البرير، وهو ثمر الأراك عامة. وقيل: البرير الأول، أي: أول ما يظهر من ثمر الأراك، وهو حلو. انظر تاج العروس (برر).

وقيل: شجر الغضا، ولا أعلم هل له ثمرٌ أم لا؟

وقال أبو عبيدة: كلُّ شجرةٍ مُرَّةٍ ذات شوك[(١)].

وقال ابن الأعرابيّ: هو ثمرُ شجرةٍ على صورة الخشخاش، لا يُنتفع به، وتسمَّى تلك الشجرة ـ على ما قيل ـ بـ: فَسْوة الضَّبُع.

وهو على الأول: صفةٌ لـ «أُكُل»، والأمر في ذلك ظاهر.

وعلى الأخير: عطفُ بيانٍ على مذهب الكوفيين المجوِّزين له في النكرات. وقيل: بدل.

وعلى ما بينهما: الكلام على حذف مضاف، أي: أكلِ أكلِ خمطٍ، وذلك المضاف بدلٌ من «أكلٍ»، أو عطف بيان عليه، ولمَّا حذف أقيم المضاف إليه مقامَه، وأعرب بإعرابه، كما في «البحر»[(٢)].

وقيل: هو بتقدير: أكل ذي خمط.

وقيل: هو بدل، من باب: يعجبني القمر فلكُه. وهو كما ترى.

ومُنع جَعْلُه وصفاً من غير ضربٍ من التأويل؛ لأنَّ الثمر لا يوصفُ بالشجر، لا لأنَّ الوصفَ بالأسماء الجامدة لا يطَّرد، وإن جاء منه شيء، نحو: مررتُ بقاعٍ عَرْفجٍ[(٣)]. فتأمَّل.

وقرأ أبو عمرو: «أكلِ خمط» بالإضافة[(٤)]، وهو من باب: ثوبِ خزٍّ. وقرأ ابن كثير: «أكْلٍ» بسكون الكاف والتنوين[(٥)].

---

(١) انظر مجاز القرآن ٢/ ١٤٧.

(٢) ٧/ ٢٧١.

(٣) القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام. والعرفج: نبات، وقول العرب: مررت بقاع عرفج كله، معناه: مررت بقاعٍ خشنٍ كلّه، وإنما قدّر بخشن لأن العرفج شاكٌّ، والشوك خشن المسّ. ينظر شرح المشكل من شعر المتنبي ص٤٦.

(٤) التيسير ص١٨٠، والنشر ٢/ ٣٥٠، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٥) وهي قراءة نافع أيضاً. انظر التيسير ص٨٣، ١٨٠، والنشر ٢/ ٢١٦.

﴿وَأَثْلٍ﴾ ضربٌ من الطَّرفاء، على ما قاله أبو حنيفة اللغويُّ في كتاب «النبات» له. وعن ابن عباس تفسيره بالطرفاء. ونقل الطبرسيُّ قولاً أنَّه السَّمُرُ[1].

وهو عطفٌ على «أكل»، ولم يجوّز الزمخشريُّ[2] عطفه على «خَمْطٍ» معلِّلاً بأنَّ الأثل لا ثمرَ له. والأطباء كداود الأنطاكيّ[3] وغيره يذْكرون له ثمراً كالحِمَّص، ينكسرُ عن حبٍّ صغار، ملتصق بعضه ببعض، ويفسِّرون الأثل بالعظيم من الطَّرفاء. ويقولون في الطَّرفاء: هو برِّيٌّ لا ثمر له، وبستانيٌّ له ثمر. لكن قال الخفاجيُّ[4]: لا يعتمد على الكتب الطبية في مثل ذلك. وفي القلب منه شيءٌ، ونحن قد حقَّقنا أنَّ للأثل ثمراً، وكذا لصنف من الطرفاء، إلَّا أنَّ ثمرهما لا يؤكل، ولعلَّ مراد النافي نفي ثمرةٍ تؤكَل، والأطباء يعدُّون ما تخرجه الشجر غيرَ الورق ونحوه ثمرةً، أُكلت أم لا.

ومثله في العطف على ذلك[5] قولُه تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

وحكى الفضيلُ[6] بن إبراهيم أنَّه قُرئ: «أثلاً وشيئاً» بالنصب عطفاً على «جنَّتين».

والسدر: شجر النَّبِق. وقال الأزهريُّ: السدر سدران؛ سدرٌ لا ينتفعُ به ولا يَصلحُ ورقهُ للغَسول، وله ثمرةٌ عفصةٌ لا تؤكل، وهو الذي يسمى الضَّال، وسدرٌ ينبتُ على الماء، وثمره النَّبِق، وورقه غَسولٌ يشبه شجر العنَّاب[7]. انتهى.

---

(١) السمرة، بضمِّ الميم: من شجر الطلح، والجمع سَمُرٌ وسَمُرات. اللسان (سمر).

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٣) في كتابه تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب ١/ ٣٧.

(٤) في حاشيته ٧/ ١٩٨.

(٥) بعدها في (م): في.

(٦) كذا في الأصل و(م). والذي في القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١- وعنه نقل المصنف -: الفضل. ولعله الفضل بن إبراهيم النحوي الكوفي، روى القراءة عن الكسائي، وروى القراءة عنه عبيد الله بن محمد بن أحمد الأملي. غاية النهاية ٢/ ٨.

(٧) تهذيب اللغة ١٢/ ٣٥٣.

واختلف في المراد هنا، فقيل: الثاني، ووصف بـ «قليل» لفظاً ومعنى، أو معنى فقط، وذلك إذا كان نعتاً لـ «شيء» المبيَّن به؛ لأنَّ ثمره ممَّا يطيبُ أكله، فجُعل قليلاً فيما بُدِّلوا به؛ لأنَّه لو كثر كان نعمةً لا نقمة، وإنَّما أوتوه تذكيراً للنِّعم الزائلة؛ لتكون حسرةً عليهم.

وقيل: المراد به الأول حتماً؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام، ولم يذكر نكتة الوصف بالقليل عليه.

ويمكن أن يقال في الوصف به مطلقاً: إنَّ السدر له شأنٌ عند العرب، ولذا نصَّ الله تعالى على وجوده في الجنة، والبستانيُّ منه لا يخفى نفعه، والبريُّ يَستظِلُّ به أبناء السبيل، ويأنسون به، ولهم فيه منافع أخرى، ويُستَأنسُ لعلوِّ شأنه بما أخرجه أبو داود في «سننه»، والضياء في «المختارة»، عن عبد الله بن حُبْشِيٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع سِدْرَةً صوَّبَ اللهُ رأسَه في النار»[1]. وبما أخرجه البيهقيُّ عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه في مرض موته: «اخرج يا عليّ، فقل عن الله لا عن رسول الله: لعنَ الله من يقطعُ السدر»[2].

وفي معناهما عدَّةُ أخبار لها عدَّة طرق، والكلُّ فيما أرى محمولٌ على ما إذا كان القطعُ عبثاً، ولو كان السِّدر في ملكه.

وقيل في ذلك: مخصوصٌ بسدر المدينة، وإنَّما نهي عن قطعه ليكون أنساً وظلّاً لمن يهاجر إليها.

وقيل: بسدر الفلاة ليستظلَّ به أبناء السبيل والحيوان.

---

(١) سنن أبي داود (٥٢٣٩)، والمختارة للضياء ٩/ ٢٣٧، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٨٥٥٧).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ١٤٠-١٤١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٥٧). وهو حديث مرسل، وأبو جعفر هو الباقر محمد بن علي بن الحسين.

وقيل: بسدر مكّة؛ لأنها حرمٌ[1].

وقيل: بما إذا كان في ملك الغير، وكان القطع بغير حقٍّ.

والكلُّ كما ترى، وأيّاً ما كان، ففي التنصيص عليه ما يشيرُ إلى أنَّ له شأناً، فلمَّا ذَكر سبحانه ما آل إليه حالُ أولئك المعرضين، وما بُدِّلوا بجنَّتيهم، أتى جلَّ وعلا بما يتضمَّن الإيذانَ بحقارة ما عُوِّضوا به، وهو ممَّا له شأنٌ عند العرب، أعني السدر وقلَّته، والإيذانُ بالقلَّة ظاهرٌ، وأما الإيذانُ بالحقارة فمن ذكر «شيءٍ»، والعدولِ عن أن يقال: وسدر قليل، مع أنَّه الأخصرُ الأوفق بما قبلَه، ففيه إشارةٌ إلى غاية انعكاس الحال، حيث أومأ الكلام إلى أنَّهم لم يؤتوا بعد إذهاب جنتيهم شيئاً ممَّا لجنسه شأنٌ عند العرب إلَّا السدر، وما أوتوه من هذا الجنس حقيرٌ قليل.

وتسمية البدل جنَّتين مع أنَّه ما سمعت؛ للمشاكلة والتهكُّم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من التبديل، وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى بعد رتبته في الفظاعة، أو إلى مصدر قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾، كما قيل في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] ومحلُّه على الأول النصبُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، وعلى الثاني النصبُ على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ للفعل المذكور.

والتقديم للتعظيم والتهويل، وقيل: للتخصيص، أي: ذلك التبديل جزيناهم لا غيره، أو ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاءً آخر.

﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدَّها.

وقيل: بسبب كفرهم بالرسل الثلاثة عشر الذين بعثوا إليهم.

واستشكل هذا مع القول بأنَّ السيل العرم كان زمنَ الفترة؛ بأنَّ الجمهورَ قالوا:

---

(١) وجاء في حديث عبد الله بن حُبْشِيّ السالف قريباً في رواية الطبراني في الأوسط (٢٤٤١) زيادة: «يعني من سدر الحرم».
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٨٤: ورجاله ثقات.

لا نبيَّ بين نبيِّنا وعيسى عليهما الصلاة والسلام، ومن الناس من قال: بينهما صلى الله تعالى عليهما وسلم أربعةُ أنبياء؛ ثلاثةٌ من بني إسرائيل، وواحدٌ من العرب، وهو خالد العبسيّ، وهو قد بُعِثَ لقومه، وبنو إسرائيل لم يبعثوا للعرب.

وأجيب بأنَّ ما كان زمنَ الفترة هو السيلُ العرم لا غير، والرسلُ الثلاثة عشر هم جملةُ من كان في قومهم من سبأ بن يشجب إلى أن أهلكهم الله تعالى أجمعين، فتأمَّل ولا تغفُل.

﴿وَهَلْ نُجَزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ أي: ما نجازي مثلَ هذا الجزاء الشديد المستأصِل إلَّا المبالغَ في الكفران، أو الكفر، فلا يتوجَّه على الحصر إشكالُ أنَّ المؤمنَ قد يعاقب في العاجل.

وفي «الكشف»: لا يَرِدُ[1] أنَّ المؤمنَ أيضاً يعاقبُ، فإنَّه ليس بعقابٍ على الحقيقة، بل تمحيصٌ، ولأنَّه أريدَ المعاقبة بجميع ما يفعله من السوء، ولا كذلك للمؤمن، ولا مانع من أن يكونَ الجزاءُ عامّاً في كلِّ مُكَافَأةٍ، وأريد به المعاقبةُ مطلقاً من غير تقييدٍ بما سبق لقرينة: «جزيناهم بما كفروا»؛ لتعيين المعاقبة فيه، بل قال الزمخشريُّ[2]: هو الوجهُ الصحيح، وذلك لعدم الإضمار، ولأنَّ التذييل هكذا آكدُ وأسدُّ موقعاً. ولا يتوجَّه الإشكالُ لما في «الكشف».

وقرأ الجمهورُ: «يُجَازَى» بضمِّ الياء وفتح الزاي مبنيّاً للمفعول، «الكفورُ» بالرفع على النيابة عن الفاعل[3].

وقرئ: «يُجازِي» بضمِّ الياء وكسر الزاي مبنيّاً للفاعل، وهو ضميرُه تعالى وحده، «الكفورَ» بالنصب على المفعوليَّة[4].

---

(١) في (م): لا يراد.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٥.

(٣) هي قراءة نافع، وشعبة عن عاصم، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر. انظر التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٩ ونقل عن أبي حاتم نسبتها لقتادة وابن وثاب والنخعي.

وقرأ مسلم بن جندب: «يُجْزَى» مبنيّاً للمفعول، «الكفورُ» بالرفع على النيابة[١].

والمُجَازاة ـ على ما سمعتَ عن الزمخشريّ ـ المكافأة، لكن قال الخفاجيُّ: لم تَرِد في القرآن إلَّا مع العقاب، بخلاف الجزاء، فإنَّه عامٌّ، وقد يخصُّ بالخير[٢].

وعن أبي إسحاق[٣]: تقول: جزيتُ الرجل في الخير، وجازيته في الشرِّ. وفي معناه قول مجاهد: يقال في العقوبة: يُجَازَى، وفي المثوبة: يُجْزَى.

وقال بعضُ الأجلَّة: ينبغي أن يكون أبو إسحاق قد أراد أنَّك اذا أرسلتَ الفعلين ولم تُعدِّهما إلى المفعول الثاني كانا كذلك، وأمَّا إذا ذكرته، فيستعملُ كلٌّ منهما في الخير والشر.

ويَرِدُ على ما ذكر «جزيناهم بما كفروا»، وكذا: «وهل يُجْزَى» في قراءة مسلم، إذ الجزاء في ذلك مستعملٌ في الشرِّ مع عدم ذكر المفعول الثاني، وقوله:

جَزى بنوه أبَا الغيلان عن كبرٍ   وحسنِ فعلٍ كما يُجْزَى سِنِمَّارُ[٤]

وقال الراغب: يقال: جزيته وجازيته، ولم يجئ في القرآن إلَّا جزى دون جازى، وذلك لأنَّ المجازاةَ المكافأة، وهي مقابلةُ نعمةٍ بنعمة هي كفؤها، ونعمةُ الله عزَّ وجلَّ تتعالى عن ذلك، ولهذا لا يستعملُ لفظ المكافأة فيه سبحانه وتعالى[٥].

وفيه غفلةٌ عمَّا هنا، إلَّا أنْ يقال: أراد أنَّه لم يجئ في القرآن «جازى» فيما هو نعمةٌ مسنداً إليه تعالى، فإنَّه لم يخطر لي مجيءُ ذلك فيه، والله تعالى أعلم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢١، والمحتسب ٢/ ١٨٨، والبحر المحيط ٧/ ٢٧١.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩٨.
(٣) هو الزجاج، وكلامه في المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.
(٤) نسبه الأصفهاني في الأغاني ٢/ ١٤٥ لسليط بن سعد. وانظر خزانة الأدب ١/ ٢٩٣. وهو من شواهد ابن عقيل، الشاهد ١٥٣.
(٥) المفردات (جزى).

ويحسنُ عندي قول أبي حيان: أكثرُ ما يُستعمل الجزاء في الخير والمجازاةُ في الشرّ، لكن في تقييدهما قد يقع كلٌّ منهما موقعَ الآخر(١).

وفي قوله سبحانه: «جزيناهم بما كفروا» دون: جازيناهم بما كفروا، على الوجه الثاني في اسم الإشارة ما يحكي تمتُّعَ القوم بما يسرُّ، ووقوعَهم بعده فيما يسيء ويضرّ. ويمكن أن تكونَ نكتةُ التعبير بـ «جزى» الأكثر استعمالاً في الخير، ويجوز أنْ يكون التعبيرُ بذاك أولاً، وبـ «نجازي» ثانياً؛ ليكون كلٌّ أوفقَ بعلَّته، وهذا جارٍ على كلا الوجهين في الإشارة، فتدبَّر جدّاً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ إلى آخره، عطفٌ بمجموعه على مجموع ما قبله عطفَ القصَّة على القصَّة، وهو حكايةٌ لما أوتوا من النعم في مسايرهم ومتاجرهم، وما فعلُوا بها من الكفران، وما حاقَ بهم بسبب ذلك، وما قبلُ كان حكايةً لما أوتوا من النعم في مساكنهم ومحلِّ إقامتِهم، وما فَعلوا بها، وما فُعِلَ بهم.

والمراد بالقرى التي بورك فيها قرى الشام، وذلك بكثرة أشجارها وأثمارها، والتوسعة على أهلها.

وعن ابن عباس: هي قرى بيت المقدس.

وعن مجاهد: هي السَّراوية(٢).

وعن وهب: قرى صنعاء.

وقال ابن جبير: قرى مأرب.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٧١.

(٢) كذا في الأصل و(م). ووقع في مطبوع تفسير مجاهد ٢/ ٢٢٥: الشراة، وفي البحر المحيط ٧/ ٢٧١: السرواي، وفي تفسير الطبري ١٩/ ٢٦٢: السروات. ولعلها الصواب، فالطبري رحمه الله أوردها في سياق تفسيره «قرى ظاهرة» بـ: قرى عربية. والسراة كما في القاموس (سرى): أعلى كل شيء، وسراة مضافة إلى بَجيلة، وزهران، وعنز، والحجر.... مواضع معروفة.

والمعوَّل عليه الأول، حتى قال ابن عطية: إنَّ إجماعَ المفسِّرين عليه[(١)].

ومعنى «ظاهرة» على ما روي عن قتادة: متواصلة يقرب بعضها من بعض، بحيث يظهر لمن في بعضها ما في مقابلته من الأخرى، وهذا يقتضي القرب الشديد، لكن سيأتي قريباً إنْ شاء الله تعالى ما قيل في مقدار ما بين كلِّ قريتين.

وقال المبرِّد: «ظاهرة»: مرتفعة، أي: على الآكام والظِّراب، وهي أشرفُ القرى.

وقيل: «ظاهرة»: معروفة، يقال: هذا أمرٌ ظاهر، أي: معروف، وتعرف القرية لحسنها، ورعايةِ أهلها المارينَ عليها.

وقيل: «ظاهرة»: موضوعة على الطرق؛ ليسهل سيرُ السابلة فيها.

وقال ابن عطية: الذي يظهر لي أنَّ معنى «ظاهرة»: خارجة عن المدن، فهي عبارةٌ عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن.

كأنَّه فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن.

وظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر البلد الفلاني، أي: خارجاً عنه، ومنه قول الشاعر:

فلو شهدتني من قريشٍ عصابةٌ قريشِ البطاح لا قريشِ الظواهِر[(٢)]

يعني الخارجين[(٣)] من بطحاء مكة.

ويقال للساكنين خارج البلد: أهل الضواحي، وأهل البوادي أيضاً.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا نسبةَ بعضها إلى بعضٍ على مقدارٍ معيَّنٍ من السير، قيل: مَنْ سار من قريةٍ صباحاً وصلَ إلى أخرى وقتَ الظهيرة والقيلولة،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٥.

(٢) هو لذكوان مولى عمر بن الخطاب كما في الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٧١، وتاريخ دمشق ٧/ ٣٢٢، والوافي بالوفيات ١٤/ ٤١.

(٣) في (م): يعني أن الخارجين، والمثبت من الأصل والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦.

ومَنْ سارَ بعد الظهر وصل إلى أخرى عند الغروب، فلا يحتاج لحمل زادٍ، ولا مبيتٍ في أرضٍ خاليةٍ، ولا يخافُ من عدوٍّ ونحوه.

وقيل: كان بين كلِّ قريتين ميل.

وقال الضحاك: مقادير المراحل، كانت القرى على مقاديرها، وهذا هو الأوفق بمعنى «ظاهرة» على ما سمعت عن قتادة، وكذا بقوله سبحانه: ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ فإنَّه مؤذِنٌ بشدَّة القرب، حتى كأنَّهم لم يخرجوا من نفس القرى.

والظاهر أن «سيروا» أمرٌ منه عزَّ وجلَّ على لسان نبيٍّ أو نحوه، وهو بتقدير القول، أي: قلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ أي: متى شئتم من ليل ونهار ﴿ءَامِنِينَ ۝١٨﴾ من كلِّ ما تكرهونَه لا يختلفُ الأمنُ فيها باختلاف الأوقات.

وقدَّم الليالي لأنها مظنَّةُ الخوف من مغتال، وإن قيل: الليل أخفى للويل[1]، أو لأنَّها سابقةٌ على الأيام.

أو قلنا: سيروا فيها آمنين، وإن تطاولت مدَّةُ سفركم وامتدَّت لياليَ وأياماً كثيرة؛ قال قتادة: كانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان، ولو وَجَدَ الرجلُ قاتل أبيه لم يَهِجْهُ.

أو: سيروا فيها لياليكم وأيَّامكم، أي: مدَّة أعماركم، لا تلقونَ فيها إلَّا الأمن، وقُدِّمت الليالي لسبقها.

وأيَّاما كان، فقد علم فائدةُ ذكر الليالي والأيام، وإن كان السيرُ لا يخلو عنهما.

وجُوِّزَ أن لا يكون هناك قولٌ حقيقةً، وإنَّما نُزِّل تمكينُهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه منزلةَ القول لهم وأمرِهم بذلك، والأمر على الوجهين للإباحة.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ لمَّا طالت بهم مدَّة النعمة بَطروا، وملُّوا، وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، كما فعل بنو إسرائيل، وقالوا: لو كانت متاجرنا أبعدَ كان ما نجلبه منها أشهى وأغلى، فطلبوا تبديلَ اتصال العمران، وفصلَ

---

(١) مجمع الأمثال ٢/ ١٩٣.

المفاوز والقفار، وفي ضمن ذلك إظهارُ القادرين منهم على قطعها بركوب الرواحل وتزوُّد الأزواد الفخرَ والكِبْرَ على الفقراء العاجزين عن ذلك، فعجَّل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب القرى المتوسِّطة، وجعلها بَلْقَعاً لا يُسمع فيها داعٍ ولا مجيب.

والظاهر أنَّهم قالوا ذلك بلسان القال، وجَوَّزَ الإمام أن يكونوا قالوا: «باعِد» بلسان الحال، أي: فلمَّا كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم[(١)].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام: «بَعِّد» بتشديد العين فعل طلب[(٢)].

وابن عباس وابن الحنفيَّة وعمرو بن فائد[(٣)]: «ربُّنا» رفعاً، «بَعَّدَ» بالتشديد فعلاً ماضياً[(٤)].

وابن عباس وابن الحنفيَّة أيضاً وأبو رجاء والحسن ويعقوب وزيد بن عليّ وأبو صالح وابن أبي ليلى والكلبيّ ومحمد بن عليّ وسلام وأبو حيوة: «ربُّنا» رفعاً، و«باعد» طلباً من المفاعلة[(٥)].

وابن الحنفية أيضاً وسعيد بن أبي الحسن ـ أخو الحسن ـ وسفيان بن حسين وابن السميفع: «ربَّنا» بالنصب «بَعُدَ» بضمِّ العين فعلاً ماضياً، «بينَ» بالنصب، إلَّا سعيداً منهم فإنَّه يضمُّ النون، ويجعلُ «بينُ» فاعلاً[(٦)]، ومَن نَصَبَ فالفاعل عنده ضميرٌ يعود على «السير».

---

(١) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٣) في الأصل و(م): قائد، والمثبت هو الصواب.

(٤) المحتسب ٢/ ١٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٢. وزاد ابن جني وابن عطية نسبتها لابن يعمر.

(٥) كذا ذكر المصنف، والصواب أن «باعد» على هذه القراءة فعلٌ ماضٍ مفتوح العين. كما في النشر ٢/ ٣٥٠ عن يعقوب. ومثله في المحتسب ٢/ ١٨٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر ٧/ ٢٧٢-٢٧٣، كما أن المصنف نفسه سيذكر قريباً أن مَن رفع «ربنا» لا يكون الفعل عنده إلا ماضياً.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٣.

ومن نصبَ «ربَّنا» جعله منادى، فإنْ جاء بعده طلبٌ كان ذلك أشَراً وبَطَراً، وفاعِلْ بمعنى فَعِّلْ، وإن جاءَ فعلاً ماضياً كان ذلك شكوى من مسافة ما بين قراهم مع قصرها؛ لتجاوزهم في الترفُّه والتنعُّم، أو شكوى ممَّا حلَّ بهم من بُعْدِ الأسفار التي طلبوها بعدَ وقوعها، أو دعاءً بلفظ الخبر.

ومَن رفع «ربُّنا» فلا يكون الفعل عنده إلَّا ماضياً، والجملة خبريَّةٌ متضمِّنةٌ للشكوى، على ما قيل.

ونصبُ «بين» بعد كلِّ فعلٍ متعدٍّ في إحدى القراءات ماضياً كان أو طلباً ـ عند أبي حيان[١] ـ على أنَّه مفعولٌ به، وأيَّدَ ذلك بقراءة الرفع، أو على الظرفيَّة، والفعلُ منزَّل منزلةَ اللازم، أو متعدٍّ مفعولُه محذوف، أي: السير، وهو أسهلُ من إخراج الظرف الغيرِ المتصرِّف عن ظرفيته.

وقرئ: «بوعد» مبنيًّا للمفعول[٢]. وقرأ ابن يعمر: «سفرنا» بالإفراد[٣].

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرَّضوها للسخط والعذاب، حين بطروا النعمة وغمطوها.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع: أحدوثة، وهي ما يُتَحدَّث به على سبيل التلهِّي والاستغراب، لا جمع حديث على خلاف القياس.

وجعلهم نفسَ الأحاديث؛ إمَّا على المبالغة، أو تقدير المضاف، أي: جعلناهم بحيث[٤] يتحدَّثُ الناس بهم، متعجِّبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم.

وقيل: المراد: لم يبق منهم إلَّا الحديثُ عنهم، ولو بقيَ منهم طائفةٌ لم يكونوا أحاديث.

---

(١) في البحر ٧/ ٢٧٣.
(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٨١ عن أبي معاذ.
(٣) القراءات الشاذة ص١٢١، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٣.
(٤) في (م): بحديث.

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرَّقناهم كلَّ تفريق، على أن الممزَّق مصدر، أو: كلَّ مطَّرح ومكان تفريق، على أنَّه اسم مكان.

وفي التعبير بالتمزيق الخاصِّ بتفريق المتَّصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالةِ على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزَّقناهم تمزيقاً لا غايةَ وراءه، بحيث يُضْرَب مثلاً في كلِّ فُرقةٍ ليس بعدها وصال.

وعن ابن سلام أنَّ المراد: جعلناهم تراباً تذروه الرياح. وهو أوفق بالتمزيق، إلَّا أنَّ جميعَ أجلَّة المفسرين على خلافه، وأنَّ المراد بتمزيقهم تفريقهم بالتباعد. وقد تقدَّم لك غيرَ بعيد حديثُ كيفية تفرُّقهم في جواب رسول الله ﷺ لفروة بن مسيك.

وفي «الكشاف»[1]: لحقَ غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان.

وفي «التحرير»: وقع منهم قضاعة بمكَّة، وأسد بالبحرين، وخزاعة بتهامة.

وظاهرُ الآية أنَّ ذلك كان بعد إرسال السيل العرم، وفي «البحر»: أنَّ في الحديث أنَّ سبأ أبو عشرة قبائل، فلمَّا جاء السيل على مأرب تيامن منها ستةُ قبائل، وتشاءمت أربعة[2].

وزعم بعضُهم أنَّ تفرُّقَهم كان قبيل مجيء السيل.

قال عبد الملك في «شرح قصيدة ابن عبدون»: إنَّ أرض سبأ من اليمن كانت العمارةُ فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكبِ المُجِدِّ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعضٍ مسيرةَ أربعة أشهر، فمزِّقوا كلَّ ممزَّقٍ، وكان أول من خرج من اليمن في أول الأمر عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا[3]، وكان سبب خروجه أنّه كانت له زوجةٌ كاهنةٌ يقال لها: طريفة الخير، وكانت رأت في منامها أنَّ سحابةً غشيت

(١) ٣/ ٢٨٦.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٧٣. وهو حديث فروة بن مسيك السالف.
(٣) ولقِّب عمرو بذلك لأنه كان يلبسُ كلَّ يوم حلتين ويمزقهما بالعشي، يكره العود فيهما، ويأنف أن يلبسهما غيره. القاموس (مزق).

أرضَهم، فأرعدت وأبرقت، ثمَّ صَعَقت فأحرقت كلَّ ما وقعت عليه، ففزعت طريفةُ لذلك فزعاً شديداً، وأتت الملك عَمْراً وهي تقول: ما رأيت كاليوم أزال عني النوم، رأيتُ غيماً أرعدَ وأبرقَ، وزمجرَ وأصعقَ، فما وقع على شيءٍ إلَّا أحرقَ. فلما رأى ما داخَلَها من الفزع سكَّنها، ثمَّ إن عَمْراً دخل على حديقةٍ له ومعه جاريتان من جواريه، فبلغ ذلك طريفة، فخرجت إليه، وخرجَ معها وصيفٌ لها اسمه سنان، فلمَّا برزت من بيتها عرض لها ثلاث مَنَاجد منتصباتٍ على أرجلهنَّ، واضعاتٍ أيديهنَّ على أعينهنَّ - وهي دوابُّ تشبه اليرابيع - فقعدت إلى الأرض واضعةً يديها على عينيها، وقالت لوصيفها: إذا ذهبت هذه المناجد فأخبرني، فلمَّا ذهبت أخبرها فانطلقت مسرعةً، فلمَّا عارضها الخليج الذي في حديقة عمرو وَثَبَتْ من الماء سلحفاةٌ فوقعت على الطريق على ظهرها، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع، وتستعينُ بذنبها، فتحثو التراب على بطنها من جنباته، وتقذفُ بالبول على بطنها قذفاً، فلمَّا رأتها طريفة جلست إلى الأرض، فلمَّا عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو، وذلك حين انتصف النهار، في ساعة شديدٍ حرُّها، فإذا الشجرُ يتكافأ[1] من غير ريح، فلمَّا رآها استحيى منها، وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية، ثم قال لها: يا طريفة، فكهنت وقالت: والنورِ والظلماءِ والأرضِ والسماءِ إنَّ الشجر لهالكٌ، وليعودنَّ الماء كما كان في الزمن السالك. قال عمرو: من أخبركِ بهذا؟ قالت: أخبرتني المناجد بسنين شدائد، يقطع فيها الولد الوالد. قال: ما تقولين؟ قالت: أقول قولَ الندمان لهيفاً، لقد رأيتُ سلحفاة تجرفُ الترابَ جرفاً، وتقذفُ بالبول قذفاً، فدخلْتُ الحديقةَ، فإذا الشجرُ من غير ريحٍ يتكفَّأ. قال: ما ترين في ذلك؟ قالت: هي داهيةٌ دهياء من أمورٍ جسيمةٍ ومصايب عظيمة. قال: وما هو، ويلك؟ قالت: أجل، وإنَّ فيه الويل، وما لك فيه من نيل، وإنَّ الويلَ فيما يجيء به السيل. فألقي عمرو عن فراشه وقال: ما هذا يا طريفة؟ قالت: خطبٌ جليلٌ، وحزنٌ طويلٌ، وخلف قليل. قال:

---

(١) كذا في الأصل و(م). وفي مروج الذهب ٣/ ٣٨٠: يتكفَّأ. ولعلها الصواب كما ستأتي قريباً.

وما علامةُ ما تذكرين؟ قالت: اذهب إلى السدِّ، فإذا رأيت جُرَذاً يُكثر بيديه في السدِّ الحفرَ، ويقلبُ برجليه من أَجَلِّ الصخر[1]، فاعلم أنَّ الغمر غمر، وأنَّه قد وقع الأمر. قال: وما الذي تذكرين؟ قالت: وعدٌ من الله تعالى نزل، وباطلٌ بطلَ، ونكالٌ بنا نكلَ، فبغيرك يا عمرو يكون الثَّكَل. فانطلق عمرو، فإذا الجُرَذ يقلبُ برجليه صخرةً ما يقلُّها خمسونَ رجلاً، فرجع وهو يقول:

أبصرتُ أمراً عادني منه أَلَمْ
وهاجَ لي من هوله بَرْحُ السَّقَمْ
من جُرَذٍ كفحل خنزير الأَجَمْ
أو كبش صرم من أفاويق الغَنَمْ
يسحبُ قطراً من جلاميد العَرَمْ
له مخاليبٌ وأنيابٌ قضمْ
ما فاته سحلاً من الصخر قَصَمْ

فقالت طريفة: وإنَّ من علامة ذلك الذي ذكرتُه لك أنْ تجلسَ فتأمر بزجاجةٍ، فتوضع بين يديك، فإنَّ الريحَ يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادي وحَزْنِه، وقد علمتَ أنَّ الجنان مظلَّلة لا يدخلها شمسٌ ولا ريح، فأمر عمرو بزجاجةٍ فوضعت بين يديه، ولم تمكث إلَّا قليلاً حتى امتلأت من التراب، فأخبرها بذلك، وقال لها: متى يكون ذلك الخراب الذي يحدث في السَّدِّ؟ قالت له: فيما بيني وبينك سبع سنين. قال: ففي أيِّها يكون؟ قالت: لا يعلم بذلك إلَّا الله تعالى، ولو علمه أحد لعلمتُه، وإنَّه لا تأتي عليّ ليلةٌ فيما بيني وبين السبع سنين إلَّا ظننتُ هلاكه في غدها أو في مسائها.

ثم رأى عمرو في منامه سيلَ العرم. وقيل له: إنَّ آية ذلك أنْ ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل، فنظر إليها فوجدَ الحصباء قد ظهرت فيها، فعلم أنَّه واقعٌ،

---

(١) في مروج الذهب ٣/ ٣٨٢: من الجبل الصخر.

وأنَّ بلادهم ستخرب، فكتم ذلك، وأجمع على بيع كلِّ شيءٍ له بأرض مأرب، وأن يخرج منها هو وولده، ثمَّ خشي أن تنكرَ الناسُ عليه ذلك، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبَّى عليه، وأن يفعل ذلك به في الملأ من الناس، وإذا لطمه، يرفع هو يده ويلطمه، ثمَّ صنع عمرٌو طعاماً، وبعث إلى أهل مأرب أنَّ عَمْراً قد صنع طعاماً يوم مجد وذكر، فاحضُروا طعامه، فلمَّا جلس الناس للطعام، جلس عنده ابنُه الذي أمرَه بما قد أمره، فجعل يأمره فيتأبَّى عليه، فرفع عمرو يده فلطمَه، فلطمه ابنُه، وكان اسمه: مالكاً، فصاح عمرو: واذلَّاه، يوم فخر عمرو وبهجته صبيٌّ يضربُ وجهَه، وحلفَ ليقتلنَّه، فلم يزالوا يرغبون إليه حتى ترك، وقال: والله لا أقيم بموضعٍ صُنع فيه بي هذا، ولأبيعنَّ أموالي حتى لا يرثَ بعدي منها شيئاً، فقال الناس: بعضهم لبعض اغتنموا غيظَ عمرو واشتروا منه أموالَه قبل أنْ يرضى، فابتاعَ الناسُ منه كلَّ ماله بأرض مأرب، وفشا بعضُ حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم، فقام ناسٌ من الأزد، فباعوا أموالهم، فلما أكثروا البيعَ استنكر الناس ذلك، فأمسكوا عن الشراء، فلما اجتمعت إلى عمرو أموالُهُ أخبرَ الناس بشأن السيل وخرج، فخرج لخروجه منها بشرٌ كثيرٌ، فنزلوا أرضَ عكٍّ، فحاربتهم عكٌّ، فارتحلوا عن بلادهم، ثم اصطلحوا، وبقوا بها حتى مات عمرو، وتفرقوا في البلاد، فمنهم من سار إلى الشام، وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر، ومنهم من سار إلى يثرب، وهم أبناء قيلة الأوس والخزرج، وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، وسارت أزد السراة إلى السراة، وأزد عُمان إلى عُمان، وسار مالك بن فهم إلى العراق، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيِّئ، فنزلت أجأ وسلمى، ونزلت أبناء ربيعة بن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة، وسُمُّوا خزاعة؛ لانخزاعهم من إخوانهم، ثم أرسل الله تعالى على السدِّ السيلَ فهدمه، وفي ذلك يقول ميمون بن قيس الأعشى[1]:

وفي ذاك للمؤتسي أسوةٌ ومأربُ عفَّا[2] عليها العرمْ

---

(١) ديوانه ص٩٣.

(٢) في الديوان: قفَّى.

رخامٌ بَنَتْهُ لهم حميرٌ إذا جاء موّاره[١] لم يَرِمْ
فأروى الزروع وأعنابها على سَعَةٍ ماؤهم إذ قُسِمْ
فصاروا أيادي ما يقدرو ن منه على شرب طفل فُطِمْ[٢]

وذكر الميداني عن الكلبيِّ عن أبي صالح أنَّ طريفةَ الكاهنة قد رأت في كهانتها أنَّ سدَّ مأرب سيخرب، وأنَّه سيأتي سيلُ العرم فيخرب الجنتين، فباع عمرو بن عامر أموالَه، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكَّة، فأقاموا بها وبما حولها، فأصابتهم الحُمَّى، وكانوا ببلدٍ لا يدرون فيه ما الحمَّى، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابَهم، فقالت لهم: قد أصابني الذي تَشْكُون، وهو مفرِّقٌ بيننا. قالوا: فماذا تأمرين؟ قالت: من كان منكم ذا همٍّ بعيدٍ وجملٍ شديد ومزادٍ جديد، فليلحق بقصر عُمان المشيد. فكانت أزد عمان، ثم قالت: من كان منكم ذا جَلَدٍ وقسر، وصبر على أزمات الدهر، فعليه بالأراك من بطن مر، فكانت خزاعة. ثم قالت: من كان منكم يريدُ الراسيات في الوحل، المطعمات في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل. فكانت الأوس والخزرج. ثم قالت: من كان منكم يريدُ الخمر والخمير، والملك والتأسير[٣]، ويلبس الديباج والحرير، فليلحق ببصرى وغوير. وهما من أرض الشام، فكان الذين سكنوها آل جفنة من غسان، ثم قالت: من كان منكم يريدُ الثياب الرقاق، والخيل العتاق، وكنوز الأرزاق، والدم المهراق، فليلحق بأرض العراق، فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش، ومن كان بالحيرة، وآل محرق[٤].

والحقُّ أنَّ تمزيقَهم وتفريقَهم في البلاد كان بعد إرسال السيل، نعم لا يبعدُ خروجُ بعضهم قبيله حين استشعروا وقوعَه، وفي المثل: ذهبوا أيدي سبا، ويقال:

---

(١) في الديوان: جاءه ماؤهم.

(٢) الشطر الأول كما جاءت روايته في الديوان:

فطاروا سراعاً وما يقدرو

(٣) في مجمع الأمثال للميداني: والتأمير.

(٤) مجمع الأمثال ١/ ٢٧٦-٢٧٧.

تفرَّقوا أيدي سبا، ويروى: أيادي، وهو بمعنى الأولاد؛ لأنَّهم أعضاد الرجل لتَقَوِّيه بهم.

وفي «المفصَّل» أنَّ الأيديَ الأنفسُ كنايةً أو مجازاً. قال في «الكشف»: وهو حسنٌ، ونصبُه على الحاليَّة بتقدير: مثل؛ لاقتضاء المعنى إيَّاه، مع عدم تعرُّفه بالإضافة.

وقيل: إنَّه بمعنى البلاد أو الطرق من قولهم: خذ يد البحر، أي: طريقه وجانبه، أي: تفرَّقوا في طرقٍ شتى.

والظاهر أنَّه على هذا منصوبٌ على الظرفيَّة بدون تقدير «في» كما أشار إليه الفاضلُ اليمني، وربَّما يُظَنّ أن الأيدي أو الأيادي بمعنى النعم، وليس كذلك، ويقال في الشخص إذا كان مشتَّت الهمِّ موزَّعَ الخاطرِ: كان أياديَ سبا، وعليه قول كُثَيِّر عزَّة:

أيادي سبا يا عزُّ ما كنت بعدكم فلم يَحْلُ بالعينين بعدك منظر[1]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من قصتهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: شأنه الصبر على الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاقِّ الطاعات، وقيل: شأنُه الصبر على النعم، بأن لا يبطرَ ولا يطغى. وليس بذاك.

﴿شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ شأنه الشكر على النعم. وتخصيص هؤلاء بذلك؛ لأنهم المنتفعون بها.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقَّق عليهم ظنَّه، أو وجد ظنَّه صادقاً.

والظاهر أن ضمير «عليهم» عائد على سبأ، ومنشأ ظنِّه رؤيةُ انهماكِهم في الشهوات.

وقيل: هو لبني آدم، ومنشأ ظنِّه أنَّه شاهدَ أباهم آدم عليه السلام، وهو قد أصغى إلى وسوسته، فقاس الفرع على الأصل، والولد على الوالد.

وقيل: إنَّه أدرك ما رُكِّب فيهم من الشهوة والغضب، وهما منشئان للشرور.

(١) ديوان كثير ص١٥٠.

وقيل: إنَّ ذاك كان ناشئاً من سماع قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يوم قال سبحانه لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ويمكن أن يكون منشأ ذلك ما هو عليه من السوء كما قيل:

إذا ساء فعلُ المرء ساءتْ ظنونُه وصدَّق ما يعتادُهُ من توهُّم[1]

وجُوِّز أن يكون كلُّ ما ذكر منشأً لظنِّه في سبأ.

والكلامُ على الوجه الأول في الضمير ـ على ما قال الطيبيُّ ـ تتمَّةٌ لسابقه، إمَّا حالاً أو عطفاً، وعلى الثاني هو كالتذييل تأكيداً له.

وقرأ البصريون[2]: «صَدَق» بالتخفيف، فنصب «ظنَّه» على إسقاط حرف الجرِّ، والأصل: صدق في ظنِّه، أي: وجدَ ظنَّه مصيباً في الواقع، فصدق حينئذٍ بمعنى أصاب مجازاً.

وقيل: هو منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ لفعل مقدَّر، أي: يظنُّ ظنَّه، ك: فَعَلْتَه جهدَك، أي: تَجْهَدُ جهدَك، والجملة في موقع الحال، و«صدق» مفسَّرٌ بما مرَّ.

ويجوزُ أن يكون منصوباً على أنَّه مفعولٌ به، والفعلُ متعدٍّ إليه بنفسه؛ لأنَّ الصدقَ أصلُه في الأقوال، والقولُ ممَّا يتعدَّى إلى المفعول به بنفسه، والمعنى: حقَّق ظنَّه، كما في الحديث: «صَدَقَ وَعْدَه ونَصَرَ عَبْدَه»[3]، وقولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقرأ زيد بن علي وجعفرُ بن محمد ﷺ، والزهريُّ، وأبو الجهجاه[4] الأعرابيُّ من

---

(١) البيت للمتنبي وهو في ديوانه ٤/ ٢٦٤.

(٢) أبو عمرو ويعقوب. وقرأ بها أيضاً نافع وأبو جعفر المدنيان، وابن عامر الشامي، وابن كثير المكي. انظر التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠.

(٣) ورد هذا اللفظ في عدة أحاديث، منها حديث ابن عمر عند النسائي ٨/ ٤٢، وابن ماجه (٢٦٢٨). وحديث عبد الله بن عمرو عند أبي داود (٤٥٤٧).

(٤) كذا ذكر المصنف تبعاً لأبي حيان في البحر ٧/ ٢٧٣. ووقع في إعراب القرآن ٣/ ٣٤٣، =

فصحاء العرب، وبلال بن أبي برزة بنصب «إبليس» ورفع «ظنه»، كذا في البحر[(١)].

والظاهر أنَّ ذلك مع قراءة «صدَّق» بالتشديد، أي: وجده ظنُّه صادقاً، لكن ذكر ابنُ جنِّي[(٢)] أنَّ الزهريَّ كان يقرأ ذلك مع تخفيف «صدق» أي: قال له الصِّدقَ حين خَيَّلَ له إغواءَهم[(٣)].

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «إبليسُ ظنُّه» برفعهما[(٤)]، بجعل الثاني بدل اشتمال، وأبهم الزمخشريُّ القارئَ بذلك فقال: قُرئ بالتخفيف ورَفْعِهما، على معنى: صَدَق عليهم ظنُّ إبليس، ولو قرئ بالتشديد مع رفعهما لكان على المبالغة في «صدق»، كقوله:

فدت نفسي وما ملكت يميني فوارسَ صدَّقت فيهم ظنوني[(٥)]

وهو ظاهرٌ في أنَّه لم يقرأ أحدٌ بذلك، والله تعالى أعلم.

وعلى جميع القراءات «عليهم» متعلِّقٌ بالفعل السابق، وليس متعلِّقاً بالظنِّ على شيء منها.

﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: سبأ، وقيل: بنو آدم ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ أي: إلَّا فريقاً هم المؤمنون لم يتَّبعوه، على أن «مِن» بيانيَّة، وتقليلهم إمَّا لقلَّتهم في حدِّ ذاتهم، أو لقلَّتهم بالإضافة إلى الكفار، وهذا متعيِّنٌ على القول برجوع الضمير إلى بني آدم.

وكأنِّي بك تختارُ كون القلَّة في حدِّ ذاتهم على القول برجوع الضمير إلى سبأ؛ لعدم شيوع كثرة المؤمنين في حدِّ ذاتهم منهم.

= ومعاني القرآن ٥/ ٤١٣ ـ كلاهما للنحاس ـ والقراءات الشاذة ص١٢١، والمحتسب ٢/ ١٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٣: أبو الهجهاج.

(١) ٧/ ٢٧٣.

(٢) في المحتسب ٢/ ١٩١.

(٣) في الأصل: إغوائهم، وفي (م): إغواؤهم، والمثبت هو الصواب، وهو منصوب على المفعولية، وفاعل «خيَّل» ضمير يعود على الظن. حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٠.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٨٦، والبيت لأبي الغول الطُّهوي كما في حماسة أبي تمام ١/ ٣٨ (بشرح المرزوقي)، وكتاب الحيوان للجاحظ ٣/ ١٠٦، والأمالي ١/ ٢٦٠، وخزانة الأدب ٦/ ٤٣٤.

أو: إلَّا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتَّبعوه، وهم المخلصون، ف «من» تبعيضيَّة، والمراد مطلقُ الاتِّباع الذي هو أعمُّ من الكفر.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: تسلُّطٍ واستيلاء بالوسوسة والاستغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ العلل، و«مَنْ» موصولة، وجَعْلُها استفهاميَّةً بعيدٌ. والعلمُ المستقبل المعلَّل ليس هو العلم الأزليَّ القائم بالذات المقدَّسة، بل تعلُّقه بالمعلوم في عالم الشهادة الذي يترتَّب عليه الجزاء بالثواب والعقاب، وهو مضمَّنٌ معنى التميُّز لمكان «من»، أي: ما كان له عليهم تسلُّطٌ لأمرٍ من الأمور، إلَّا لتعلُّقِ علمنا بـ «من يؤمنُ بالآخرة» متميِّزاً «ممَّن هو منها في شك» تعلُّقاً حاليًّا يترتَّبُ عليه الجزاء، وإلى هذا يشيرُ كلام كثير من أئمَّة التفسير.

وقيل: المعنى: لنجعل المؤمن متميِّزاً من غيره في الخارج، فيتميَّز عند الناس.

وقيل: المراد من وقوع العلم في المستقبل وقوعُ المعلوم؛ لأنَّه لازمُه، فكأنَّه قيل: ما كان ذلك لأمرٍ من الأمور إلَّا ليؤمنَ مَن قُدِّرَ إيمانُه، ويضلَّ مَن قُدِّرَ ضلاله، وعَدَل عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة؛ لما فيه من جُعْلِ المعلوم عينَ العلم.

وقيل: المراد بالعلم الجزاء، فكأنَّه قيل: [النجزيَ][1] على الإيمان وضدِّه.

وقيل: العلم على ظاهره، إلَّا أنَّ المستقبل بمعنى الماضي، وعِلْمُ الله تعالى الأزليُّ بأهل الشكِّ يستدعي تسلُّطَ الشيطان عليهم.

وقيل: المراد: لنعامِل معاملة من كأنَّه لا يعلم ذلك، وإنَّما يُعمل ليَعلم.

وقيل: المراد: ليعلم أولياؤنا وحزبنا ذلك.

ولا يخفى عليك ما في بعض هذه الأقوال.

وكان الظاهر: إلَّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممَّن لا يؤمن بها، وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل لنكتةٍ، وهي أنَّه قوبل الإيمانُ بالشكِّ؛ ليؤذنَ بأنَّ أدنى مراتب الكفر مهلكة، وأوردَ المضارعَ في الجملة الأولى إشارةً إلى أنَّ المعتبر في الإيمان

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٠، والكلام فيه بنحوه.

الخاتمة، ولأنَّه يحصلُ بنظرٍ تدريجيٍّ متجدِّدٍ، وأتى بالثانية اسميَّةً إشارةً إلى أنَّ المعتبرَ الدوامُ والثبات على الشكِّ إلى الموت. ونَوَّنَ شكّاً للتقليل، وأتى بـ «في» إشارةً إلى أنَّ قليلَه كأنَّه محيطٌ بصاحبه، وعدَّاه بـ «من» دون «في» وقدَّمه؛ لأنَّه إنَّما يضرُّ الشكُّ الناشئُ منها، وأنَّه يكفي شكٌّ مّا فيما يتعلَّقُ بها.

وقرأ الزهريُّ: «ليُعْلَم» بضمِّ الياء وفتح اللام مبنيّاً للمفعول(١).

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ أي: وكيلٌ قائمٌ على أحواله وشؤونه، وهو إمَّا مبالغةٌ في حافظ، وإمَّا بمعنى مُحافظ، كجليس ومجالس، وخليط ومخالط، ورضيع ومراضع، إلى غير ذلك.

﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين الذين ضُرِب لهم المثلُ بقصَّة سبأ المعروفة عندهم بالنقل في أخبارهم وأشعارهم، تنبيهاً على بطلانِ ما هم عليه وتبكيتاً لهم: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعمتموهم آلهةً، كذا قدَّره الجمهور، على أنَّ الضميرَ مفعولٌ أول، وآلهة مفعولٌ ثانٍ، وحذف الأول تخفيفاً؛ لأنَّ الصلةَ والموصول بمنزلة اسم واحد، فهناك طولٌ يُطْلَب تخفيفه، والثاني لأنَّ صفته - أعني قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ - سدَّت مسدَّه، فلا يلزم إجحافٌ بحذفهما معاً.

ولا يجوزُ أنْ يكون «من دون الله» هو المفعول الثاني، إذ لا يتمُّ به مع الضمير الكلام، ولا يلتئم النظام، فأيُّ معنًى معتبرٍ لهم من دون الله، على أنَّ في جواز حذف أحد مفعولي هذا الباب اختصاراً خلافاً، ومن أجازه قال: هو قليلٌ في كلامهم.

وكذا لا يجوز أنْ يكون «لا يملكون»؛ لأنَّ ما زعموه ليس كونهم غير مالكين، بل خلافه، وليس ذلك أيضاً بزعمٍ بالمعنى الشائع - لو سُلِّم أنَّه صَدَر منهم - بل حقٌّ.

وقال ابنُ هشام: الأولَى أن يقدَّرَ: زعمتم أنهم آلهةٌ؛ لأنَّ الغالب على «زعم» أن لا يقع على المفعولين الصريحين، بل على ما يسدُّ مسدَّهما من «أنَّ»

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٤.

وصلتها[١]، ولم يقع في التنزيل إلَّا كذلك[٢]، أي: فالأنسبُ أن يوافق المقدَّرُ المصرَّحَ به في التنزيل.

ورُجِّحَ تقديرُ الجمهور بأنَّه أبعدُ عن لزوم الإجحاف.

والأمر للتوبيخ والتعجيز، أي: ادعوهم فيما يهمُّكم من دفع ضرٍّ أو جلب نفعٍ، لعلَّهم يستجيبون لكم، إن صحَّ دعواكم. روي أنَّ ذلك نزلَ عند الجوع الذي أصابَ قريشاً.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ في موقع الجواب، ولم يمهلهم ليجيبوا إشعاراً بتعيُّنه، فإنَّه لا يقبل المكابرة.

وجُوِّزَ تقديرُ: ثم أجب عنهم قائلاً: «لا يملكون» إلخ، وهو متضمِّنٌ بيان حال الآلهة في الواقع، وأنَّهم إذا لم يملكوا مقدار ذرَّةٍ، أي: من خيرٍ وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، كيف يكونون آلهةً تُعبد؟!

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أمرٍ من الأمور، وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفاً، فيراد بهما جميعُ الموجودات، وهذا كما يقال: المهاجرون والأنصار، ويراد جميع الصحابة ﷺ، فلا يتوهَّمُ أنَّهم يملكون في غيرهما.

ويجوز أن يقال: إنَّ ذِكْرَهما لأنَّ بعضَ آلهة المخاطَبين سماويَّةٌ كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضيَّةٌ كالأصنام، فالمراد نفي قدرة السماويِّ منهم على أمرٍ سماويّ، والأرضيّ على أمرٍ أرضيّ، ويُعْلَم نفيُ قدرته على غيره بالطريق الأولى، أو لأنَّ الأسباب القريبةَ للخير والشَّرِّ سماويَّةٌ وأرضيَّةٌ، فالمراد نفي قدرتهم بشيءٍ من الأسباب القريبة، فكيف بغيرها؟!

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لآلهتهم ﴿فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركة؛ لا خلقاً ولا ملكاً

(١) في (م): وصلتهما.
(٢) مغني اللبيب ص٧٧٤.

ولا تصرُّفاً. ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ أي: لله عزَّ وجلَّ ﴿مِنْهُم﴾ أي: من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: مُعِيْنٍ يعينُه سبحانه في تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: لا توجدُ رأساً، كما في قوله:

علـى لاحـبٍ لا يُـهْـتَـدى بـمـنـاره[1]

لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإنَّما عُلِّقَ النفيُ بنفعها دون وقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، على ما اختاره الزمخشريُّ[2]. و«مَنْ» عبارةٌ عن الشافع، واللام الداخلة عليه للاختصاص، مثلها في: الكرم لزيد، ولام «له» صلةُ «أَذِنَ»، والمراد نفي شفاعة آلهتهم لهم، لكن ذكر ذلك على وجهٍ عامٍّ؛ ليكون طريقاً برهانيّاً، أي: لا تنفعُ الشفاعةُ في حالٍ من الأحوال، أو كائنةً لمن كانت إلَّا كائنةً لشافعٍ أُذِنَ له فيها من النبيين والملائكة ونحوِهم من المستأهلين لمقام الشفاعة.

ومن البيِّنِ أنَّهم لا يؤذنُ لهم في الشفاعة للكفار، فقد قال الله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨]، والشفاعةُ لهم بمعزلٍ عن الصواب، وعدمُ الإذن للأصنام أبينُ وأبين، فتبيَّنَ حرمانُ هؤلاء الكفرة منها بالكليَّة.

أو «مَن» عبارةٌ عن المشفوع له، واللام الداخلة عليه للتعليل، ولام «له» صلةُ «أَذِنَ»، أي: لا تنفعُ الشفاعة إلَّا كائنةً لمشفوعٍ أذن له، أي: لشفيعه، على الإضمار؛ لأنَّ المشفوع لم يصدر عنه فعلٌ حتى يؤذَنَ له فيه أنْ يشفعه.

واختار الزمخشريُّ أنَّ لام «له» للتعليل، أي: إلَّا لمن وقع الإذنُ للشفيع لأجله، ووجهُ على ما في «الكشف» حصولُ الإشارة إلى الشافع والمشفوع؛ لأنَّ

---

(١) هو صدر بيت لامرئ القيس، كما في ديوانه ص٦٦، وعجزه:

إذا سـافـه الـعَـوْدُ الـنـبـاطـيُّ جـرجـرا

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٨٧.

المأذونَ لأجله المشفوع، والمأذون الشافع، ولأنَّ الغرضَ بيانُ محلِّ النفع ـ وهو المشفوع ـ كان التصريحُ بذكره أهمّ.

ولا يخفى أنَّ الوجهَ السابق ظاهرُ التكلُّف، فيه الإضمارُ الذي لا يقتضيه المقام، وحاصل المعنى على هذا: لا تنفعُ الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها إلَّا كائنةً لمن وقعَ الإذنُ للشفيع لأجله وفي شأنه من المستحقِّين للشفاعة، وأمَّا من عداهم من غير المستحقِّين لها، فلا تنفعهم أصلاً، وإن فُرِضَ وقوعُها من الشفعاء، إذ لم يؤذن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم، ويثبتُ من هذا حرمانُ هؤلاء الكفرة من شفاعة الشفعاء المستأهلين للشفاعة بعبارة النَّصِّ، وعن[1] شفاعة الأصنام بدلالته، إذ حين حُرِموها من جهة القادرين عليها في الجملة، فلَأَنْ يحرمُوها من جهة العجزة عنها بالكلِّيَّة أولى.

وذهب أبو حيَّان[2] إلى أنَّ الاستثناء من أعمِّ الذوات، أي: لا تنفع الشفاعة لأحدٍ إلَّا لمن.. إلخ، واستَظْهَر احتمالَ أن تكون «مَن» عبارةً عن المشفوع له.

واللام ـ نظراً إلى الظاهر ـ متعلِّقةٌ بـ «الشفاعة»، وجَوَّزَ أبو البقاء[3] تعلُّقها بـ «تنفع». وتُعقِّبَ[4] بأنَّه لا يتعدَّى إلَّا بنفسه. وقال أبو حيان فيه: إنَّ المفعولَ متأخِّرٌ، فدخول اللام قليل[5].

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: «أُذِنَ» مبنيًّا للمفعول[6]، فـ «له» قائمٌ مقام فاعله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ صيغة التفعيل للسلب، كما في: قرَّدت البعير، إذا أزلتَ قُرَاده، ومنه التمريض، فالتفزيعُ إزالةُ الفزع، وهو ـ على ما قال الراغب ـ انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسان من الشيء المخيف[7].

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٧/ ١٣١: ومن.

(٢) في البحر ٧/ ٢٧٦.

(٣) في الإملاء ٢/ ١٩٧.

(٤) في (م): وتعقبه.

(٥) البحر ٧/ ٢٧٦.

(٦) التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥٠. وهي قراءة خلف من العشرة.

(٧) المفردات (فزع).

و«حتى» للغاية، واختلفوا في المغيَّا، إذ لم يكن قبلها ما يصلحُ أن يكون مغيّاً بحسب الظاهر، واختلفوا لذلك في المراد بالآية اختلافاً كثيراً؛ فقيل: هو ما يفهم من حديث الشفاعة، ويشيرُ إليه، وذلك أنَّ قوله تعالى: (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) يؤذنُ بشفعاء ومشفوعٍ لهم، وأنَّ هناك استئذاناً في الشفاعة، ضرورةَ أنَّ وقوعَ الإذن يستدعي سابقية ذلك، وهو مستدعٍ للترقُّب والانتظار للجواب، وحيث إنَّه كلامٌ صادرٌ عن مقام العظمة والكبرياء ـ كيف وقد تقدَّمه ما تقدَّمه ـ يدلُّ على كون الكلِّ في ذلك الموقف خلفَ سُرَادق العظمة، ملقًى عليهم رداءُ الهيبة، وما بعدَ حرفِ الغاية أيضاً شديدُ الدلالة على ذلك، فكأنَّه قيل: يقف[1] الشفعاء والمشفوع لهم في ذلك الموقف الذي يتشبَّثُ فيه المستشفعون بأذيال الرجاء من المستشفَع بهم، ويقوم فيه المستشفَع به على قدم الالتجاءِ إلى الله جلَّ جلاله، فيطرقُ باب الشفاعة بالاستئذان فيها، ويبقون جميعاً منتظرين وجِلين فزعين، لا يدرون ما يُوَقِّع لهم الملكُ الأعظم جلَّ وعلا على رقعة سؤالهم، وماذا يصحُّ لهم بعد عرض حالهم، حتى إذا أزيلَ الفزعُ عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم بظهور تباشير حسن التوقيع، وسطوعِ أنوار الإجابة والارتضاء من آفاق رحمة الملك الرفيع، قالوا ـ أي: قال بعضهم لبعض، والظاهر أنَّ البعضَ القائلَ المشفوعُ لهم، وإن شئت فأَعِدِ الضمير إليهم من أوّل الأمر، إذ هم الأشدُّ احتياجاً إلى الإذن، والأعظمُ اهتماماً بأمره ـ: ماذا قال ربكم في شأن الإذن بالشفاعة، قالوا ـ أي: الشفعاء، فإنَّهم المباشرون للاستئذان بالذات، المتوسِّطون لأولئك السائلين بالشفاعة عنده عزَّ وجل ـ: قال ربُّنا القولَ الحقَّ، أي: الواقعَ بحسب ما تقتضيه الحكمة، وهو الإذنُ بالشفاعة لمن ارتضى.

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ من تتمَّة كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بعظمة جناب العزَّة جلَّ جلاله، وقصورِ شأن كلٍّ من سواه، أي: هو جلَّ شأنُه المتفرِّدُ بالعلوِّ والكبرياء، لا يشاركُه في ذلك أحدٌ من خلقه، وليس لكلٍّ منهم ـ كائناً من كان ـ أن يتكلَّم إلَّا من بعد إذنه جلَّ وعلا.

(١) في (م): تقف.

وفيه من تواضعهم بعد ترفيع قَدْرِهم بالإذن لهم بالشفاعة ما فيه، وفيه أيضاً نوعٌ من الحمد، كما لا يخفى.

وهذه الجملة المغيَّاة بما ذُكر لا يبعد أن تكون جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: كيف يكونُ الإذن في ذلك الموقف للمستأذنين، وكيف الحالُ فيه للشافعين والمستشفعين؟ فقيل: يقفون منتظرين وَجِلِين فزعين، حتى إذا.. إلخ.

والآيات دالَّةٌ على أنَّ المشفوعَ لهم هم المؤمنون، وأمَّا الكفرةُ فهم عن موقف الاستشفاع بمعزلٍ، وعن التفزيع عن قلوبهم بألفِ ألفِ مَنْزِلٍ.

وجَعَلَ بعضُهم ـ على هذا الوجه من كون المغيَّا ما ذُكر ـ ضميرَ «قلوبهم» للملائكة، وخصَّ الشفعاء بهم، وضميرَ «قالوا» الأوَّل لهم أيضاً، وضميرَ «قالوا» الثاني للملائكة الذين فوقَهم، وهم الذين يبلِّغون ذلك إليهم، وقال: إنَّ فزعَهم إمَّا لما يُقْرَنُ به الإذنُ من الأمر الهائل، أو لغشيةٍ تصيبهم عند سماع كلام الله جلَّ شأنه، أو من ملاحظةِ وقوع التقصير في تعيين المشفوع لهم بناءً على ورود الإذن بالشفاعة إجمالاً. وهو كما ترى.

وقال الزجَّاج: تفسيرُ هذا أنَّ جبرائيلَ عليه السلام لمَّا نزل إلى النبيِّ ﷺ بالوحي ظنَّت الملائكةُ ـ عليهم السلام ـ أنَّه نزلَ بشيءٍ من أمر الساعة، ففزعت لذلك، فلما انكشفَ عنها الفزع، «قالوا: ماذا قال ربكم» سألَتْ: لأيِّ شيءٍ نزل جبريل عليه السلام، «قالوا: الحقَّ»(١). اهـ. رويَ ذلك عن قتادة ومقاتل وابن السائب، بيد أنَّهم قالوا: إنَّ الملائكة صعقوا لذلك، فجعلَ جبريلُ عليه السلام يمرُّ بكلِّ سماء، ويكشفُ عنهم الفزعَ، ويخبرهم أنَّه الوحي.

ولم يبيِّن الزجَّاجُ وجهَ اتِّصال الآية بما قبلها، ولا بَحَث عن الغاية بشيء.

وقد ذكر نحوَ ذلك الإمام الرازيُّ(٢)، ثم قال في ذلك: إنَّ «حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٣.

(٢) في تفسيره ٢٥/ ٢٥٥.

بقوله تعالى: «قل»؛ لأنَّه تنْبيهٌ[(١)] بالوحي، فلمَّا قال سبحانه: «قل» فَزع مَن في السماوات. وهو لعمري من العجب العجاب.

وقال الفاضل الطيبيُّ بعد[(٢)] نقله ذلك التفسير: وعليه أكثرُ كلام المفسِّرين، ويعضدُه ما روينا عن البخاريِّ والترمذيِّ وابنِ ماجه عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا قَضَى الله تعالى الأمرَ في السماء ضربت الملائكةُ أجنحتَها خُضْعاناً لقوله تعالى، كأنَّه سلسلةٌ على صفوان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي[(٣)] قال الحق، وهو العليُّ الكبير»[(٤)].

وعن أبي داود: عن ابن مسعود قال: «إذا تكلَّم الله تعالى بالوحي سَمِعَ أهلُ السماء صلصلةً كجَرِّ السِّلسلة على الصَّفا، فيُصْعَقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيَهم جبريلُ، فإذا أتاهم جبريلُ عليه السلام، فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربُّكم[(٥)]؟ فيقول: الحقَّ [فينادون: الحقَّ] الحقَّ»[(٦)].

ثم ذكر في أمر الغاية واتِّصال الآية بما قبلها على ذلك أنَّه يُستَخرج معنى المغيَّا من المفهوم، وذلك أنَّ المشركين لمَّا ادَّعوا شفاعةَ الآلهة والملائكة، وأجيبوا بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والملائكة، وسمَّيتموهم باسمه تعالى، والتجِئوا إليهم، فإنَّهم لا يملكونَ مثقال ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، ولا تنفع الشفاعةُ من هؤلاء إلَّا للملائكة، لكن مع الإذنِ والفزعِ العظيم، وهم لا يشفعون إلَّا للمَرْضيِّين، فعبَّر عن الملائكة عليهم السلام بقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ الآية كناية، كأنَّه قيل: لا تنفعُ الشفاعةُ إلَّا لمن هذا شأنُه ودأبُه، وأنَّه لا يثبتُ عند صدمةٍ من صدمات هذا

---

(١) في (م): تبينه. وفي مطبوع تفسير الرازي: بينه.
(٢) بعدها في الأصل: أن. وهي مقحمة.
(٣) في صحيح البخاري ـ والحديث مسوق بلفظه ـ: للذي.
(٤) صحيح البخاري (٤٧٠١) و(٤٨٠٠)، وسنن الترمذي (٣٢٢٣)، وسنن ابن ماجه (١٩٤).
(٥) كذا في الأصل و(م). وفي سنن أبي داود: ربك.
(٦) سنن أبي داود (٤٧٣٨)، وما بين حاصرتين منه.

الكتاب المبين، وعند سماع كلام الحقِّ، يعني الذين إذا نزل عليهم الوحيُ يفزعون ويصعقون، حتى إذا أتاهم جبريل عليه السلام فُزِّعَ عن قلوبهم، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقول: الحقَّ. انتهى.

ولا يخفَى على من له أدنى تمييزٍ حالُه، وأنَّه ممَّا لا ينبغي أن يعوَّل عليه.

وقولُ ابن عطيَّة: إنَّ تأويل الآية بالملائكة إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل، أو الأمر يأمر الله تعالى به، فتسمع كجرِّ سلسلة الحديد على الحديد[١]، فتفزع تعظيماً وهيبةً، وقيل: خوفَ قيام الساعة، هو الصحيحُ، وهو الذي تضافرت[٢] به الأحاديث = ناشئٌ من حرمان ابن[٣] عطيَّةٍ سلامة الذوق، وتدقيق النظر.

والتفسيرُ الذي ذكرناه أوَّلاً بمراحل في الحسن عمَّا ذكر عن أكثر المفسرين، وما سمعتَ من الرواية لا ينافيه، إذ لا دلالة فيه على أنَّه عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك في معرض تفسيرِ الآية، ولا تنافي بين التفزيعين، وكأنَّ الأكثر من المفسرين نظروا إلى ظاهر طباق اللفظ مع الحديث، فنزَّلوا الآيةَ على ذلك، فوقعوا فيما وقعوا فيه، وإن كثروا وجلُّوا. والقائلُ بما سبقَ نظر إلى طباق المقام، وحقَّق عدمَ المنافاة، وظهرَ له حالُ ما قالوه فعدلَ عنه.

وأخرج ابنُ جرير وابن أبي حاتم عن الضحَّاك أنَّه قال في الآية: زعمَ ابنُ مسعود أنَّ الملائكة المعقِّبات الذين يختلفونَ إلى أهل الارض يكتبونَ أعمالهم إذا أرسلهم الربُّ تبارك وتعالى فانحدروا، سُمِعَ لهم صوتٌ شديدٌ، فيحسب الذين أسفلَ منهم من الملائكة أنَّه من أمر الساعة، فيخرُّون سجَّداً، وهذا كلما مرُّوا عليهم، فيفعلون [ذلك] من خوف ربِّهم تبارك وتعالى[٤].

وابنُ مسعود عندي أجلُّ من أن يحملَ الآية على هذا، فالظاهر أنَّه لا يصحُّ

---

(١) في المحرر الوجيز لابن عطية: على صفوان.

(٢) في(م) والمحرر الوجيز ٤/ ٤١٨: تظاهرت.

(٣) قوله: ابن، ساقط من (م).

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧. وأخرجه الطبري ١٩/ ٢٨١. وما بين حاصرتين منهما. والضحاك لم يدرك ابن مسعود.

عنه. ومثل هذا ما زعمَه بعضهم أنَّ ذاك فزعُ ملائكةِ أدنى السماوات عند نزول المدبِّرات إلى الأرض.

وقيل: إنَّ «حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: «زعمتم» أي: زعمتم الكفر إلى غاية التفزيع، ثمَّ تركتم ما زعمتم وقلتم: قال الحقَّ، وإليه يشيرُ ما أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنَّه قال في الآية: حتى اذا فَزِّعَ الشيطان عن قلوبهم، ففارقهم وأمانيَّهم وما كان يضلُّهم به، «قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا الحق وهو العليُّ الكبير»، ثمَّ قال: وهذا في بني آدم ـ أي: كفارهم ـ عند الموت، أقرُّوا حين لا ينفعُهم الإقرار(١).

والظاهر أنَّ في الكلام عليه التفاتاً من الخطاب في «زعمتم» إلى الغيبة في «قلوبهم»، وأنَّ ضمير «قالوا» الأول للملائكة الموكَّلين بقبض أرواحهم، والمراد بالتفزيع عن القلوب كشفُ الغطاء وموانعِ إدراك الحقِّ عنها.

وما نُقِل عن الحسن من أنَّه قال: إنما يقال للمشركين: ماذا قال ربُّكم، أي: على لسان الأنبياء عليهم السلام، فأقرُّوا حين لا ينفع = يحتملُ أن يكون كالقول المذكور في أنَّ ذلك عند الموت، ويحتمل أن يكون قولاً بأنَّ ذلك يوم القيامة، إلَّا أنَّ في جَعْلِ «حتى» غايةً للزعم عليه غيرُ ظاهر، إذ لا يستصحبهم ذلك إلى يوم القيامة حقيقةً كما لا يخفى.

وأبعدُ من هذا القول كونُ ذلك غايةً لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾، وضمير «قلوبهم» لـ «مَن» باعتبار معناه، والتفزيعُ: كشفُ الغطاء وموانعِ إدراك الحقِّ. بل هو ممَّا لا ينبغي حملُ كلام الله تعالى عليه.

وزعم بعضُهم أنَّ المعنى: إذا دعاهم إسرافيل عليه السلام من قبورهم، قالوا مجيبين: «ماذا قال ربكم». حكاه في «البحر»، ثمَّ قال: والتفزيعُ من الفزع الذي هو الدعاء والاستصراخ، كما قال زهير:

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٨١ من قول ابن زيد.

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوالَ الرِّماح لاضعافٌ ولا عُزْلُ[1]

وأنت تعلمُ أنَّ التفزيعَ بالمعنى المذكور لا يتعدَّى بـ «عن»، وأمرُ الغاية عليه غيرُ ظاهر، وبالجملة ذلك الزعم ليس بشيء.

واختار أبو حيَّان أنَّ المغيَّا الاتِّباع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وضميرُ «قلوبهم» عائدٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ الرفع في «اتَّبعوه»، أعني: الكفار، وكذا ضمير «قالوا» الثاني، وضمير «قالوا» الأول للملائكة، وكذا ضمير «ربكم»، وجملةُ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ اعتراضية بين الغاية والمغيَّا، والتفزيعُ حالَ مفارقة الحياة أو يومَ القيامة، ويجعل[2] اتِّباعهم إبليسَ مُستَصْحباً لهم إلى ذلك اليوم مجازاً[3]. ولا يخفى بُعْدُه، والوجه عندي ما ذُكِر أوَّلاً.

و«ماذا» تحتملُ أن تكون منصوبةً بـ «قال»، أي: أيُّ شيءٍ قال ربكم؟ وتحتملُ أن تكون في موضع رفع، على أنَّ «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا» اسم موصول خبره، وجملة «قال» صلة الموصول، والعائد محذوف، أي: ما الذي قاله ربكم؟

وقرأ ابن عباس وابن مسعود وطلحة وأبو المتوكل الناجي وابن السميفع وابن عامر ويعقوب: «فَزَّع» بالتشديد والبناء للفاعل[4]، والفاعل ضميرُ الله تعالى المستتر، أي: أزالَ اللهُ تعالى الفزعَ عن قلوبهم. وقال أبو حيان: هو ضميره تعالى إن كان ضمير «قلوبهم» للملائكة، وإنْ كان للكفار، فهو ضمير مغويهم[5].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨-٢٧٩، والبيت في ديوان زهير ص١٠٢. وفيه: لا قصار. بدل: لا ضعاف.

(٢) في (م): ويجعل.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٧.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وقراءة ابن عامر ـ من السبعة ـ في التيسير ص١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، وفي الأخير قراءة يعقوب من العشرة.

(٥) البحر ٧/ ٢٧٨.

وقرأ الحسن: «فُزِعَ» بالتخفيف والبناء للمفعول[1]، فـ «عن قلوبهم» نائب الفاعل كما في قراءة الجمهور.

وقرأ هو وأبو المتوكِّل أيضاً وقتادة ومجاهد: «فَرَّغ» بالفاء والراء المهملة والغين المعجمة مشدَّداً مبنيًّا للفاعل[2]، بمعنى أزال.

وقرأ الحسن أيضاً كذلك إلَّا أنَّه خفَّف الراء[3].

وقرأ عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - والحسن أيضاً وأيوب السختيانيُّ وقتادة أيضاً وأبو مجلز: «فُرِّغَ» كذلك أيضاً إلَّا أنهم بنوه للمفعول[4].

وقرأ ابن مسعود - في رواية - وعيسى: «افرنقع» قيل: بمعنى: تفرَّق[5]. وقال الزمخشريُّ: بمعنى: انكشف[6]. والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركِّب اقمطرَّ من حروف القمط مع زيادة الراء، وفيه إيهامُ أنَّ العين والراء من حروف الزيادة، وليس كذلك.

وقرأ ابن أبي عبلة: «الحقُّ» بالرفع[7]، أي: مقولُه الحقُّ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أُمِرَ ﷺ أنْ يقول ذلك تبكيتاً للمشركين بحملهم على الإقرار بأنَّ آلهتهم لا يملكون مثقالَ ذرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، وأنَّ الرزاقَ هو الله عزَّ وجلَّ، فإنَّهم لا ينكرونَه، وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً في الجواب مخافةَ الإلزام، قيل له عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواه عندهم أيضاً.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٢٨٨، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١١، والبحر ٧/ ٢٧٨.
(٢) المحتسب ٢/ ١٩١ - دون ذكر مجاهد - والبحر المحيط ٧/ ٢٧٨، والدر المصون ٩/ ١٨٢.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وذكرها في المحتسب ٢/ ١٩٢ عن الحسن وقتادة بخلاف عنهما.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١٩، والبحر المحيط ٧/ ٢٧٨، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٢ عن ابن مسعود، وفي المحتسب ٢/ ١٩٢ عن عيسى.
(٦) الكشاف ٣/ ٢٨٨.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٧٨.

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ أي: وإنَّ أحدَ الفريقين: منَّا معشرَ الموحِّدين المتوحدَ بالرِّزق والقدرة الذاتيَّة، العابديهِ وحده عزَّ وجلَّ، ومنكم فرقة المشركين به العاجزينَ[١] في أنفسهم عن دفع أدنى ضرٍّ، وجلب أحقر نفع، وفيهم[٢] النازل إلى أسفل المراتب الإمكانية = المتصفون[٣] بأحد الأمرين من الاستقرار على الهدى والانغماس في الضلال. وهذا من الكلام المنصف؛ الذي كلُّ مَن سمعه مِن مُوالٍ أو مُنافٍ قال لمن خوطب به: قد أنصفكَ صاحبك.

وفي دَرْجِه بعد تقدمة ما قدَّم من التقرير البليغ دلالةٌ ظاهرةٌ على مَن هو مِن الفريقين على هدى، ومن هو في ضلال، ولكن التعريضَ أبلغُ من التصريح، وأوصلُ بالمجادل إلى الغرض، وأهجمُ به على الغلبة، مع قلَّة شغب الخصم، وفَلِّ شوكته بالهوينا، ونحوُه قولُ الرجل لصاحبه: قد علم الله تعالى الصادقَ منِّي ومنك، وإن أحدنا لكاذب، ومنه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب، وكان قد هجا رسول الله ﷺ قبل أن يسلم:

أتهجوه ولست له بكفءٍ فشرُّكما لخيركما الفداءُ[٤]

وقول أبي الأسود:

يقول الأرذلون بنو قشيرٍ طَوَال الدهر لا تنسى عليَّا
بنو عمِّ النبيِّ وأقربوه أَحَبُّ الناس كلِّهمُ إليَّا
فإن يكُ حبُّهمْ خيراً أُصِبْهُ ولستُ بمخطئٍ إنْ كان غيَّا[٥]

وذهب أبو عبيدة[٦] إلى أن «أو» بمعنى الواو، كما في قوله:

---

(١) قوله: العاجزين، مفعول به لقوله: المشركين.
(٢) أي: وفي العاجزين.
(٣) قوله: المتصفون، خبر قوله: وإن أحد الفريقين...
(٤) ديوان حسان ص٩، وسلف ١٨/ ٢٥٤، وفيه: أتشتمه. بدل: أتهجوه.
(٥) ديوان أبي الأسود، صنعة السكري ص ١٥٣-١٥٤، ورواية البيت الأخير فيه:
فإن يك حبهم رشداً أُصبْه وفيهم أسوة إن كان غيَّا
(٦) في مجاز القرآن ٢/ ١٤٨.

سِيَّانِ كَسْرُ رَغِيفِهِ أو كَسْرُ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِه[١]

والكلامُ من باب اللفِّ والنشر المرتَّب، بأن يكون «على هدى» راجعاً لقوله تعالى: «إِنَّا»، و«في ضلال» راجعاً لقوله سبحانه: «إِيَّاكم»، فإنَّ العقلَ يحكمُ بذلك، كما في قول امرئ القيس:

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطباً ويابساً لَدَى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي[٢]

ولا يخفى بُعْدُه.

وأيَّاما كان فليس هذا من باب التقيَّة في شيءٍ كما يزعمه بعضُ الجهلة.

والظاهر أنَّ «لعلى هدى» إلخ خبر «إنَّا أو إياكم» من غير تقدير حذف، إذ المعنى: إنَّ أحدنا لمتَّصفٌ بأحد الأمرين، كقولك: زيدٌ أو عمرو في السوق أو في البيت.

وقيل: هو خبر «إنَّا»، وخبر «إيَّاكم» محذوفٌ تقديره: لعلى هدى أو في ضلال مبين.

وقيل: هو خبر «إيَّاكم»، وخبر «إنَّا» محذوفٌ لدلالة ما ذُكر عليه، و«إيَّاكم» على تقدير «إنَّ»، ولكنَّها لمَّا حُذِفت انفصل الضمير.

وفي «البحر»[٣]: لا حاجةَ إلى تقدير الحذف في مثل هذا، وإنَّما يُحتَاجُ إليه في نحو: زيد أو عمرو قائم. فتدبَّر.

والمتبادرُ أنَّ «مبين» صفة «ضلال»، ويجوز أن يكون وصفاً له ولـ «هدى»، والوصف وكذا الضمير يلزم إفراده بعد المعطوف بـ «أو».

وأدخل «على» على «الهدى» للدلالة على استعلاء صاحبه وتمكُّنه واطِّلاعه على ما يريد، كالواقف على مكانٍ عالٍ، أو الراكب على جوادٍ يركضه حيث شاء،

(١) هو لدعبل بن علي الخزاعي. شعر دعبل ص٤٢٤.
(٢) ديوان امرئ القيس ص٣٨.
(٣) ٧/ ٢٨٠.

و«في» على «الضلال» للدلالة على انغماسِ صاحبه في ظلام، حتى كأنَّه في مهواةٍ مظلمةٍ، لا يدري أين يتوجَّه، ففي الكلام استعارةٌ مكنيَّةٌ أو تبعيَّة.

وفي قراءة أبيّ: «إنَّا أو إيَّاكم إمَّا على هدًى أو في ضلال مبين»[1].

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبَّر عن الهفوات التي لا يخلو عنها مؤمنٌ بما يعبَّر به عن العظائم، وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبَّر به عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادةً على ذلك أنَّه ذكر الإجرامَ المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالَّة على التحقُّق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدلُّ على ذلك.

وذُكر أنَّ في الآية تعريضاً، وأنه لا يضرُّ بما ذكر، وزعم بعضُهم أنَّها من باب المتاركة، وأنَّها منسوخةٌ بآية السيف.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة عند الحشر والحساب ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يقضي سبحانه بيننا ويفصلُ بعد ظهور حال كلٍّ منَّا ومنكم بالعدل، بأنْ يُدخِل المحقِّين الجنَّة والمبطلين النار.

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ القاضي في القضايا المنغلقة، فكيف بالواضحة كإبطال الشرك وإحقاق التوحيد، أو القاضي في كلِّ قضيَّةٍ خفيَّة كانت أو واضحة. والمبالغة على الأول في الكيف، وعلى الثاني في الكَمِّ، ولعلَّ الوجه الأوَّل أولى.

وفيه إشارةٌ إلى وجه تسمية فصل الخصومات فتحاً، وأنه في الأصل لتشبيه ما حكم فيه بأمرٍ منغلق، كما يشبَّه بأمرٍ منعقد في قولهم: حلَّال المشكلات.

وقرأ عيسى: «الفاتح»[2].

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ بما ينبغي أنْ يُقضَى به، أو بكلِّ شيءٍ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٠.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ استفسارٌ عن شبهتهم بعد إلزام الحجَّة عليهم زيادةً في تبكيتهم.

و«أرى» ـ على ما استظهره أبو حيان[1] ـ بمعنى أَعْلَمَ، فتتعدَّى إلى ثلاثة مفاعيل: ياء المتكلم، والموصول، و«شركاء»، وعائد الموصول محذوفٌ، أي: ألحقتموهم، والمراد: أعلموني بالحجَّة والدليل كيف وجهُ الشركة؟!

وجُوِّزَ كون «رأى» بصريَّةً تعدَّت بالنقل لاثنين: ياء المتكلم، والموصول. و«شركاء» حالٌ من ضمير الموصول المحذوف، أي: ألحقتموهم متوهَّماً شركتهم، أو مفعولٌ ثانٍ لـ «أَلْحَقَ»؛ لتضمينه معنى الجعل أو التسمية، والمراد: أرونيهم لأنظرَ بأيِّ صفةٍ ألحقتموهم بالله عزَّ وجلَّ الذي ليس كمثله شيء في استحقاق العبادة، أو ألحقتموهم به سبحانه جاعليهم أو مسمِّيهم شركاء، والغرضُ إظهارُ خطئهم العظيم.

وقال بعض الأجلَّة: لم يُرد من «أروني» حقيقته؛ لأنَّه ﷺ كان يراهم ويعلمهم، فهو مجازٌ وتمثيل، والمعنى: ما زعمتموه شريكاً إذا برزَ للعيون، وهو خشبٌ وحجر، تمَّت فضيحتُكم. وهذا كما تقولُ للرجل الخسيس الأصل: اذكر لي أباك الذي قايستَ به فلاناً الشريف، ولا تريدُ حقيقة الذكر، وإنَّما تريدُ تبكيته، وأنَّه إن ذكر أباه افتضح.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن زعم الشركة بعدما كسره بالإبطال، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] بعدما حجَّ قومه.

﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الموصوفُ بالغلبة القاهرة المستدعية لوجوب الوجود ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ الموصوفُ بالحكمة الباهرة المستدعية للعلم المحيط بالأشياء. وهؤلاء الملحَقون عن الاتِّصاف بذلك في معزلٍ، وعن الحوم حول ما يقتضيه بألف ألف منزل.

والضميرُ إمَّا عائدٌ لما في الذهن، وما بعده ـ وهو «الله» الواقع خبراً له ـ يفسِّره، و«العزيز الحكيم» صفتان للاسم الجليل. أو عائدٌ لـ «ربنا» في قوله سبحانه: «يجمع

---

(١) في البحر ٧/ ٢٨٠.

بيننا ربنا»[١]، على ما قيل. أو هو ضمير الشأن، و«الله» مبتدأ، و«العزيز الحكيم» خبره، والجملة خبر ضمير الشأن؛ لأنَّ خبرَه لا يكون إلَّا جملةً على الصحيح.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ المتبادرُ أنَّ «كافَّة» حالٌ من الناس، قُدِّم مع «إلَّا» عليه للاهتمام، كما قال ابن عطية[٢]. وأصلُه من الكفِّ بمعنى المنع، وأريد به العموم؛ لما فيه من المنع من الخروج، واشتهر في ذلك حتى قطع النظر فيه عن معنى المنع بالكليَّة، فمعنى جاء الناس كافَّةً: جاؤوا جميعاً، ويشير إلى هذا الإعراب ما أخرج ابن أبي شيبة وابنُ المنذر عن مجاهد أنَّه قال في الآية: أي: إلى الناس جميعاً. وما أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنَّه قال: أي: للناس كافَّةً[٣].

وكذا ما أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنَّه قال في الآية: أرسلَ اللهُ تعالى محمَّداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمُهم على الله تعالى أطوعُهم له[٤]. وما نقل عن ابن عباس أنَّه قال: أي: إلى العرب والعجم وسائر الأمم.

وهو مبنيٌّ على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف، وهو الذي ذهب إليه ـ خلافاً لكثير من النحاة ـ أبو عليّ وابنُ كيسان وابنُ بَرْهان والرضيّ وابنُ مالك، حيث قال:

وسَبْقَ حالٍ ما بحرفٍ جُرَّ قد أَبَوْا ولا أمنعُهُ فقد ورد[٥]

وأبو حيان، حيث قال بعد أن نقل الجوازَ عمَّن عدا الرضي من المذكورين: وهو الصحيح، ومن أمثلة أبي عليٍّ: زيدٌ خيرَ ما يكون خيرٌ منك، وقال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءةُ ناشئاً فمطلبُها كهلاً عليه شديد[٦]

---

(١) في الأصل و(م): يفتح بيننا ربنا، والصواب المثبت. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٠.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٣٧، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٢٨٨.

(٥) البيت من ألفيته المشهورة. انظر شرح ابن عقيل ١/ ٦٤٠.

(٦) نسب لأعرابي من بني قريع، كما في شرح الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٨، والحماسة البصرية =

وقال آخر:

تسلَّيتُ طرّاً عنكم بعد بَيْنِكم بذكراكمُ حتى كأنكُمُ عندي[(١)]

وقد جاء تقديمُ الحال على صاحبها المجرور وعلى ما يتعلَّق به، ومن ذلك قوله:

مشغوفةً بك قد شُغِفْتُ وإنَّما حَتَمَ الفراقُ فما إليك سبيلُ[(٢)]

وقول آخر:

غافلاً تَعرِضُ المنيَّةُ للمَرْ ءِ فيُدعى ولاتَ حينَ إباءُ[(٣)]

وإذا جاز تقديمها على المجرور والعامل فتقديمُها عليه دون العامل أجوز[(٤)]. انتهى.

وجعلوا هذا الوجه أحسن الأوجه في الآية، وقالوا: إنَّ ما عداه تكلُّف.

واعترِضَ بأنَّه يلزمُ عليه عملُ ما قبل «إلَّا» - وهو «أَرْسَلَ» - فيما بعدها وهو «للناس»، وليس بمستثنى ولا مستثنى منه ولا تابعٍ[(٥)] له، وقد منعوه.

وأجيب بأنَّ التقدير: وما أرسلناك للناس إلَّا كافَّةً، فهو مقدَّمٌ رتبةً، ومثله كافٍ في صحة العمل، مع أنهم يتوسَّعون في الظرف ما لا يتوسَّعون في غيره.

= ص٩٣٨ (تحقيق عادل جمال، مطبعة الخانجي)، وخزانة الأدب ٣/ ٢١٩-٢٢٠. ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٢٤٦-٢٤٧ للمعلوط. وهو في البيان والتبيين ١/ ٢٧٤ دون نسبة.

(١) هو في شرح الشواهد الكبرى للعيني ٣/ ١٦٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٢) هو في شرح الشواهد الكبرى للعيني ٣/ ١٦٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٣) هو في شرح الشواهد الكبرى ٣/ ١٦١، والبحر المحيط ٧/ ٢٨١، والدر المصون ٩/ ١٨٧ دون نسبة.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٨١.

(٥) في الأصل و(م): ولا تابعاً. والمثبت من حاشية الشهاب.

وقال الخفاجيُّ عليه الرحمة: الأحسن أن يجعل «للناس» مستثنًى، على أنَّ الاستثناء فيه مفرَّغ، وأصله: ما أرسلناك لشيءٍ من الأشياء إلَّا لتبليغ الناس كافَّةً، وأما تقديره بـ : ما أرسلناك للخلق مطلقاً إلَّا للناس كافَّةً، على أنَّه مستثنًى، فركيكٌ جدًّا[١]. اهـ.

ولا يخفى أنَّ في الآية ـ على ما استحسنَه ـ حذفَ المضاف، والفصلَ بين أداة الاستثناء والمستثنى، وتقديمَ الحال على صاحبها، والكلُّ خلافُ الأصل، وقلَّما يجتمعُ مثل ذلك في الكلام الفصيح.

واعترض عليه أيضاً بأنَّه يلزم حينئذٍ جعلُ اللام في «للناس» بمعنى «إلى». وليس بشيءٍ؛ لأنَّ «أرسل» يتعدَّى باللام و«إلى»، كما ذكره أبو حيان[٢] وغيره، فلا حاجةَ إلى جعلها بمعنى «إلى»، على أنَّه لو جعلت بمعناها لا يلزم خطأٌ أصلاً؛ لمجيء كلٍّ من اللام و«إلى» بمعنى الآخر، وكذا لا حاجةَ إلى جعلها تعليليَّةً، إلَّا على ما استحسنه الخفاجيُّ.

وقال غير واحد: إنَّ «كافةً» اسمُ فاعل من كَفَّ، والتاء فيه للمبالغة، كتاء راوية ونحوه، وهو حالٌ من مفعول «أرسلناك»، و«للناس» متعلِّقٌ به، وإليه ذهب أبو حيان[٣]، أي: ما أرسلناك إلَّا كافّاً ومانعاً للناس عن الكفر والمعاصي. وإلى الحاليّة من الكاف ذهب أبو عليٍّ أيضاً[٤]، إلَّا أنَّه قال: المعنى: إلَّا جامعاً للناس في الإبلاغ. وتعقَّبهُ أبو حيان بأنَّ اللغةَ لا تساعدُ على ذلك؛ لأنَّ كفَّ ليس بمحفوظٍ أنَّ معناه جمع.

وفيه منعٌ ظاهرٌ؛ لأنه يقال: كفَّ القميص إذا جمع حاشيته، وكفَّ الجرح إذا

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٤.

(٢) في البحر ٧/ ٢٨٢.

(٣) ينظر البحر ٧/ ٢٨١.

(٤) قوله: أبو علي، سبق قلم. والصواب: أبو إسحاق. وهو الزجاج. وكلامه في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٤، ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢٨١.

ربطَه بخرقة تحيطُ به، وقد قال ابن دريد: كلُّ شيءٍ جمعتَه فقد كففته[(١)]، مع أنَّه جُوِّزَ أنْ يكون مجازاً من المنع؛ لأن ما يُجمع يَمتنعُ تفرُّقه وانتشاره.

وقيل: إنه مصدرٌ، كالكاذبة والعاقبة والعافية، وهو أيضاً حالٌ من الكاف؛ إمَّا باقٍ على مصدريَّته بلا تقدير شيءٍ مبالغةً، وإمَّا بتأويل اسم الفاعل، أو بتقدير مضاف، أي: إلَّا ذا كافة، أي: ذا كفٍّ، أي: منعٍ للناس من الكفر. وقيل: ذا منعٍ من أن يشذُّوا عن تبليغك.

وذهب بعضهم إلى أنَّه مصدرٌ وقع مفعولاً له، ولم يشترط في نصبه اتحادُ الفاعل، كما ارتضاه الرضي.

وذهب العلامة الزمخشريُّ إلى أنَّه اسم فاعل من الكفِّ، صفة لمصدرٍ محذوفٍ، وتاؤه للتأنيث، أي: ما أرسلناك إلَّا إرسالةً كافَّةً، أي: عامَّةً لهم، محيطةً بهم؛ لأنَّها إذا شملتهم فقد كفتهم عن أن يخرج منها أحدٌ منهم[(٢)].

واعترِضَ عليه بأنَّ «كافة» لم ترد عن العرب إلَّا منصوبةً على الحال، مختصَّةً بالمتعدِّد من العقلاء، وأنَّ حذف الموصوف، وإقامةَ الصفة مقامه إنَّما يكون لما عُهِدَ وصفُه بها، بحيث لا تصلحُ لغيره.

وأجيب بأنَّ «كافة» ها هنا غيرُ ما التزم فيه الحالية، وإن رجعا إلى معنًى واحد، وما قيل من أنَّه لم تستعمله العربُ إلَّا كذلك ليس بشيءٍ، وإقامةُ الصفة مقامَ موصوفها منقاسٌ مطَّردٌ بدون شرط إذا قامت عليه قرينة، وذكرُ الفعل قبلَه دالٌّ على تقدير مصدره، كما في: قمت طويلاً وحسناً، أي: قياماً طويلاً وحسناً.

وفي «الحواشي الخفاجيَّة»: قد صحَّ أنَّ عمر ﷺ قال في كتابه لآل بني كاكلة: قد جعلتُ لآل بني كاكلة على كافَّةِ بيت المسلمين لكلِّ عامٍ مئتي مثقالٍ ذهباً إبريزاً. وقاله عليٌّ كرم الله وجهه حين أمضاه[(٣)].

---

(١) جمهرة اللغة ١/ ١١٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٠.
(٣) حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٢٠٣، والخبر سلف ١٠/ ٣١٦.

فقد استعملَ هذان الإمامان «كافَّةً» في غير العقلاء، وغير منصوبٍ على الحاليَّة.

ولا يخفى أنَّ بعض ما اعترض به على هذا الوجه يُعترَضُ به على بعض الأوجه السابقة أيضاً، والجواب هو الجواب.

والذي أختاره في الآية ما هو المتبادر، ولا بأس بالتقدُّم، والاستعمال واردٌ عليه، ولا قياسَ يمنعُه، وأمرُ تخطِّي العامِل «إلا» إلى ما ليس مستثنى ولا مستثنى منه سهلٌ؛ لحديث التوسُّع في الظرف، والآيةُ عليه أظهرُ في الاستدلال على عموم رسالته ﷺ، وهي في ذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ولو استدلَّ بها القاضي أبو سعيد لبهت اليهوديّ، وقد يستدلُّ عليه بما لا يكادُ يُنكِره من فعله ﷺ مع اليهود في عصره ودعوته عليه الصلاة والسلام إيَّاهم إلى الإسلام.

﴿بَشِيرًا﴾ لمن أسلم بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن لم يسلم بالعقاب، والوصفان حالان من مفعول «أرسلناك»، وقد يجعلان على بعض الأوجه السابقة بدلاً من «كافة» نحو بدل المفصَّلِ من المجمل، فتأمَّل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ذلك، فيحملهم جهلُهم على الإصرار على ما هم عليه من الغيِّ والضلال.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: لجهلهم حقيقةً أو حكماً، ولذا لم يعطف بالفاء. وقيل: «يقولون» أي: من فرط تعنُّتهم، وعدم العطف بالفاء لذلك.

وقيل: الحاملُ فرط الجهل، وعدمُ العطف بالفاء لظهور تفرُّعِه على ما قبله، ومثلُه يُوكَلُ إلى ذهن السامع، وقيل: إنَّ ذاك لأنَّ فرطَ الجهل غير الجهل. وهو كما ترى، وقيل: لأنَّ هذا حالُ بعضٍ، وعدم العلم في قوله تعالى: «لا يعلمون» حالُ بعضٍ آخر.

والذي يظهر لي أنَّ القائلين بالفعل هم بعضُ المشركين المعاصرين له ﷺ لا أكثرُ الناس مطلقاً، وأنَّ المراد بصيغة المضارع الاستمرار التجدُّديّ.

وقيل: عبَّر بها استحضاراً للصورة الماضية لنوع غرابة، والأصل: وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريق الاستهزاء يعنون المبشَّر به والمنذرَ عنه، أو الموعود بقوله

تعالى: «يجمعُ بيننا ربنا ثمَّ يفتحُ بيننا» ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين به.

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أو وعدُ يوم، على أنَّ «ميعاد» مصدرٌ ميميٌّ، أو اسمٌ أقيم مُقام المصدر ـ على ما نقل عن أبي عبيدة[1] ـ وهو بمعنى الموعود. وقيل: الكلام على تقدير مضاف، أي: لكم وقوع وعد يوم، أو نجزُ وعدِ يومٍ. وتنوين «يوم» للتعظيم، أي: يومٍ عظيم.

وجُوِّزَ أن يكون الميعادُ اسم زمان، وإضافته إلى «يوم» للتبيين، أي: لبيان زمان الوعد بأنَّه يومٌ مخصوصٌ، نحو: سَحْقُ ثوب[2]، وبعيرُ سانيةٍ[3].

وأُيِّدَ الوجهُ الأول بوقوع الكلام جواباً لقولهم: «متى هذا الوعد». والوجه الثاني أنَّه قرئ: «ميعادٌ يومٌ» برفعهما وتنوينهما[4]، فإنَّ «يوم» على هذه القراءة بدل، وذلك يقتضي أنَّ الميعادَ نفسُ اليوم، وكونُه بدلَ اشتمالٍ بعيد، وكذا ما قال أبو حيَّان[5] من أنَّه على تقدير محذوف، أي: قل لكم ميعادٌ ميعادُ يومٍ، فلما حُذِف المضافُ أُعرِب ما قام مقامه بإعرابه.

وقرأ ابن أبي عبلة: «ميعادٌ» بالرفع والتنوين «يوماً» بالنصب والتنوين[6]، قال الزمخشريُّ: وهو على التعظيم بإضمار فعل، تقديره: لكم ميعاد، أعني يوماً من صفته كيت وكيت، ويجوز الرفع على هذا أيضاً[7].

وجُوِّزَ أن يكون على الظرفيَّة لـ «ميعاد» على أنَّه مصدر بمعنى الموعود لا اسم زمان.

---

(١) انظر مجاز القرآن ٢/ ١٤٩.

(٢) السَّحق: الثوب الخلق الذي انسحق وبلي، ويضاف للبيان، فيقال: سحق بُرْدٍ، وسحق عمامة، وسحق ثوب. ينظرالنهاية (سحق)، والمغرب ص٣٨٦.

(٣) السانية: البعير الذي يسقى عليه، ومن أمثالهم: أذل من بعير سانية. المستقصى ١/ ١٣٢.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٠، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٢.

(٥) في البحر ٧/ ٢٨٢.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٢٨٢، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٢٢ لليزيدي.

(٧) الكشاف ٣/ ٢٩٠، وفيه: ويجوز أن يكون الرفع على هذا، أعني التعظيم.

وقال في «البحر»: يجوز أن يكون انتصابه على الظرف، والعامل فيه مضافٌ محذوف، أي: إنجازُ وعدٍ يوماً من صفته كيتَ وكيت.

وقرأ عيسى: «ميعادٌ» منوَّناً «يومَ» بالنصب من غير تنوين، مضافاً إلى الجملة[1]، ووجهُ النصب ما مرَّ آنفاً.

﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ إذا فاجأكم ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ أي: عنه ساعةً، والهاء ـ على ما قال أبو البقاء ـ يجوزُ أن تعود على «ميعاد»، وأن تعود على «يوم»، وعلى أيِّهما عادت كانت الجملةُ وصفاً له[2]. وفي «الإرشاد»: هي صفةٌ لازمةٌ لـ «ميعاد»، وفي الجواب ـ على تقدير تقييد النفي بالمفاجأة ـ من المبالغة في التهديد ما لا يخفى[3].

ويجوز أنْ يكون النفيُ غير مقيَّدٍ بذلك، فيكون وصفُ الميعاد بما ذكر لتحقيقه وتقريره[4]، وقد تقدَّم الكلامُ في نظير هذه الجملة فتذكَّر.

ولمَّا كان سؤالهم عن الوقت على سبيل التعنُّت أجيبوا بالتهديد، وحاصله أنَّه لوحظ في الجواب المقصودُ من سؤالهم لا ما يعطيه ظاهر اللفظ، وليس هذا من الأسلوب الحكيم، فإنَّ البليغَ يلتفتُ لفت المعنى.

وقال الطيبيُّ: هو منه، سألوا عن وقت إرساء الساعة، وأجيبوا عن أحوالهم فيها، فكأنَّه قيل: دعوا السؤال عن وقت إرسائها، فإنَّ كينونَته لا بدَّ منه، بل سلوا عن أحوال أنفسكم حيث تكونون مبهوتين متحيِّرين فيها من هول ما تشاهدون، فهذا أليقُ بحالكم من أنْ تسألوا عنه. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّه متضمِّنٌ الجوابَ بأنَّ ذلك اليومَ لا يعلمه إلَّا الله عزَّ وجلَّ؛ لمكان تنكير «يوم». وهو تعسُّفٌ لا حاجةَ إليه.

واختلف في هذا اليوم، فقيل: يوم القيامة، وعليه كلام الطيبيّ. وقيل: يوم مجيء أَجَلِهم وحضور منيَّتهم. وقيل: يوم بدر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٢.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٢١٣.

(٣) إرشاد العقل السليم ٧/ ١٣٣.

(٤) في (م): وتقديره.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم مشركو العرب ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب القديمة، كما روي عن قتادة والسديِّ وابن جريج. ومرادهم نفي الإيمان بجميع ما يدلُّ على البعث من الكتب السماويَّة المتضمِّنة لذلك، ويروى أنَّ كفارَ مكَّة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ، فأخبروهم أنَّهم يجدونَ صفتَه عليه الصلاة والسلام في كتبهم، فأغضبَهم ذلك فقالوا ما قالوا. وضُعِّفَ بأنَّه ليس في السياق والسباق ما يدلُّ عليه.

وقيل: الذي بين يديه القيامة. وخطَّأ ابنُ عطيَّة قائلَه بأنَّ ما بين اليد في اللغة المتقدِّم[1]. وتُعقِّبَ بأنَّه قد يراد به ما مضى، وقد يراد به ما سيأتي.

نعم يضعِّفُ ذلك أنَّ ما بين يدي الشيء يكون من جنسه، لكن محصَّل كلامهم على هذا أنَّهم لم يؤمنوا بالقرآن ولا بما دلَّ عليه.

وأمَّا ادِّعاءُ أنَّ الأكثر كونُه لما مضى، فقد قيل أيضاً: إنَّه غير مسلَّم.

وحكى الطبرسيُّ أنَّ المراد بالذين كفروا اليهود[2]، وحينئذٍ يُرادُ بما بين يديه الإنجيل.

ولا يخفى أنَّ هذا القول ممَّا لا ينبغي أنْ يُلتَفت إليه، وليس في السباق والسياق ما يدلُّ عليه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ واقفٍ عليه. ومفعول «ترى»: «إذ»، أو محذوفٌ و«إذ» ظرفٌ له، أي: أي[3] حال الظالمين، و«لو» للتمنِّي مصروفاً إلى غيره تعالى، لا جوابَ لها، أو هو مقدَّرٌ، أي: لرأيتَ أمراً فظيعاً، أو نحوه، و«الظالمون» ظاهرٌ وُضِع موضعَ الضمير؛ للتسجيل وبيان علَّة استحقاقهم، والأصلُ: ولو ترى إذ هم موقوفون عند ربهم،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١.

(٢) مجمع البيان ٢٢/ ٢١٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعلَّ تكرار لفظة: أي. لا معنى له.

أي: في موقف المحاسبة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاورونَ ويتراجعونَ القول، والجملةُ في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ استئنافٌ لبيان تلك المحاورة، أو بدلٌ من «يرجع» إلخ، أي: يقولُ الأتباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستتبعوهم في الغيِّ والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صددتمونا عن الهدى ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ بما جاءَ به الرسول ﷺ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قال الذين استكبروا لمَّا اعترَضَ عليهم الأتباعُ ووبَّخوهم؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أنكروا أن يكونوا هم الذين صدُّوهم عن الإيمان، وأثبتوا أنَّهم هم الذين صدُّوا أنفسهم، أي: لسنا نحن الذين حلْنَا بينكم وبين الإيمان بعد إذ صَمَّمتم على الدخول فيه، بل أنتم منعتم أنفسَكم حظَّها بإجرامكم وإيثاركم الكفرَ على الإيمان.

ووقوع «إذ» مضافاً إليها الظرفُ شائعٌ في كلامهم، كوقوعها مضافة، وذلك من باب الاتِّساع في الظروف لا سيما الزمانية. وبهذا يُجَاب عمَّا قيل: إنَّ «إذ» من الظروف اللازمة للظرفيَّة، فكيف وقعت ها هنا مجرورةً مضافاً إليها؟

وقال صاحب «الفرائد»: إنَّ «إذ» هاهنا جُرِّدَت عن معنى الظرفية، وانسلخت عنه رأساً، وصيِّرت اسماً صرفاً؛ لأنَّ المرادَ من وقت مجيء الهدى هو الهدى، لا الوقتُ نفسه، فلذا أضيف إليها.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ إضراباً عن إضرابهم، وإبطالاً له: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: بل صدَّنا مكرُكم بنا في الليل والنهار، فحُذِف المضاف إليه، وأقيم مقامه الظرفُ اتِّساعاً، أو جعل الليل والنهار ماكرين على الإسناد المجازيِّ.

وقيل: لا حاجةَ إلى ذلك، فإنَّ الإضافة على معنى «في».

وتُعقِّبَ بأنَّها ـ مع أنَّ المحققين لم يقولوا بها ـ يَفُوتُ باعتبارها المبالغة.

ويُعلَم ممَّا أشرنا إليه أنَّ «مكر» فاعلٌ لفعلٍ محذوف، وجُوِّزَ أن يكون خبرَ مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: سبب كفرنا مكرُ الليل والنهار، أو: مكر الليل والنهار سببُ كفرنا.

وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر: «بل مكرٌ الليلَ والنهارَ» بالتنوين ونصب الظرفين[1]، أي: بل صدَّنا مكرُكم ـ أو: مكرٌ عظيم[2] ـ في الليل والنهار.

وقرأ محمد بن جعفر[3] وسعيد بن جبير وأبو رزين وابن يعمر أيضاً: «مَكَرُّ الليلِ والنهار» بفتح الميم والكاف وتشديد الراء والرفع مع الإضافة، أي: بل صَدَّنا كرور الليل والنهار واختلافهما، وأرادوا ـ على ما قيل ـ الإحالة على طول الأمل والاغترارِ بالأيام مع [أمر][4] هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله عزَّ وجلَّ.

وقرأ ابن جبير أيضاً وراشد القارئ وطلحة كذلك، إلَّا أنَّهم نصبوا: «مَكَرَّ» على الظرف[5]، أي: بل صددتمونا مَكَرَّ الليل والنهار، أي: في مَكَرِّهما، أي: دائماً، وجُوِّزَ أنْ يكون مفعولاً مطلقاً، أي: تكرون الإغراءَ مَكَرّاً دائماً لا تفترون عنه. وجَوَّزَ صاحب «اللوامح» كونه ظرفاً لـ «تأمروننا» بعد، وتَعقَّبه أبو حيان[6] بأنَّه وهمٌ؛ لأنَّ ما بعد «إذ» لا يعمل فيما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ بدل من الليل والنهار، أو تعليلٌ للمكر، وجَعَله في

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٣. وهي عن قتادة في المحتسب ٢/ ١٩٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣١٨.

(٢) قوله: مكرٌ عظيمٌ، على اعتبار أن التنوين للتفخيم، وقوله قبله: مكركم، على اعتبار أنه عوض عن المضاف إليه. ينظر تفسير أبي السعود ٧/ ١٣٤.

(٣) في القراءات الشاذة ص١٢٢: جعفر بن محمد. ووقع في مطبوع البحر المحيط ٧/ ٢٨٣: وقرأ سعيد بن جبير بن محمد وأبو رزين. وهي في المحتسب ٢/ ١٩٣ عن سعيد بن جبير وأبي رزين.

(٤) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١، والبحر ٧/ ٢٨٣.

(٥) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٣، والبحر ٧/ ٢٨٣، وعنه نقل المصنف. قال أبو حيان: وراشد هذا من التابعين، ممن صحح المصاحف بأمرالحَجَّاج. اهـ. وهو ابن نجيح الحِمَّاني، أبو محمد البصري، من رجال التهذيب.

(٦) في البحر ٧/ ٢٨٣.

«الإرشاد» ظرفاً له، أي: بل مكركُم الدائمُ وقتَ أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على أنَّ مكرهم إمَّا نفسُ أمرهم بما ذُكر، وإمَّا أمورٌ آخر مقارِنةٌ لأمرهم، داعيةٌ إلى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك[1].

وجملة: «قال الذين استضعفوا» إلخ عطفٌ على جملة «يقول الذين استضعفوا» إلخ وإن تغايرتا مضيّاً واستقبالاً. ولمَّا كان هذا القول رجوعاً منهم إلى الكلام دون قول المستكبرين: «أنحن صددناكم» ـ فإنَّه ابتداءُ كلامٍ وقعَ جواباً للاعتراض عليهم ـ جيء بالعاطف هاهنا، ولم يجئ به هناك على ما اختاره بعضهم.

وقيل: إنَّ النكتة في ذلك أنَّه لمَّا حكى قول المستضعفين بعد قوله تعالى: «يرجع بعضهم إلى بعض القول» كان مظنَّة أن يقال: فماذا قال الذين استكبروا للذين استضعفوا، وهل كان بين الفريقين تراجع؟ فقيل: قال الذين استكبروا كذا، وقال الذين استضعفوا كذا، فأخرجَ مجموع القولين مخرجَ الجواب، وعطفَ بعض الجواب على بعض، فتدبَّر.

والأنداد جمع: نِدٍّ، هو شائع فيمن يَدَّعي أنَّه شريكٌ مطلقاً، لكن ذكر الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه في تفسيره الجاري فيه على مسلك المفسِّرين «إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن» ـ وبخطِّه الشريف النورانيِّ رأيتُه ـ أنه مخصوصٌ بمن يدَّعي الألوهيَّة كفرعون وأضرابه؛ لأنَّه بذلك نَدَّ عن الله تعالى، وشردَ عن رحمته سبحانه. وقال الشيخ: لأنَّه شردَ عن العبودية له جلَّ شأنه.

﴿وَأَسَرُّوا﴾ أي: أضمرَ الظالمون من الفريقين: المستكبرين والمستضعفين ﴿النَّدَامَةَ﴾ على ما كان منهم في الدنيا من الضلال والإضلال نظراً للمستكبرين، ومن الضلال فقط نظراً للمستضعفين، والقول بحصول ندامتهم على الإضلال أيضاً ـ باعتبارِ قَبوله ـ تكلُّفٌ، ولم يظهروا ما يدلُّ عليها من المحاورة وغيرها.

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ١٣٤.

﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنَّهم بُهِتوا لمَّا عاينوه، فلم يقدروا على النطق، واشتغلوا عن إظهارها بشغل شاغل.

وقيل: أخفاها كلٌّ عن صاحبه مخافةَ التعيير.

وتُعقِّب بأنَّه كيف يتأتَّى هذا مع قول المستضعفين لرؤسائهم: «لولا أنتم لكنَّا مؤمنين»، وأيُّ ندامةٍ أشد من هذا؟ وأيضاً مخافةُ التعيير في ذلك المقام بعيدةٌ.
وقيل: «أسرُّوا الندامةَ» بمعنى أظهروها، فإنَّ أسرَّ من الأضداد، إذ الهمزةُ تصلحُ للإثبات وللسلب، فمعنى أسرَّه: جعله سرًّا، أو: أزالَ سرَّه، ونظيره: أَشْكَيْتُ؛ وأنشدَ الزمخشريُّ لنفسه:

شكوتُ إلى الأيام سوء صنيعها ... ومن عجب باكٍ تشكَّى[1] إلى المُبْكي
فما زادت الأيَّامُ إلَّا شكايةً ... وما زالت الأيامُ تُشْكِي ولا تُشْكِي

وتعقَّبَ ابنُ عطيَّة هذا القول بأنَّه لم يثبت قطُّ في لغةٍ أنَّ «أسرّ» من الأضداد[2].

وأنت تعلم أنَّ المثبِتَ مقدَّمٌ على النافي، فلا تغفل.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾ أي: القيود ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم المستكبرون والمستضعفون، والأصل: في أعناقهم، إلَّا أنَّه أظهرَ في مقام الإضمار؛ للتنويه بذمِّهم، والتنبيه على موجب إغلالهم.

واستظهر أبو حيان عمومَ الموصول، فيدخل فيه الفريقان المذكوران وغيرهم؛ لأنَّ من الكفار من لا يكون له أتباعٌ تراجعه القولَ في الآخرة، ولا يكون هو تابعاً لرئيسٍ له، كالغلام الذي قتلَه الخضرُ عليه السلام[3].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٣﴾ أي: لا يجزون إلَّا مثلَ الذي كانوا يعملونَه من الشرِّ، وحاصله: لا يجزونَ إلَّا شرّاً.

---

(١) في (م): فشكى.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢١.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٣.

و«جزى» قد يتعدَّى إلى مفعولين بنفسه، كما يشيرُ إليه قولُ الراغب، يقال: جزيتُه كذا وبكذا[(١)]. وجُوِّزَ كونُ «ما» في محلِّ النصبِ بنزع الخافض، وهو إمَّا الباء، أو «عن»، أو «على»، فإنَّه ورد تعديةُ «جزى» بها جميعاً. وقيل: إنَّ هذا التعدِّي لتضمينه معنى القضاء. ومتى صحَّ ما سمعت عن الراغب لم يحتَج إلى هذا.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ من القرى ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: نذيراً من النُّذر ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي: المتوسِّعون في النعم فيها، والجملة في موضع الحال: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ بزعمكم من التوحيد وغيره. والجارُّ الثاني متعلِّق بما عنده، والأول متعلِّق بقوله تعالى: ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وهو خبرُ «إنَّ».

وظاهر الآية أنَّ مترفي كلِّ قريةٍ قالوا لرسولهم ذلك، وعليه فالجمع في «أرسلتم» للتهكُّم. وقيل: لتغليب المخاطب على جنس الرسل، أو على أتباعه المؤمنين به.

وقال بعض الأجلَّة: الكلام من باب مقابلة الجمع بالجمع، فقيل: الجمعُ الأول الرسل المدلول عليه بقوله تعالى: «أرسلتم»، والثاني «كافرون»، فقد كفر كلٌّ برسوله، وخاطبه بمثله، فلا تغليبَ في الخطاب في «أرسلتم».

وقيل: الجمع الأول: «نذير»؛ لأنَّه يفيد العموم في الحكاية لا المحكيّ؛ لوقوعه في سياق النفي. وليس كلُّ قومٍ مُنْكِراً لجميع الرسل، فحمل على المقابلة.

والكلام مسوقٌ لتسلية رسول الله ﷺ ممَّا ابتلي به من مخالفة مترفي قومه وعداوتهم له عليه الصلاة والسلام، وتخصيص المترفين بالتكذيب؛ لأنَّهم في الأغلب أوَّل المكذِّبين للرسل عليهم السلام؛ لِمَا شُغلوا به من زخرفة الدنيا، وما غَلب على قلوبهم منها، فهم منهمكون في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، بخلاف الفقراء، فإنَّ قلوبَهم لخلوِّها من ذلك أقبلُ للخير، ولذلك تراهم أكثرَ أتباع الأنبياء عليهم السلام، كما جاء في حديث هرقل[(٢)].

(١) المفردات (جزى).
(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير للمترفين الذين تقدَّم ذكرُهم. وقيل: لقريش. والظاهر المتبادر هو الأول، والمراد حكايةُ ما شجَّعهم على الكفر بما أُرسل به المنذِرون، أي: وقال المترفون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي: أموالنا وأولادنا كثيرةٌ جداً، فأفعل للزيادة المطلقة، وجُوِّزَ بقاؤه على ما هو الأكثرُ استعمالاً، والمفضَّل عليه محذوف، أي: نحن أكثرُ منكم أموالاً وأولاداً.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ بشيءٍ من أنواع العذاب الذي يكدِّرُ علينا لذَّة كثرة الأموال والأولاد، من خوف الملوك، وقهر الأعداء، وعدم نفوذ الكلمة، والكدِّ في تحصيل المقاصد، ونحو ذلك.

وإيلاء الضمير حرفَ النفي للإشارة إلى أنَّ المخاطبين أو المؤمنين ليسوا كذلك.

وحاصل قولهم: نحن في نعمةٍ لا يشوبُها نقمة، وهو دليلُ كرامتنا على الله عزَّ وجلَّ ورضاه عنَّا، فلو كان ما نحنُ عليه من الشرك وغيره ممَّا تدعونا إلى تركه مخالفاً لرضاه لما كنَّا فيما كنَّا فيه من النعمة.

ويجوز أن يكونوا قد قاسُوا أمورَ الآخرة الموهومة أو المفروضة عندهم على أمور الدنيا، وزَعموا أن المنعَمَ عليه في الدنيا منعَمٌ عليه في الآخرة، وإلى هذا الوجه ذهب جمعٌ، وقالوا: نَفيُ كونهم معذَّبين؛ إمَّا بناءً على انتفاء العذاب الأخرويِّ رأساً، وإمَّا بناءً على اعتقاد أنَّه تعالى أكرمهم في الدنيا، فلا يهينهم في الآخرة، على تقدير وقوعها.

وقال الخفاجيُّ في وجه إيلاء الضمير حرفَ النفي: إنَّه اشارةٌ إلى أنَّ المؤمنين معذَّبون استهانةً بهم؛ لظنِّهم أنَّ المالَ والولد يدفعُ العذاب عنهم، كما قاله بعض المشركين(١).

وأنت تعلم أنَّ الأظهرَ عليه التفريع.

وذهب أبو حيَّان(٢) إلى أنَّ المرادَ بالعذاب المنفيِّ أعمُّ من العذاب الأخرويّ

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٧/ ٢٠٦.
(٢) في البحر المحيط ٧/ ٢٨٥.

والعذاب الدنيوي الذي قد ينذِر به الأنبياءُ عليهم السلام ويتوعَّدون به قومهم إن لم يؤمنوا بهم.

ولعل ما ذكرناه أوَّلاً أنسبُ بالمقام، فتأمَّل جدّاً.

﴿قُلْ﴾ ردّاً لما زعموه من أنَّ ذلك دليلُ الكرامة والرضى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطَه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ على من يشاء أنْ يقدرَه عليه، فربَّما يوسِّع سبحانه على العاصي، ويضيِّقُ على المطيع، وربَّما يعكس الأمرَ، وربَّما يوسِّع عليهما معاً، وقد يضيِّقُ عليهما معاً، وقد يوسِّعُ على شخصٍ مطيعٍ أو عاصٍ تارةً، ويضيِّقُ عليه أخرى، يفعل كلّاً من ذلك حسبما تقتضيه مشيئتُه عزَّ وجلَّ المَبْنيَّةُ على الحِكَم البالغة، فلو كان البسط دليل الإكرام والرضى لاختصَّ به المطيع، وكذا لو كان التضييق دليلَ الإهانة والسخط لاختصَّ به العاصي، وليس فليس.

والحاصل ـ كما قيل ـ منعُ كون ذلك دليلاً على ما زعموا؛ لاستواء المُعادي والمُوالي فيه.

وقال جمعٌ: أريد أنَّه تعالى يفعلُ ذلك حسب مشيئته المبنيَّة على الحكم، فلا ينقاس عليه أمرُ الثواب والعقاب اللذين مناطُهما الطاعة وعدمها.

وقال ناصر الدين: لو كان ذلك لكرامةٍ أو هوانٍ يوجبانه لم يكن بمشيئته تعالى(١). وهو مبنيٌّ على أنَّ الإيجاب ينافي الاختيار والمشيئة، وقد قال به الخفاجيُّ(٢) أخذاً من كلام مولانا جلال الدين، ورَدَّ به على من ردّ.

ولا يخفى أنَّ دعوى المترفين الإيجاب على الله تعالى فيما هم فيه من بسط الرزق، وكذا فيما فيه أعداؤهم من تضييقه، غيرُ ظاهرةٍ حتى يُرَدَّ عليهم بإثبات المشيئة التي لا تجامعُ الإيجاب.

وقرأ الأعمش: «ويقدِّر» مشدداً هنا وفيما بعد(٣).

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧٥.
(٢) في حاشيته ٧/ ٢٠٦.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥، والدر المصون ٩/ ١٩٢.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ ذلك، فمنهم من يزعم أنَّ مدار البسط الشرفُ والكرامة، ومدارَ التضييق الهوانُ والحقارة، ومنهم من تحيَّر واعترضَ على الله تعالى في البسط على أناسٍ والتضييق على آخرين، حتى قال قائلهم:

كم عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تَلْقَاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأفهام حائرةً ... وصيَّر العالِمَ النحريرَ زنديقا[١]

وعنَى هذا القائلُ بالعالم النحرير نفسَه، ولعمري إنه بوصف الجاهل البليد أحقُّ منه بهذا الوصف، فالعالم النحرير من يقول:

ومن الدليلِ على القضاء وحكمِه[٢] ... بؤسُ اللبيب وطيبُ عيش الأحمقِ[٣]

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنفٌ من جهته عزَّ وجلَّ، خُوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغةً في تحقيق الحقِّ وتقرير ما سبق، كذا في «إرشاد العقل السليم»[٤].

وجُوِّزَ أن يكون ما تقدَّم لنفي أن يكون القرب والكرامة مداراً وعلَّةً لكثرة الرزق، وهذا لنفي أن تكون[٥] كثرة الرزق سبباً للقرب والكرامة، ويكونُ الخطابُ للكفرة.

و«التي» واقعٌ على الأموال والأولاد، وحيث إنَّ الجمع المكسَّر عقلاؤه وغيرُ عقلائه سواءٌ في حكم التأنيث، وكان المجموع بمعنى جماعة؛ صحَّ الإفراد

---

(١) نسبهما العباسي في معاهد التنصيص ١/ ١٤٧ لابن الراوندي، ونسبهما أبو إسحاق الوطواط في غرر الخصائص الواضحة ص١٣٦ للخبرارزي، ونُسبا في طبقات الشافعية ٤/ ٢٣٢ لأبي العلاء المعري.
(٢) جاء في هامش الأصل: وكونه. نسخة.
(٣) البيت للشافعي كما في الوافي بالوفيات ٢/ ١٧٨، وطبقات الشافعية ١/ ٣٠٥، ومعاهد التنصيص ١/ ١٥١، وحاشية الشهاب ٧/ ٢٠٦، وغيرها.
(٤) ٧/ ١٣٦.
(٥) في (م): وهذا النفي أن يكون.

والتأنيث، أي: وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التي تقرِّبكم عندنا قُربة، ولا حاجةَ إلى تقدير مضاف في النظم الكريم، وما ذُكر تقديرُ معنًى لا إعراب.

وعن الزجاج أنَّ في الكلام حذفاً في أوله؛ لدلالة ما في آخره، والتقدير: وما أموالكم بالتي تقرِّبكم عندنا زلفى، ولا أولادكم بالتي.. إلخ(١).

وأنت تعلم أنَّه لا حاجةَ إليه أيضاً.

وجُوِّزَ أن تكون «التي» صفةً لموصوفٍ مفردٍ مؤنثٍ تقديره: بالتقوى، أو: بالخصلة التي.

وجَوَّزَ الزمخشريُّ أنْ تكون «التي» كنايةً عن التقوى؛ لأنَّ المقرِّب إلى الله تعالى ليس إلَّا تلك، أي: وما أموالكم ولا أولادكم بتلك الموضوعة للتقريب(٢).

وقرأ الحسن: «باللاتي» جمعاً(٣). وهو راجعٌ للأموال والأولاد، كـ «التي» على ما سمعت أولاً.

وقرئ: «بالذي» أي: بالشيء الذي يقرِّبكم(٤).

و «زلفى» مصدرٌ كالقربى، وانتصابُه على المصدريَّة من المعنى.

وقرأ الضحاك: «زُلَفاً» بفتح اللام وتنوين الفاء(٥)، جمع: زُلْفَة، وهي القُربة.

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ من مفعول «تُقَرِّبكم» على ما ذهب إليه جمع، وهو استثناءٌ متصلٌ إذا كان الخطاب عامّاً للمؤمنين والكفرة، ومنقطعٌ إذا كان خاصّاً بالكفرة، فالموصول في محلِّ نصبٍ، أو رفع على أنَّه مبتدأٌ ما بعده خبره، أو خبره مقدر، أي: لكنْ مَن آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعملُه يقربانه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٥.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.
(٤) الكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٥.

واستظهر أبو حيان الانقطاع، وقال في «البحر»: إنَّ الزجَّاج[١] ذهب إلى بدليته من المفعول المذكور، وغلَّطه النحاس[٢] بأنَّ ضميرَ المخاطب لا يجوزُ الإبدال منه، فلا يقال: رأيتُكَ زيداً، ومذهبُ الأخفش والكوفيين أنَّه يجوز أنْ يبدل من ضميري المخاطب والمتكلم، لكن البدل في الآية لا يصحُّ، ألا ترى أنَّه لا يصحُّ تفريغُ الفعل الواقع صلة لما بعدَ «إلَّا»، فلو قلت: ما زيدٌ بالذي يضرب إلَّا خالداً. لم يصح[٣]. اهـ.

وذكر بعضُ الأجلَّة أن جعلَه استثناءً من المفعول لا يصحُّ على جعل «التي» كنايةً عن التقوى؛ لأنه يلزم أن تكون الأموال والأولاد تقوى في حقِّ غير من آمن وعمل صالحاً، لكنها غير مقرِّبة. وقيل: لا بأس بذلك، إذ يصحُّ أن يقال: وما أموالكم ولا أولادكم بتقوى إلَّا المؤمنين، وحاصله أنَّ المال والولد لا يكونان تقوى ومقرِّبَيْنِ لأحدٍ إلَّا للمؤمنين. واذا كان الاستثناءُ منقطعاً صحَّ واتَّضح ذلك.

وجُوِّز أنْ يكون استثناءً من «أموالكم وأولادكم» على حذف مضاف، أي: إلَّا أموال مَن آمن وعمل صالحاً وأولادهم. وفي هذا ـ إذا جعل «التي» كنايةً عن التقوى ـ مبالغةٌ من حيث إنَّه جعل مال المؤمن الصالح وولده نفس التقوى، ثمَّ إنَّ تقريبَ الأموال المؤمنَ الصالح بإنفاقها فيما يرضي الله تعالى، وتقريبَ الأولاد بتعليمهم الخير وتفقيههم في الدين وترشيحهم للصلاح والطاعة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «من»، والجمع باعتبار معناها، كما أنَّ الإفراد فيما تقدَّم باعتبار لفظها. وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل، أي: فأولئك المنعوتون بالإيمان والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: لهم أن يجازيَهم الله تعالى الضعف، أي: الثوابَ المضاعف، فيجازيهم على الحسنة بعشر أمثالها أو بأكثر إلى سبع مئة، فإضافة «جزاء» إلى «الضعف» من إضافة المصدر إلى مفعوله.

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٢٥٥.

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ٣٥٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٥-٢٨٦.

وقرأ قتادة: «جزاءُ الضعفُ» برفعهما[1]، فـ«الضِّعفُ» بدل. وجَوَّز الزجاج كونَه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الضعف[2].

ويعقوب - في رواية - بنصب «جزاءً»، ورفع «الضعفُ»[3]، فـ«جزاء» تمييز، أو حال من فاعل «لهم» إنْ كان «الضعف» مبتدأ، أو منه إن كان فاعلاً، أو نصب على المصدر لفعله الذي دلَّ عليه «لهم»، أي: يجزون جزاء.

وقرئ: «جزاءٌ» بالرفع والتنوين، «الضعفَ» بالنصب على إعمال المصدر[4].

﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي: في غرفات الجنَّة ومنازلها العالية ﴿ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ من جميع المكاره الدنيويَّة والأخرويَّة.

وقرأ الحسن وعاصم - بخلافٍ عنه - والأعمش ومحمد بن كعب: «في الغُرْفات» بإسكان الراء[5]. وقرأ بعض القرَّاء بفتحها[6]. وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمزة وخلف: «في الغُرْفة» بالتوحيد وإسكان الراء[7]، وابن وثاب أيضاً بالتوحيد وضمِّ الراء[8]. والتوحيد على إرادة الجنس؛ لأنَّ الكلَّ ليسوا في غرفةٍ واحدة، والمفردُ أخصرُ مع عدم اللبس فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالردِّ والطعن فيها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ - أي: بحسب زعمهم الباطلِ - الله عزَّ وجلَّ، أو الأنبياءَ عليهم السلام، وحاصله: زاعمينَ سبقَهم، وعدمَ قدرة الله تعالى أو أنبيائه عليهم السلام عليهم. ومعنى المفاعلة غير مقصود هاهنا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٦.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٦.
(٣) هي رواية رويس عنه. انظر النشر ٢/ ٣٥١.
(٤) أوردها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩٢، والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٢٣.
(٥) البحر المحيط ٧/ ٢٨٦، وهي في القراءات الشاذة ص١٢٢ عنهم دون ذكر عاصم. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٦) القراءات الشاذة ص١٢٢، والكشاف ٣/ ٢٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٦.
(٧) البحر المحيط ٧/ ٢٨٦ دون ذكر خلف، وذكرها عنه القرطبي في تفسيره ١٧/ ٣٢٣.
(٨) الدر المصون ٩/ ١٩٦.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذي بَعُدَتْ منزلتهم في الشر ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨﴾ لا يجديهم ما عَوَّلوا عليه نفعاً. وفي ذكر العذاب دون موضعه ما لا يخفى من المبالغة.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي: يوسِّعُه سبحانَه عليه تارةً، ويضيِّقه عليه أخرى، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله تعالى، وتقرَّبوا لديه عزَّ وجلَّ بأموالكم، وتعرَّضوا لنفحاته جلَّ وعلا، فمساقُ الآية للوعظ والتزهيد في الدنيا، والحضِّ على التقرُّب إليه تعالى بالإنفاق، وهذا بخلاف مساقِ نظيرها المتقدِّم، فإنَّه للردِّ على الكفرة كما سمعت. وأيضاً ما سبق عامٌّ، وما هنا خاصٌّ في البسط والتضييق لشخصٍ واحد باعتبار وقتين، كما يشعر به قوله تعالى هنا: «له» وعدمُ قوله هناك، والضمير وإن كان في موضعٍ من المبهم، إلَّا أنَّ سبق النظير خالياً عن ذلك، وذكر هذا بعدُ مشتملاً عليه، كالقرينة على إرادة ما ذُكر، فلا تغفل.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ يحتمل أنْ تكون «ما» شرطيةً في موضع نصب بـ «أنفقتم»، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ جواب الشرط. ويحتمل أنْ تكون بمعنى «الذي» في موضع رفع بالابتداء، والجملة بعدُ خبرُه، ودخلت الفاء لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط. و«من شيء» تبيين على الاحتمالين.

ومعنى «يخلفه»: يعطي بدلَه وما يقوم مقامه عوضاً عنه، وذلك إمَّا في الدنيا بالمال، كما هو الظاهر، أو بالقناعة التي هي كنزٌ لا يفنى، كما قيل، وإمَّا في الآخرة بالثواب الذي كلُّ خلفٍ دونَه.

وخصَّه بعضهم بالآخرة، أخرج الفريابيُّ وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: إذا كان لأحدكم شيءٌ فليقتصد، ولا يتأوَّل هذه الآية: (لَمْ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ)، فإنَّ الرزقَ مقسومٌ، ولعلَّ ما قُسِم له قليلٌ، وهو ينفقُ نفقة الموسع عليه.

وأخرج مَن عدا الفريابي من المذكورين عنه أنه قال في الآية: أي: ما كان من خلفٍ فهو منه تعالى، وربَّما أنفقَ الإنسان مالَه كلَّه في الخير ولم يُخْلَفْ حتى يموت(١).

---

(١) الأثران في الدر المنثور ٥/٢٣٨-٢٣٩.

ومثلها: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] يقول: ما آتاها من رزقٍ فمنه تعالى، وربما لم يرزقها حتى تموت.

والأول أظهرُ؛ لأنَّ الآيةَ في الحثِّ على الإنفاق، وأنَّ البَسْطَ والقَدْرَ إذا كانا من عنده عزَّ وجلَّ فلا ينبغي لمن وُسِّع عليه أنْ يخاف الضيعةَ بالإنفاق، ولا لمن قُدِرَ عليه زيادتها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ تذييلٌ يؤيِّد ذلك، كأنَّه قيل: فيرزقه من حيث لا يحتسب.

وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يومٍ يصبحُ العباد فيه إلَّا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهمَّ أَعْطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أَعْطِ ممسكاً تلفاً»(١).

وأخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «كلَّ ما أنفقَ العبدُ نفقةً، فعلى الله تعالى خلفها ضامناً، إلَّا نفقةً في بنيانٍ أو معصية»(٢).

وأخرج البخاريُّ وابن مردويه عن أبي هريرة أنَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «قال الله عزَّ وجلَّ: أَنْفِقْ يا ابنَ آدم أُنْفِقْ عليك»(٣).

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ المعونةَ تنزلُ من السماء على قَدْرِ المؤونة»(٤).

وفي حديثٍ طويل عن الزبير: «قال الله تبارك وتعالى: أَنفق أُنفقْ عليك، وأوسع أوسع عليك، ولا تضيِّق أضيق عليك، ولا تصرَّ فأصرَّ عليك، ولا تخزن فأخزن عليك، إنَّ بابَ الرزق مفتوحٌ من فوق سبع سماوات، متواصلٌ إلى العرش، لا يُغلَقُ ليلاً ولا نهاراً، يُنزِل الله تعالى منه الرزق على كلِّ امرئٍ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته، فمن أكثر أُكْثِرَ له، ومن أقلَّ أُقِلَّ له، ومن أمسك أُمسِكَ عليه،

---

(١) صحيح البخاري (١٤٤٢)، وصحيح مسلم (١٠١٠). وسلف ٣/٤٥٨.
(٢) شعب الإيمان (١٠٧١٢).
(٣) صحيح البخاري (٧٤٩٦).
(٤) نوادر الأصول ص١١٣، الأصل الثالث والسبعون.

يا زبير فكل وأطعم، ولا تُوكِ فيوكَى عليك، ولا تحصي فيحصَى عليك، ولا تقتِّر فيقتَّر عليك، ولا تعسِّر فيعسَّر عليك». الحديث[1].

ومعنى «الرازقين»: الموصلين للرزق والموهبين له، فيطلق الرازقُ حقيقةً على الله عزَّ وجلَّ وعلى غيره، ويشعر بذلك: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ [النساء:٨]. نعم لا يُقَال لغيره سبحانه: رزَّاقٌ[2]، فلا إشكال في قوله سبحانه: «وهو خير الرازقين». ووجه الأَخْيَرية في غاية الظهور.

وقيل: إطلاقُ الرازق على غيره تعالى مجازٌ باعتبار أنَّه واسطةٌ في إيصال رزقه تعالى، فهو رازقٌ صورةً، فاستشكل أمرُ التفضيل بأنَّه لا بدَّ من مشاركة المفضَّل للمفضَّل عليه في أصل الفعل حقيقةً لا صورة.

وأجاب الآمديُّ بأنَّ المعنى: خيرُ من تسمَّى بهذا الاسم وأطلق عليه حقيقةً أو مجازاً، وهو ضربٌ من عموم المجاز.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: المستكبرين والمستضعفين، أو الفريقين وما كانوا يعبدون من دون الله عزَّ وجلَّ. و«يوم» ظرفٌ لمضمرٍ متقدِّم، أي: واذكر يوم، أو متأخر، أي: ويوم نحشرهم جميعاً ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلى آخره، يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيطُ به نطاق المقال.

وظاهرُ العطف بـ «ثم» يقتضي أنَّ القولَ للملائكة متراخٍ عن الحشر، وفي الآثار ما يشهدُ له، فقد روي أنَّ الخلقَ بعد أن يُحشَروا يبقون قياماً في الموقف سبع آلاف سنة لا يُكَلَّمون[3]، حتى يَشفع في فصل القضاء نبيُّنا ﷺ، فلعلَّه عند ذلك يقول سبحانه وتعالى للملائكة عليهم السلام: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠﴾ تقريعاً للمشركين وتبكيتاً وإقناطاً لهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغة من شفاعة الملائكة

---

(١) نوادر الأصول ص١٥١، الأصل السادس عشر والمئة، ومعنى: ولا توكِ فيوكى عليك. قال الفيومي في المصباح المنير(الوكاء): الوكاء: حبل يُشَدُّ به رأس القِرْبة. وأوكيتُ السِّقاء: شددت فمه بالوكاء.

(٢) في الأصل و(م): رازق. والتصويب من النسخة النعمانية.

(٣) لم نقف عليه.

عليهم السلام؛ لعلمه سبحانه بما تُجيب به على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة:١١٦]، وتخصيصُهم بالذكر لأنَّهم أشرفُ شركاء المشركين الذين لا كتاب لهم، والصالحون عادةً للخطاب. وعبادتهم مبدأ الشرك بناءً على ما نقل ابنُ الورديِّ في «تاريخه» من أنَّ سبب حدوث عبادة الأصنام في العرب أنَّ عمرو بن لحي مرَّ بقومٍ بالشام، فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم، فقالوا له: هذه أربابٌ نتخذها على شكل الهياكل العلويَّة، فنستنصر بها ونستسقي، فتبعَهم، وأتى بصنمٍ معه إلى الحجاز، وَسَّول للعرب فعبدوه، واستمرَّت عبادةُ الأصنام فيهم إلى أن جاءَ الإسلام، وحدثت عبادةُ عيسى عليه السلام بعد ذلك بزمانٍ كثير.

فبظهور قصورهم عن رتبة المعبوديَّة وتنزُّههم عن عبادتهم، يظهر حال سائر الشركاء بطريق الأولوية.

و«هؤلاء» مبتدأ، و«كانوا يعبدون» خبره، و«إياكم» مفعول «يعبدون» قُدِّم للفاصلة، مع أنَّه أهمُّ لأمر التقريع.

واستدلَّ بتقديمه على جواز تقديم خبر «كان» ـ إذا كان جملةً ـ عليها، كما ذهب إليه ابن السرَّاج، فإنَّ تقديمَ المعمول مؤذِنٌ بجواز تقديم العامل.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ هذه القاعدة ليست مطَّردة، ثم قال: والأولى منعُ ذلك، إلَّا أن يدلَّ على جوازه سماعٌ من العرب(١).

وقرأ جمهور القراء: «نحشرهم»، «ثم نقول» بالنون في الفعلين(٢).

﴿قَالُوا۟﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا تقول الملائكة حينئذ؟ فقيل: تقول منزِّهين(٣) عن ذلك: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على التحقُّق، أي: أنت الذي نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم، كأنَّهم بيَّنوا بذلك براءتهم من الرضى بعبادتهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنَّهم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

(٢) التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٥٧. وقرأ حفص ويعقوب بالياء.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وجاء في تفسير أبي السعود ٥/ ١٣٧ـ والكلام منه ـ: متنزهين.

عبدوهم حقيقةً بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، كما روي عن مجاهد، حيث كانوا يطيعونَهم فيما يسوِّلون(١) لهم من عبادة غير الله تعالى.

وقيل: صَوَّرت الشياطينُ لهم صور قومٍ من الجنِّ، وقالوا: هذه صورُ الملائكة فاعبدوها. فعبدوها.

وقيل: كانوا يدخلون في أجواف الأصنام إذا عُبِدت فيُعْبَدون بعبادتها.

وقيل: أرادوا أنَّهم عبدوا شيئاً تخيَّلوه صادقاً على الجنِّ، لا صادقاً علينا، فهم يعبدونَ الجنَّ حقيقةً دوننا.

وقال ابن عطية: يجوزُ أن يكونَ في الأمم الكافرة مَن عَبَد الجنَّ، وفي القرآن آياتٌ يظهر منها أنَّ الجنَّ عُبِدت، في سورة الأنعام وغيرها(٢).

﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضمير الثاني للجنِّ، والأول للمشركين، والأكثر على ظاهره؛ لأنَّ من المشركين من لم يؤمن بهم وعبدهم اتِّباعاً لقومه، كأبي طالب، أو الأكثر بمعنى الكلِّ، واختار في «البحر» الأولَ؛ لأنَّ كونه بمعنى الكلِّ ليس حقيقةً، وقال: إنَّهم لم يدَّعوا الإحاطة، إذ يكون في الكفار من لم يُطْلِع اللهُ تعالى الملائكةَ عليهم السلام عليهم، أو أنَّهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجنِّ؛ لأنَّ الإيمان من أعمال القلب، فلم يذكروا الاطِّلاع على عمل جميع قلوبهم؛ لأنَّ ذلك لله عزَّ وجلَّ(٣).

وجُوِّزَ أن يكون الضمير الأول للإنس، فالأكثر على ظاهره، أي: غالبهم مصدِّقون أنَّهم آلهة، وقيل: مصدِّقون أنَّهم بنات الله ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] وقيل: مصدِّقون أنَّهم ملائكة.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ من جملة ما يقال للملائكة عليهم السلام عند جوابهم بالتبرُّؤ عمَّا نَسب إليهم المشركون؛ يخاطبون بذلك على رؤوس

---

(١) في الأصل: يسولوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤، والمراد قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية: ١٠٠].

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

الأشهاد؛ إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن زاعمي عبادتهم، وتنصيصاً على ما يوجب خيبةَ رجائهم بالكلية. وقيل: للكفار، وليس بذاك.

والفاء لترتيب الإخبار بما بعدها على جواب الملائكة عليهم السلام، ونسبةُ عدم النفع والضرِّ إلى البعض المبهَم للمبالغة فيما هو المقصود، الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدَة بنظمه في سلك عدم نفع العبدَة لهم، كأنَّ نفعَ الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم.

والتعرُّضُ لعدم الضرِّ ـ مع أنه لا بحث عنه ـ لتعميم العجز، أو لحمل عدمِ النفع على تقدير العبادة، وعدم الضرِّ على تقدير تركها.

وقيل: لأنَّ المراد دفعُ الضرِّ، على حذف المضاف. وفيه بُعْدٌ.

والمراد بـ «اليوم» يوم القيامة، وتقييد الحكم به ـ مع ثبوته على الإطلاق ـ لانعقاد رجاء المشركين على تحقُّق النفع يومئذٍ.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ عطفٌ على «نقول للملائكة». وقيل: على «لا يملك».

وتُعقِّبَ بأنَّه ممَّا يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتِّباً على جوابهم المحكي، وهذا حكايةٌ لرسول الله ﷺ لمَا سيقال للعبدة يومئذٍ إثرَ حكاية ما سيقال للملائكة عليهم السلام. وأجيب بأنَّ ذلك ليس بمانعٍ. فتدبر.

ووقع الموصول هنا وصفاً للمضاف إليه، وفي «السجدة» في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآية: ٢٠] صفة للمضاف، فقال أبو حيان: لأنَّهم ثمت كانوا ملابسين للعذاب، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] فوصف لهم ثمت ما لابَسوه، وهنا لم يكونوا ملابسين له، بل ذلك أول ما رأوا النار عقب الحشر، فوصف لهم ما عاينوه[١].

وكون الموصول هنا نعتاً للمضاف على أنَّ تأنيثَه مكتسَبٌ لتتحد الآيتان = تكلُّفٌ سمج.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٧.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بيانٌ لبعضٍ آخر من كفرهم، أي: إذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتُنا الناطقةُ بحقِّيَّة التوحيد وبطلان الشرك ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون رسولَ الله ﷺ التالي للآيات، والإشارةُ للتحقير ـ قاتلَهم الله تعالى ـ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيجعلَكم من أتباعه من غير أن يكون له دينٌ إلهيٌّ، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم؛ لتحريك عِرْق العصبيَّة منهم، مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنونَ القرآن المتلوَّ، والإشارةُ كالإشارة السابقة ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي: كلامٌ مصروفٌ عن وجهه، لا مصداق له في الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ بإسناده إلى الله عز وجل.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأمر النبوَّة التي معها من خوارق العادة ما معها، أو للإسلام المفرِّق بين المرء وزوجه وولده، أو القرآن الذي تتأثَّر به النفوس، على أنَّ العطف لاختلاف العنوان، بأنْ يُرَاد بالأول معناه، وبالثاني نظمُه المعجز ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من غير تدبُّرٍ ولا تأمُّل فيه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ ظاهرٌ سحريَّته.

وفي ذكر «قال» ثانياً، والتصريح بذكر الكفرة، وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه[(١)]، وما في «لمَّا» من المسارعة إلى البتِّ بهذا القول الباطل = إنكارٌ عظيمٌ له وتعجيب[(٢)] بليغٌ منه.

وجُوِّزَ أن تكون كلُّ جملةٍ صدرت من قومٍ من الكفرة.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾ أي: أهل مكَّة ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تقتضي صحَّة الإشراك ليعذروا فيه، فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١] وإلى هذا ذهب ابن زيد.

---

(١) قوله: وما في اللامين. . . ، يعني به مجيء القائلين والمقول فيه معرَّفين، الأول ـ وهو «الذين كفروا» ـ بالموصولية، والثاني ـ وهو «للحق» ـ بأل العهدية المساوية للموصولية في العهد، فلذا قال: في اللامين، تغليباً. حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٩.

(٢) في الأصل و(م): وتعجب، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٢٠٦، وتفسير أبي السعود ٧/ ١٣٨.

وقال السُّدّيّ: المعنى: ما آتيناهم كتباً يدرسونها فيعلموا بدراستها بطلانَ ما جئتَ به. ويرجعُ إلى الأول، والمقصود نفي أن يكون لهم دليلٌ على صحَّة ما هم عليه من الشرك.

و«من» صلة، وجمع الكتب إشارة ـ على ما قيل ـ إلى أنَّه لشدَّة بطلانه واستحالة إثباته بدليلٍ سمعيٍّ أو عقليٍّ يحتاج إلى تكرُّر الأدلة وقوَّتها، فكيف يُدَّعى ما تواترت الأدلَّة النيِّرة على خلافه.

وقرأ أبو حيوة: «يَدَّرِسُونَها» بفتح الدال وشدِّها وكسر الراء(١)، مضارع ادَّرس افتعل من الدرس، ومعناه: يتدارسونها، وعنه أيضاً: «يُدَرِّسونها» من التدريس(٢)، وهو تكرير الدرس، أو من دَرَسَ الكتاب مخففاً، ودَرَّس الكتب ـ مشدَّداً ـ التضعيفُ فيه باعتبار الجمع.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: وما أرسلنا إليهم قبلَك نذيراً يدعوهم إلى الشرك، وينذرهم بالعقاب على تركه، وقد بان من قبلُ أنْ لا وجهَ له بوجهٍ من الوجوه، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ؟! وفيه من التهكُّم والتجهيل ما لا يخفى.

ويجوزُ أن يراد أنَّهم أمِّيُّون كانوا في فترةٍ، لا عذرَ لهم في الشرك، ولا في عدم الاستجابة لك، كأهلِ الكتاب الذين لهم كتبٌ ودينٌ يأبون تركَه ويحتجُّون على عدم المتابعة بأنَّ نبيَّهم حذَّرهم تركَ دينه، مع أنَّه بيِّنُ البطلان؛ لثبوت أمرِ من قبله باتِّباعه وتبشيرِ الكتب به.

وذكر ابنُ عطية أنَّ الأرضَ لم تخلُ من داعٍ إلى توحيد الله تعالى، فالمراد نفي إرسال نذيرٍ يختصُّ بهؤلاء ويشافههم، وقد كان عند العرب كثيرٌ من نذارة إسماعيلَ عليه السلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] ولكن لم يتجرَّد للنذارة وقاتلَ عليها إلَّا محمَّدٌ ﷺ(٣). اهـ.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٢٤، والبحر المحيط ٧/ ٢٨٩.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٨٩.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.

ثمَّ إنَّه تعالى هدَّدهم بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم المتقدِّمة والقرون الخالية بما كذَّبوا ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ أي: أهل مكَّة ﴿مِعۡشَارَ﴾ أي: عشر ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ وقال قومٌ: المعشار: عُشْرُ العشر، ولم يرتضه ابنُ عطيَّة[1]. وقال الماورديُّ[2]: المراد المبالغة في التقليل، أي: ما بلغوا أقلَّ قليلٍ ممَّا آتينا أولئك المكذِّبين من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال.

﴿فَكَذَّبُواْ﴾ أي: أولئك المكذِّبون ﴿رُسُلِيۖ﴾ الذين أرسلتُهم إليهم ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: إنكاري لهم بالتدمير، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

والفاء الأولى سببيَّة، و«كذب» الأول تَنزَّلَ[3] منزلةَ اللازم، أي: فعل الذين من قبلهم التكذيبَ وأقدموا عليه، ونظيرُ ذلك أن يقول القائل: أَقْدَمَ فلانٌ على الكفر، فكفر بمحمدٍ ﷺ. ومن هنا قالوا: إنَّ «كذبوا رسلي» عطفٌ على «كذب الذين» عطفَ المقيَّد على المطلق، وهو تفسيرُ معنًى، و«ما بَلَغوا» اعتراض، والفاء الثانية فصيحةٌ، فيكون المعنى: فحين كذَّبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير، فكيف كان نكيري لهم. وجعل التدمير إنكاراً تنزيلاً للفعل منزلة القول، كما في قوله:

. ونَشْتِمُ بالأفعالِ لا بالتكلُّمِ[4]

أو على نحو:

تحيةُ بَيْنِهم ضربٌ وجيعُ[5]

وجَوَّز بعضُهم أن تكون صيغة التفعيل في: «كذب الذين» للتكثير، وفي «كذبوا» للتعدية، والمكذِّب فيهما واحد، أي أنَّهم أكثروا الكذب وأَلِفُوه فصار سجيَّةً لهم، حتى اجترؤوا على تكذيب الرسل، وعلى الوجهين لا تكرار.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٤.
(٢) في النكت والعيون ٤/ ٤٥٥.
(٣) لفظة: تنزل. من (م)، وليست في الأصل.
(٤) عجز بيت لمعبد بن علقمة، وسلف ٧/ ٢٧٦.
(٥) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٥/ ٦٤.

وجُوِّز أن يكون «كذَّبوا رسلي» منعطفاً على «ما بَلَغوا» من تتمَّة الاعتراض، والضمير لأهل مكَّة، يعني هؤلاء لم يبلغوا معشار ما آتينا أولئك المكذِّبين الأوَّلين، وفضَلوهم في التكذيب؛ لأنَّ تكذيبَهم لخاتَم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام تكذيبٌ لجميع الرسل عليهم السلام من وجهين، وعليه لا يُتَوَهَّم تكرارٌ كما لا يخفى.

وكون جملة «ما بَلَغوا» معترضةً هو الظاهر، وجعلُ «وكذب الذين من قبلهم» تمهيداً؛ لئلَّا تكون تلك الجملة كذلك، يدفعه: «فكيف كان نكير»؛ لأنَّ معناه للمكذِّبين الأولين ألبتة، فلا التئام دون القول بكونها معترضة.

وإرجاع ضمير «بَلَغوا» إلى أهل مكَّة، والضمير المنصوب في «آتيناهم» إلى «الذين من قبلهم»، وبيان الموصول بما سمعت، هو المرويُّ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد.

وقيل: الضمير الأول للذين من قبلهم، والضمير الثاني لأهل مكَّة، أي: وما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى.

وقيل: الضميران للذين من قبلهم، أي: كذبوا وما بلغوا في شكر النعمة ومقابلة المنَّة عشر ما آتيناهم من النعم والإحسان إليهم. واستظهر ذلك أبو حيان معلِّلاً له بتناسق الضمائر، حيث جعل ضمير «فكذبوا» للذين من قبلهم[1]، فلا تغفل.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: ما أرشدكم وأنصح لكم إلَّا بخصلةٍ واحدةٍ، وهي ـ على ما قال قتادة ـ ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ على أنَّه في تأويل مصدر بدلٌ منها، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي قيامكم، أو مفعولٌ لفعلٍ محذوف، أي: أعني قيامكم.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٨٩-٢٩٠.

وجَوَّز الزمخشريُّ كونَه عطف بيان لـ «واحدة»[(١)]. واعترض بأن «أن تقوموا» معرفة؛ لتقديره بـ: قيامكم، وعطف البيان يشترطُ فيه عند البصريين أن يكون معرفةً من معرفة، وهو عند الكوفيين يتبعُ ما قبلَه في التعريف والتنكير، والتخالف ممَّا لم يذهب إليه ذاهب.

والظاهر أنَّ الزمخشريَّ ذاهبٌ إلى جواز التخالف، وقد صرَّح ابنُ مالك في «التسهيل» بنسبة ذلك إليه[(٢)]، وهو من مجتهدي علماء العربية، وجُوِّزَ أن يكون قد عبَّر بعطف البيان وأراد البدل لتآخيهما، وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمِّي التوكيدَ صفةً، وعطفَ البيان صفةً[(٣)]، ثمَّ إنَّ كون المصدر المسبوك معرفةً أو مؤوَّلاً بها دائماً غيرُ مسلَّم.

والقيام مجازٌ عن الجدِّ والاجتهاد. وقيل: هو على حقيقته، والمراد القيام عن مجلس رسول الله ﷺ. وليس بذاك، وقد رُوي نفيُ إرادته عن ابن جريج.

أي: إن تجدُّوا وتجتهدوا في الأمر بإخلاصٍ لوجه الله تعالى ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: متفرِّقين اثنين اثنين وواحداً واحداً، فإنَّ في الازدحام على الأغلب تهويشَ الخاطر، والمنعَ من الفكر، وتخليطَ الكلام، وقلَّة الإنصاف[(٤)]، كما هو مشاهدٌ في الدروس التي يجتمعُ فيها الجماعة، فإنَّه لا يكاد يوقف فيها على تحقيق.

وفي تقديم «مثنى» إيذانٌ بأنَّه أوثق وأقرب إلى الاطمئنان. وفي «البحر»[(٥)]: قدّم لأنَّ طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرةٍ واحدةٍ، فإذا انقدحَ الحقُّ بين الاثنين فكَّر كلٌّ واحدٍ منهما بعد ذلك، فيزيدُ بصيرةً، وشاع الفتح بين الاثنين.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٤.

(٢) التسهيل ص ١٧٥، وشرحه لابن مالك ٣/ ٣٢٦.

(٣) انظر الأول في الكتاب ٢/ ٣٥١، ٣٥٩، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٥، ٣٩١، والثاني فيه ٢/ ١٩٢.

(٤) في الأصل: الإنصات. والمثبت من (م) والبحر ٧/ ٢٩٠.

(٥) ٧/ ٢٩١.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمره ﷺ وما جاء به لتعلموا حقِّيَّته. والوقف عند أبي حاتم هنا، وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ استئنافٌ مسوقٌ من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمُّل؛ بأنَّ مثل هذا الأمر العظيم الذي تحتَه ملكُ الدنيا والآخرة لا يتصدَّى لادّعائه إلَّا مجنونٌ لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان، وظهورِ عجزه، أو مؤيَّدٌ من عند الله تعالى، مرشَّحٌ للنبوَّة، واثقٌ بحجَّته وبرهانه، وإذ قد علمتم أنَّه عليه الصلاة والسلام أرجحُ الناس عقلاً، وأصدقُهم قولاً، وأزكاهم نفساً، وأفضلُهم علماً، وأحسنُهم عملاً، وأجمعُهم للكمالات البشرية = وجبَ أنْ تصدِّقوه في دعواه، فكيف وقد انضمَّ إلى ذلك معجزاتٌ تخرُّ لها صمُّ الجبال.

والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بـ «صاحبكم» للإيماء إلى أنَّ حاله ﷺ مشهورٌ بينهم؛ لأنَّه نشأ بين أظهرهم معروفاً بما ذكرنا.

وجُوِّزَ أن يكون متعلِّقاً بما قبله، والوقفُ على «جِنَّة» على أنَّه معمولٌ[(١)] لفعل: علم، مقدَّر لدلالة التفكُّر عليه؛ لكونه طريق العلم، أي: «ثم تتفكروا» فتعلموا «ما بصاحبكم من جِنَّة». أو معمولٌ لـ «تتفكَّروا» على أنَّ التفكُّر مجازٌ عن العلم، أو معمول له بدون ارتكاب تجوُّزٍ؛ بناءً على ما ذهب إليه ابنُ مالك في «التسهيل» من أنَّ «تفكَّر» يعلَّق حملاً على أفعال القلوب[(٢)].

وجُوِّزَ أن يكون هناك تضمينٌ، أي: ثمَّ تتفكروا عالمين ما بصاحبكم من جِنَّة.

وقال ابن عطية[(٣)]: هو عند سيبويه جوابُ ما ينزل منزلةَ القسم؛ لأنَّ «تفكَّر» من الأفعال التي تعطي التمييز[(٤)] كـ «تبيَّن»، وتكون الفكرة على هذا في آيات الله تعالى والإيمان به. اهـ. وهو كما ترى.

و«ما» مطلقاً نافية، والباء بمعنى «في»، و«من» صلة.

---

(١) في (م): مفعول.
(٢) شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٨٩.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، وذكره عنه أيضاً أبو حيان في البحر ٧/ ٢٩١.
(٤) في المحرر الوجيز: التي تعطي التحقيق، والمذكور موافق لما في البحر.

وقيل: «ما» للاستفهام الإنكاريّ، و«من» بيانيَّة، وجُوِّزَ أنْ تكون صلةً أيضاً. وفيه تطويلُ المسافة، وطيُّها أولى.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٤٦﴾ هو عذابُ الآخرة، فإنَّه ﷺ مبعوثٌ في نَسَمِ الساعة[(١)]، وجاء: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»، وضمَّ عليه الصلاة والسلام الوسطى والسبابة على المشهور[(٢)].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: مهما سألتكم من نفعٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفيُ السؤال رأساً، كقولك لصاحبك: إنْ أعطيتني شيئاً فخذه. وأنت تعلمُ أنَّه لم يعطِك شيئاً. ف «ما» شرطية مفعول «سألتكم»، وهو المرويُّ عن قتادة.

وقيل: هي موصولة، والعائد محذوف، و«من» للبيان، ودخلت الفاء في الخبر لتضمُّنها معنى الشرط، أي: الذي سألتكموه من الأجر فهو لكم وثمرته تعودُ إليكم، وهو ـ على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ إشارةٌ إلى المودَّة في القربى في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وكونُ ذلك لهم على القول بأنَّ المراد بالقربى قرباهم ظاهر، وأما على القول بأنَّ المراد بها قرباه عليه الصلاة والسلام، فلأنَّ قرباه ﷺ قرباهم أيضاً، أو هو إشارةٌ إلى ذلك وإلى ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧] وظاهرٌ أنَّ اتخاذ السبيل إليه تعالى منفعتُهم الكبرى.

وجوز كون «ما» نافيةً، و«من» صلة، وقوله سبحانه: «فهو لكم» جواب شرط مقدَّر، أي: فإذا لم أسألكم فهو لكم. وهو خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ يؤيِّدُ إرادةَ نفي السؤال رأساً.

---

(١) يشير إلى حديث أبي جبيرة رضي الله عنه مرفوعاً: «بعثتُ في نسم الساعة» قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٠٩: أخرجه البزار بإسناد حسن من حديث أبي جبيرة بن الضحاك الأنصاري، وأخرجه الحسن بن سفيان، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية [٤/ ١٦١]. ومعنى: نَسَم الساعة. هو من النسيم أول هبوب الريح الضعيفة، أي: بُعثت في أول أشراط الساعة. النهاية (نسم).

(٢) سلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

وقُرئ: «إن أجريْ» بسكون الياء[١].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾ أي: مُطّلعٌ، فيعلم سبحانه صدقي وخلوصَ نيَّتي.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ قال السُّدِّيُّ وقتادة: بالوحي، وفي روايةٍ أخرى عن قتادة: بالقرآن، والمآلُ واحد.

وأصلُ القذف: الرميُ بدفعٍ شديدٍ، وهو هنا مجازٌ عن الإلقاء. والباء زائدة، أي: إنَّ ربي يلقي الوحي وينزلُه على قلب من يَجتبيه من عباده سبحانه.

وقيل: القذف مُضَمَّنٌ معنى الرمي، فالباء ليست زائدة.

وجُوِّز أن يراد بالحقِّ مقابل الباطل، والباء للملابسة، والمقذوف محذوف، والمعنى: إنَّ ربِّي يلقي ما يلقي إلى أنبيائه عليهم السلام من الوحي بالحقِّ لا بالباطل.

وعن ابن عباس: إنَّ المعنى يقذف الباطلَ بالحقِّ، أي: يورده عليه حتى يبطلَه عزَّ وجلَّ ويزيلَه، والحقُّ مقابل الباطل، والباء مثلها في قولك: قتلته بالضرب.

وفي الكلام استعارةٌ مصرّحةٌ تبعيَّة، والمستعار منه حسِّيٌّ، والمستعار له عقليّ. وجُوِّزَ أن تكون الاستعارة مكنيَّة.

وقيل: المعنى: يرمي بالحقِّ إلى أقطار الآفاق، على أنَّ ذلك مجازٌ عن إشاعته، فيكون الكلام وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه. وفيه من الاستعارة ما فيه.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٤٨﴾ خبرٌ ثانٍ، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو سبحانه علَّامُ الغيوب، أو صفةٌ محمولةٌ على محلِّ «إنَّ» مع اسمها، كما جوَّزهُ الكثير من النحاة، وإنْ منعَه سيبويه، أو بدلٌ من ضمير «يقذف»، ولا يلزم خلوُّ جملة الخبر من العائد؛ لأنَّ المبدل منه ليس في نيَّة الطرح من كلِّ الوجوه. وقال الكسائيُّ: هو نعتٌ لذلك الضمير، ومذهبُه جوازُ نعت المضمر الغائب.

---

(١) هي قراءة شعبة عن عاصم، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، ويعقوب وخلف. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.

وقرأ عيسى وزيدُ بن عليٍّ وابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب عن طلحة: «عَلَّامَ» بالنصب[١]، فقال الزمخشريُّ: صفة لـ «ربِّي»[٢]. وقال أبو الفضل الرازي وابن عطية[٣]: بدل. وقال الحوفي: بدلٌ أو صفة. وقيل: نصب على المدح.

وقرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائيُّ: «الغِيوب» بالكسر كالبيوت، والباقون بالضم كالعشور، وهو فيهما جمع[٤].

وقرئ بالفتح كصبور على أنه مفرد للمبالغة[٥].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلامُ والتوحيد، أو القرآن.

وقيل: السيف؛ لأنَّ ظهورَ الحقِّ به. وهو كما ترى.

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ أي: الكفر والشرك ﴿وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: ذهبَ واضمحلَّ بحيثُ لم يبقَ له أثرٌ، مأخوذٌ من هلاك الحيِّ، فإنَّه إذا هلك لم يبق له إبداءٌ، أي: فعلُ أمرٍ ابتداءً، ولا إعادة، أي: فِعْلُه ثانياً، كما يقال: لا يأكل ولا يشرب، أي: ميت، فالكلام كنايةٌ عما ذكر، أو مجازٌ متفرِّعٌ على الكناية، وأنشدوا لعبيدِ بن الأبرص:

أقــفــرَ مــن أهــلــه عــبــيــدُ فــالــيــوم لا يــبــدي ولا يــعــيــدُ[٦]

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٩٢. وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥ عن عيسى وابن أبي إسحاق.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٥، والكلام من البحر ٧/ ٢٩٢.

(٤) قراءة أبي بكر وحمزة في التيسير ص ١٠١، والنشر ٢/ ٢٢٦. وقراءة الكسائي وابن ذكوان المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

(٥) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٥، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٢، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٢.

(٦) البيت في الأغاني ٢٢/ ٨٨ وفيه:

فــلــيــس يــبــدي ولا يــعــيــد

وذكر محققه أن في بعض النسخ:

فــالــيــوم لا يــبــدي ولا يــعــيــد

=

وقال جماعةٌ: الباطل: إبليس، وإطلاقه عليه لأنه مبدؤه ومنشؤه، ولا كناية في الكلام عليه، والمعنى: لا ينشئ خلقاً ولا يعيد، أو: لا يُبْدِئُ خيراً لأهله ولا يعيد، أي: لا ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وقيل: هو الصنم، والمعنى ما سمعت. وعن أبي سليمان أنَّ المعنى: إنَّ الصنمَ لا يبتدئ من عنده كلاماً فيجاب، ولا يردُّ ما جاء من الحقِّ بحجَّة.

و «ما» على جميع ذلك نافية، وقيل: هي على ما عدا القول الأوَّل للاستفهام الإنكاريّ، منتصبةٌ بما بعدها، أي: أيَّ شيءٍ يبدئ الباطل، وأيَّ شيء يعيد؟ ومآله النفي.

والكلام جُوِّزَ أن يكون تكميلاً لما تقدَّم، وأن يكون من باب العكس والطرد، وأن يكون تذييلاً مقرِّراً لذلك، فتأمل.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: عائداً ضررُ ذلك ووباله عليها، فإنَّها الكاسبةُ للشرور والأمَّارةُ بالسوء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحقِّ ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإنَّ الاهتداءَ بهدايته تعالى وتوفيقه عزَّ وجلَّ.

و «ما» موصولةٌ أو مصدريَّة، وكان الظاهر: وإن اهتديتُ فلها، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، أو: إن ضللتُ فإنما أضلُّ بنفسي، ليظهر التقابل، لكنَّه عدلَ عن ذلك اكتفاءً بالتقابل بحسب المعنى؛ لأنَّ الكلام عليه أجمع، فإنَّ كلَّ ضررٍ فهو من النفس وبسببها، وعليها وبالُه.

وقد دلَّ لفظُ «على» في القرينة الأولى على معنى اللام في الثانية، والباء في الثانية على معنى السببيَّة في الأولى، فكأنَّه قيل: قل: إنْ ضللتُ فإنما أضلُّ بسبب نفسي على نفسي، وإن اهتديتُ فإنَّما اهتدي لنفسي بهداية الله تعالى وتوفيقه سبحانه. وعبَّر عن هذا بـ «ما يوحي إليَّ ربي» لأنه لازمه.

= ثم قال: والرواية التي معنا أصوب، لأن الأبيات من مخلع البسيط، أما المصراع الوارد في تلك النسخ فمن الرجز. اهـ.

وأورده البغدادي في الخزانة ٢/١١٨ بمثل رواية المصنف.

وجَعْلُ «على» للتعليل ـ وإن ظهر عليه التقابل ـ ارتكابٌ لخلاف الظاهر من غير نكتة.

وجُوِّزَ أن يكون معنى القرينة الأولى: قل إن ضللتُ فإنَّما أضلُّ عليَّ لا على غيري. ولا يظهرُ عليه أمر التقابل مطلقاً.

والحكم ـ على ما قال الزمخشريُّ[1] ـ عامٌّ، وإنما أمر ﷺ أنْ يسندَه إلى نفسه؛ لأنَّ الرسولَ إذا دخل تحته مع جلالة محلِّه وسداد طريقته، كان غيره أولى به.

وقال الإمام: أي: إن ضلال نفسي كضلالكم؛ لأنه صادرٌ من نفسي ووباله عليها، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم بالنظر والاستدلال، وإنمَّا هو بالوحي المنير[2]. فيكون مجموع الحكمين عنده مختصًّا به عليه الصلاة والسلام، وفيما ذكره دلالة ـ على ما قال الطيبي ـ على أنَّ دليل النقل أعلى وأفحم[3] من دليل العقل. وفيه بحث.

وقرأ الحسن وابن وثَّاب وعبد الرحمن المقري: «ضَلِلت» بكسر اللام، و«أَضَلُّ» بفتح الضاد، وهي لغة تميم. وكسر عبد الرحمن همزة «إِضل»[4].

وقُرئ: «رَبِّيَ» بفتح الياء[5].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ فلا يخفى عليه سبحانه قولُ كلٍّ من المهتدي والضالّ وفعلُه، وإنْ بالغَ في إخفائهما، فيجازِي كلّاً بما يليق به[6].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ أي: اعتراهم انقباضٌ ونِفَارٌ من الأمر المهول المخيف. والخطاب في «ترى» للنبيِّ ﷺ، أو لكلٍّ من تصحُّ منه الرؤية.

ومفعول «ترى» محذوفٌ، أي: الكفار، أو فزعَهم، أو هو «إذ» على التجوُّز،

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٢) تفسير الرازي ٢٥/ ٢٧١.
(٣) في (م): وأفخم.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٢٩٢.
(٥) هي قراءة أبي عمرو ونافع وأبي جعفر. انظر التيسير ص ١٨٢، والنشر ٢/ ٣٥١.
(٦) لفظة: به. ليست في (م).

إذ المراد برؤية الزمان رؤيةُ ما فيه، أو هو متروكٌ؛ لتنزيل الفعل منزلةَ اللازم، أي: لو تقع منك رؤية، وجواب «لو» محذوف، أي: لرأيتَ أمراً هائلاً.

وهذا الفزع ـ على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ـ يومَ القيامة[١]، والظاهرُ عليه أنَّه فزعُ البعث، وهو مرويٌّ عن الحسن.

وأخرج ابنُ المنذر وغيره عن قتادة أنَّه في الدنيا عند الموت، حين عاينوا الملائكةَ عليهم السلام[٢].

وأخرج عبد بن حميد عن الضحَّاك أنَّه يومُ بدر[٣]. فقيل: هو فزع الحرب.

وعن السُّدِّيِّ وابن زيد: فزع ضرب أعناقهم ومعاينة العذاب.

وقيل: في آخر الزمان حين يظهر المهدي ويَبعث إلى السفيانيِّ جنداً فيهزمهم، ثم يسير السفيانيُّ إليه، حتى إذا كان ببيداء من الأرض خُسِف به وبمن معه، فلا ينجو منهم إلَّا المخبر عنهم، فالفزعُ فزع ما يصيبهم يومئذٍ.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون اللهَ عزَّ وجلَّ بهربٍ أو نحوه عمَّا يريد سبحانه بهم.

﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ من الموقف إلى النار، أو من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من صحراء بدر إلى القليب، أو من تحت أقدامهم إذا خُسِف بهم. والمراد بذكر قرب المكان سرعةُ نزول العذاب بهم، والاستهانة بهم وبهلاكهم، وإلَّا فلا قرب ولا بُعْدَ بالنسبة إلى الله عزَّ وجلَّ.

والجملة عطفٌ على «فَزِعوا» على ما ذهب إليه جماعة، قال في «الكشف»: وكأنَّ فائدة التأخير أنْ يقدّر: فلا فوت، ثانياً؛ إمَّا تأكيداً، وإما أنَّ أحدهما غير الآخر تنبيهاً على أنَّ عدمَ الفوت سببٌ للأخذ، وأنَّ الأخذ سببٌ لتحقُّقه وجوداً. وفيه مبالغة حسنة.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم أيضاً. وهو في تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٣٣.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٢٤٠.

وقيل: على «لا فوت» على معنى: فلم يفوتوا وأخذوا، واختاره ابن جنِّي معترضاً على ما تقدَّمَ بأنَّه لا يراد: ولو ترى وقتَ فزعهم وأخذِهم، وإنما المراد: ولو ترى إذ فزعوا ولم يفوتوا وأخذوا[١]. وبما نُقل عن «الكشف» يتحصَّل الجواب عنه.

وجُوِّزَ كونها حالاً من فاعل «فَزعوا»، أو من خبر «لا» المقدَّر، وهو «لهم»، بتقدير «قد» أو بدونه.

والفاء في «فلا فوت» قيل: إنْ كانت سببيَّةً فهي داخلةٌ على المسبَّب؛ لأنَّ عدمَ فوتهم من فزعهم وتحيُّرهم، وإنْ كانت تعليليَّة فهي تدخل على السبب؛ لترتُّب ذكره على ذكر المسبَّب، وإذا عطف «أخذوا» عليه أو جعل حالاً من الخبر يكون هو المقصود بالتفريع.

وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة: «فلا فوتٌ وأخذٌ» مصدرين منوَّنين[٢]. وقرأ أبيّ: «فلا فوتَ» مبنياً، و«أخذٌ» مصدراً منوَّناً[٣]. وإذا رفع «أخذ» كان خبرَ مبتدأ محذوف، أي: وحالهم أخذٌ، أو مبتدأٌ خبره محذوف، أي: وهناك أخذٌ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان[٤]، وقال الزمخشريُّ: قرئ «وأخذٌ» بالرفع، على أنَّه معطوفٌ على محلِّ «لا فوت»، ومعناه: فلا فوت هناك وهناك أخذ[٥].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالله عزَّ وجلَّ، على ما أخرجه جمعٌ عن مجاهد[٦].

---

(١) المحتسب ٢/ ١٩٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٢٢ عن عبد الرحمن فقط.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٩٣.

(٤) في البحر ٧/ ٢٩٣.

(٥) الكشاف ٣/ ٢٩٦.

(٦) الدر المنثور ٥/ ٢٤١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٣١٤.

وقالت فرقة: أي: بمحمد ﷺ، وقد مرَّ ذكره في قوله سبحانه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ:٤٦].

وقيل: الضمير للعذاب. وقيل: للبعث. ورُجِّحَ رجوعه إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام؛ لأنَّ الإيمان به ﷺ شاملٌ للإيمان بالله عزَّ وجلَّ وبما ذُكر من العذاب والبعث.

﴿وَأَنَّى لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناوش: التناول، كما قال الراغب[١]، ورويَ عن مجاهد.

وقال الزمخشريُّ: هو تناولٌ سهلٌ لشيءٍ قريب، يقال: ناشَهُ يَنُوشُه، وتَنَاوشَه القومُ، وتناوشوا في الحرب: ناش بعضُهم بعضاً بالسلاح[٢]. وقال الراجز:

فهي تنوشُ الحوضَ نوشاً من عَلَا نوشاً به تَقْطَعُ أجوازَ الفلا[٣]

وإبقاؤه على عمومه أولى، أي: من أين لهم أن يتناولوا الإيمان ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ فإنَّه في حيِّز التكليف، وهم منه بمعزلٍ بعيد.

ونقل في «البحر»[٤] عن ابن عباس تفسير «التناوش» بالرجوع، أي: من أين لهم الرجوعُ إلى الدنيا، وأنشد ابن الأنباريّ:

---

(١) في المفردات (نوش).
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٣) هو في مجاز القرآن ٢/ ١٥٠ (البيت الأول منه)، ولسان العرب (نوش) منسوباً لغيلان بن حريث. ونسب في الصحاح ولسان العرب (علا) لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢١٠.
ورود دون نسبة في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وإصلاح المنطق ص ٢٦٦، وأدب الكاتب ص ٥٠٣، والكامل ٣/ ١٤٣٣، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥-٣١٦، والمنصف لابن جني ١/ ١٢٤.
وقال البطليوسي في الاقتضاب ص ٤٢٧: لا أعلم لمن هذا الرجز.
وذكر سيبويه البيت الأول منه في الكتاب ٣/ ٤٥٣. قال البغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٤٣٩: وهذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعلم قائلها.
(٤) ٧/ ٢٩٣.

تــمــنَّــى أنْ تــؤوبَ إلــيَّ مَــيٌّ ولـيـس إلـى تـنـاوشـهـا سـبـيـلُ[(١)]

ولا يخفى أنَّه ليس بنصٍّ في ذلك. والمرادُ تمثيلُ حالهم في الاستخلاص بالإيمان بعدما فاتَ عنهم وبَعُدَ بحالِ مَن يريدُ أن يتناول الشيءَ بعد أنْ بَعُدَ عنه وفات في الاستحالة.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو عمرو وأبو بكر: «التناؤش» بالهمز[(٢)]، وخُرِّج على قلب الواو همزةً.

قال الزجاج: كلُّ واوٍ مضمومةٍ ضمَّةً لازمةً، فأنت بالخيار فيها، إن شئت أبقيتَها، وإن شئتَ قلبتَها همزةً، فتقول: ثلاث أَدْوُرٍ بلا همز، وثلاث أدؤر بالهمز[(٣)].

وتعقَّب ذلك أبو حيان فقال: إنَّه ليس على إطلاقه، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغماً فيها نحو: تعوُّد وتعوُّذ، مصدرين، وقد صَرَّحَ بذلك في «التسهيل»، ولا إذا صحَّت في الفعل نحو: تَرَهْوَكَ تَرَهْوُكاً، وتعاونَ تعاوُناً، وعلى هذا لا يصحُّ التخريج المذكور؛ لأنَّ التناوش كالتعاون في أنَّ واوه قد صحَّت في الفعل، إذ تقول: تناوش، فلا يهمز.

وقال الفراء[(٤)]: هو من نَأَشْتُ، أي: تأخَّرتُ، وأنشد قولَ نهشل:

تـمـنَّـى نَـئِـيْـشـاً أنْ يـكـون أطـاعـنـي وقـد حَـدَثَـت بـعـد الأمـور أمـورُ[(٥)]

---

(١) الزاهر لابن الانباري ١/ ٢٤٤، وهو أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٤٥٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٣٣٦، والبحر المحيط ٧/ ٢٩٣.
ووقع في الزاهر والمحرر: إليك. بدل: إلي.

(٢) التيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٣٥١، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٥٩.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٣٦٥.

(٥) نسبه الزمخشري في المستقصى ١/ ٣٠٢، والبصري في حماسته ٢/ ٣٧، وابن منظور في اللسان (نأش) لنهشل بن حَرِّي.
=

أي: تمنَّى أخيراً، والضميرُ للمولَى في قوله:

ومولًى عصاني واستبدَّ برأيه كما لم يُطَع فيما أشار(١) قصيرُ

فالهمزةُ فيه أصليَّةٌ، واللفظ وردَ من مادتين.

وقال بعضهم: هو من نأشت الشيءَ، إذا طلبتَه، قال رؤبة:

أقحمني جارُ أبي الخابوش إليك ناش القدر النؤوش(٢)

فالهمزة أصليَّةٌ أيضاً.

قيل: والتناؤش على هذين القولين بمعنى التناول من بُعْدٍ؛ لأنَّ الأخير يقتضي ذلك، والطلب لا يكون للشيء القريب منك الحاضر عندك، فيكون «من مكان بعيد» تأكيداً، أو يجرَّد التناوش لمطلق التناول. وحمل البعد في قيده على البعد الزمانيّ بحثَ فيه الشهاب بأنَّه غيرُ صحيح؛ لأنَّ المستعارَ منه هو في المكان، وما ذكر من أحوال المستعار له(٣).

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ﴾ حالٌ أو معطوفٌ أو مستأنفٌ، والأول أقرب، والضمير المجرور لما عاد عليه الضميرُ السابق في «آمنا به». ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل ذلك في أوان التكليف.

= وهو في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٦٥، وتفسير الطبري ١٩/ ٣١٥، والزاهر ١/ ٢٤٤، والصحاح (نأش) دون نسبة.

(١) في (م): أشاء. وهي غير واضحة في الأصل. والمثبت من اللسان (نأش)، وحاشية الشهاب ٧/ ٢١٢. ورواية البيت في الحماسة البصرية: في البقتين. بدل: فيما أشار.

(٢) ديوان رؤبة ص٧٧-٧٨، وفيه: أبي الخاموش، وقد اضطربت المصادر فيه، فجاء في غريب الحديث لإبراهيم الحربي ٢/ ٨٨٤: أبي الحاشوش. وفي المخصص لابن سيده ١٣/ ٥١: أفحمني جار أبي الخاموش. وفي تفسير البيضاوي (ومعه حاشية الشهاب) ٧/ ٢١٢: أبي الخاموش، مثل رواية الديوان.
قال الشهاب الخفاجي في حاشيته: وأقحمني في بيت رؤبة بالقاف والحاء المهملة، بمعنى الجاني، وأبو الخاموش بالخاء والشين المعجمتين عَلَم رجلٍ. وقيل: أفحم بالفاء، والجاموس بالجيم. ولست على ثقة منه. اهـ.

(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٢١٣.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وكانوا يرجمون بالمظنون، ويتكلَّمون بما لم يظهر لهم ولم ينشأ عن تحقيق في شأن الله عزَّ وجلَّ، فينسبونَ إليه سبحانه الشريكَ، ويقولون: الملائكةُ بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، أو في شأن الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقولون فيه ـ وحاشاه ـ: شاعر، وساحر، وكاهن، أو في شأن العذاب، أو البعث، فيبتُّون القولَ بنفيه.

﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ من جهةٍ بعيدة من أمر مَن تكلَّموا في شأنه، والجملة عطف على «وقد كفروا»، وكان الظاهر: وقَذَفوا، إلَّا أنه عدلَ إلى صيغة المضارع حكايةً للحال الماضية.

والكلام قيل: لعله تمثيلٌ لحالهم مِنَ التكلُّم بما يظهرُ لهم ولم ينشأ عن تحقيقٍ بحالِ من يرمي شيئاً لا يراه من مكانٍ بعيد. لا مجال للظنِّ في لحوقه.

وجَوَّز الزمخشريُّ كونَه عطفاً على «قالوا آمنا به» على أنَّهم مُثِّلوا في طلبهم تحصيلَ ما عطَّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: آمنا في الآخرة ـ وذلك مطلبٌ مستبعدٌ ـ بمن يقذفُ شيئاً من مكانٍ بعيدٍ لا مجال للظنِّ في لحوقه، حيث يريد أنْ يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً[١].

وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: «يُقْذَفون» مبنيّاً للمفعول[٢]. قال مجاهد: أي: ويَرجمهم الوحيُ بما يكرهون ممَّا غاب عنهم من السماء، وكأنَّ الجملةَ في موضع الحال من ضمير «كفروا»، كأنه قيل: وقد كفروا به من قبل، وهم يُقْذَفون بالحقِّ الذي غاب عنهم وخفيَ عليهم. والمراد تعظيم أمر كفرهم.

وجُوِّزَ أن يُرَاد بالغيب ما خفي من معايبهم، أي: وقد كفروا، وهم يقذفهم الوحيُ من السماء ويرميهم بما خفي من معايبهم.

وقال أبو الفضل الرازي: أي: ويُرمون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه:

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٦-٢٩٧.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٤، وهي في القراءات الشاذة ص ١٢٢، والمحتسب ٢/ ١٩٧ عن مجاهد فقط.

يجازَون بسوء أعمالهم، ولا علم لهم بمأتاه؛ إمَّا في حال تعذُّر التوبة عند معاينة الموت، وإمَّا في الآخرة. انتهى. وفي حالية الجملة عليه نوعُ خفاء.

وقال الزمخشريُّ: أي: وتَقذفهم الشياطينُ بالغيب ويلقِّنونهم إيَّاه[1]. وكأنَّ الجملة عطف على «قد كفروا».

وقيل: أي: يلقونَ في النار. وهو كما ترى.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال ابن عباس: هو الرجوع إلى الدنيا. وقال الحسن: هو الإيمان المقبول. وقال قتادة: طاعةُ الله تعالى. وقال السُّدِّيُّ: التوبة. وقال مجاهد: الأهلُ والمال والولد.

وقيل: أي: حيل بين الجيش والمؤمنين بالخسف بالجيش، أو بينهم وبين تخريب الكعبة، أو بينهم وبين النجاة من العذاب، أو بينهم وبين نعيم الدنيا ولذَّتِها، وروي ذلك عن مجاهد أيضاً.

و«حيل» مبنيٌّ للمجهول، ونائب الفاعل ـ كما قال أبو حيان ـ ضميرُ المصدر، أي: وحيل هو، أي: الحول، وحاصله: وقعت الحيلولة، ولإضماره لم يكن مصدراً مؤكِّداً، فناب مناب الفاعل، وعلى ذلك يخرَّجُ قوله:

وقالت متى يُبْخَل عليك ويُعْتَلَلْ يَسؤكَ وإن يُكْشفْ غرامُك تَدربِ[2]

أي: يعتلل هو، أي: الاعتلال.

وقال الحوفيُّ: قام الظرفُ مقام الفاعل. وتعقَّبه في «البحر»[3] بأنه لو كان كذلك لكان مرفوعاً، والإضافة إلى الضمير لا تسوِّغُ البناء، وإلا لساغ: جاء غلامَك، بالفتح، ولا يقوله أحد. نعم للبناء للإضافة إلى المبنيِّ مواضعُ أحكمت في النحو، وماذا يقول الحوفيُّ في قوله:

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٢٩٥. والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٤٢.
(٣) ٧/ ٢٩٤.

وقـد حـيـل بـيـن الـعـيـر والـنَّـزوان[1]

فإنَّه نصب «بينَ» مع إضافتها إلى معرب

وقرأ ابنُ عامر والكسائي بإشمام الضَّمِّ للحاء[2].

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة. و«من قبل» متعلِّق بـ «أشياعهم»، على أنَّ المراد مَن اتَّصفَ بصفتهم «من قبل» أي: في الزمان الأول. ويرجِّحه أنَّ ما يفعل بجميعهم في الآخرة إنَّما هو في وقت واحدٍ. أو متعلِّقٌ بفعل إذا كانت الحيلولة في الدنيا.

وعن الضحاك أنَّ المرادَ بـ «أشياعهم» أصحاب الفيل، والظاهر أنَّه جعل الآية في السفيانيِّ ومن معه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي: مُوقعٍ في ريبة، على أنَّه من أَرَابه: أَوْقَعه في ريبة وتهمة، أو: ذي ريبة، من أرابَ الرجلُ: صارَ ذا ريبة، فإمَّا أن يكون قد شَبَّه الشكَّ بإنسانٍ يصحُّ أن يكون مريباً على وجه الاستعارة المكنيَّة التخييلية، أو يكون الإسنادُ مجازيًّا أسند فيه ما لصاحب الشكِّ للشكِّ مبالغةً، كما يقال: شعر شاعر، وكأنه من هنا قال ابن عطية: الشكُّ المريبُ أقوى ما يكونُ من الشَّكِّ[3]، وضميرُ الجمع للإشباع، وقيل: لأولئك المحدَّث عنهم. والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في بعض آيات السورة ما قيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أشير بالجبال إلى عالم المُلك، وبالطير إلى عالم الملكوت، وقد ذكروا أنه إذا تمكن الذكر سرى في جميع أجزاء البدن، فيسمعُ الذاكرُ كلَّ جزءٍ منه ذاكراً، فإذا ترقَّى حالُه يسمعُ كلَّ ما في عالم الملك كذلك، فإذا ترقَّى يسمعُ كلَّ ما في الوجود كذلك ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) سلف ١/ ٢٣٣، وهو لصخر بن عمرو بن الشريد، وصدره:

أهـمُّ بـأمـر الـحـزم لا أسـتـطـيـعـه

(٢) التيسير ص ١٨١، والنشر ٢/ ٢٠٨، وهي قراءة رويس راوية يعقوب من العشرة أيضاً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢٧.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ القلب ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي الحِكَمُ البالغة التي تظهر من القلب على اللسان ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي: في سرد الحديث، بأن تتكلَّم بالحكمة على قَدْرِ ما يتحمَّله عقل مخاطبك، وقد ورد: كلِّموا الناس بما يعرفون، أتريدونَ أن يكذَّب الله تعالى ورسوله ﷺ[1].

ومن هنا يصعبُ الجوابُ عمَّن تكلم من المتصوفة بما ينكرُه أكثر من يسمعُه من العلماء، وبه ضلَّ كثيرٌ من الناس.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ ريح العناية ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ فكان يتصرَّف بالهمَّة وقذف الأنوار في قلوب متَّبعيه من مسافة شهر ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ إشارةٌ إلى قوة باطنه، حيث انقادَ له مَن جُبِلَ على المخالفة وفعل الشرور.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ وهو مَن شَكَره بالأحوال، أعني التخلُّقَ بأخلاق الله تعالى.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أن الضعيفَ قد يفيد القويَّ علماً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي مقامات أهل الباطن من العارفين ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ وهي مقامات أهل الظاهر من الناسكين ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ﴾ في ليالي البشرية ﴿وَأَيَّامًا﴾ في أيام الروحانية ﴿ءَامِنِينَ﴾ في خفارة الشريعة.

وقال بعض الفرقة الجديدة الكشفيَّة[2]: القرى المبارك فيها: الأئمَّة رضي الله عنهم، والقرى الظاهرة: الدعاة إليهم والسفراء بينهم وبين شيعتهم.

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بميلهم إلى الدنيا وتركِ السير لسوء استعدادهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الهيبة تمنع الفهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: ما أخرجناك من العدم إلى الوجود ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾

---

(١) هو من قول سيدنا علي، وسلف ١٣/ ٣٠٨.

(٢) سلف التعريف بهذه الطائفة ٢١/ ١٣٥.

الأولين والآخِرين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ وهذا حاله عليه الصلاة والسلام في عالم الأرواح وفي عالم الأجساد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لا نورَ لهم يهتدون به.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ هؤلاء قُطّاع الطريق على عباد الله تعالى، ومِثْلُهم المنكرون على أولياء الله تعالى، الذين يُنفِّرون الناس عن الاعتقادِ بهم واتِّباعهم.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ من القرآن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه نورٌ لا يبقى معه ديجور، أو مراتبُ الاهتداء به متفاوتةٌ حسب تفاوت الفهم الناشئ من تفاوت صفاء الباطن وطهارته، وقد ورد أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً(١)، ولا يكاد يصلُ الشخص إلى باطنه إلَّا بتطهير باطنه، كما يرمز إليه قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩].

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهمِ ظاهره وباطنه إلى ما شاء من البطون، فإنَّه جلَّ وعلا القادر الذي يقول للشيء كن فيكون.

---

(١) ولم يصح في ذلك شيء، ومع ذلك فقد قالوا: إن الظاهر هو اللفظ، والباطن هو المعنى، وينظر ما سلف ١٠٩/١.